

جامعة البحرين



قسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية

كلية الآداب

جماليات الوصف في الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور براً وبحراً

لأبي القاسم الزباني المتوفى سنة (1833م - 1249هـ)

رسالة أُعدت لاستكمال نيل متطلبات درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها

إعداد الطالبة:

سامية خالد عبد الله

الرقم الأكاديمي: 20125607

إشراف:

أ.د. أحمد محمد ويس

أستاذ نظرية الأدب وعلم الأسلوب

جامعة البحرين

مملكة البحرين

مارس 2024 م

نموذج رقم (٢)
صفحة الاعتماد من قبل لجنة التحكيم



جامعة البحرين

كلية الآداب

قسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية

برنامج الدبلوم العالي والماجستير في اللغة العربية

ناقشت الطالبة سامية خالد عبد الله الرقم الجامعي 20125607 الأطروحة التي استكملت بها متطلبات الحصول على درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها. والموسومة "جماليات الوصف في الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور براً وبخراً لأبي القاسم الزباني المُنوَّى سنة (١٨٣٣م-١٢٤٩هـ)"، وذلك يوم الثلاثاء الموافق ٧ مايو ٢٠٢٤

وتوصي اللجنة بمنحها درجة الماجستير بتقدير: Pass

(لجنة المناقشة)

الاسم	التوقيع
أ.د. أحمد محمد ويس	مشرفاً
أ.د. زهير محمود عبيدات	ممتحناً خارجياً
أ.د. عبد الفتاح أحمد يوسف	ممتحناً داخلياً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الملخص

تناولت هذه الأطروحة دراسة جماليات الوصف في الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برًا وبحرا، لأبي القاسم الزياتي، وهذه الدراسة مُقسّمة إلى مقدمة وفصول أربعة فخاتمة، يختصّ الفصل الأول بدراسة أدب الرّحلة، وتعرض فيه الدراسة إلى قضية تجنيس الرّحلة، من خلال بحث مفهوم الجنس الأدبي، والنصّ الرّحلي، ثم ينظر المبحث الثاني في النصّ الرّحلي، مكوناته وأنواعه وأهميته العلمية والأدبية، أمّا المبحث الأخير في هذا الفصل فيختصّ بالرحلات المغربية في القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، الذي يبحث الإطار التاريخي لها، ثم سياقها التاريخي والثقافي.

ثم يأتي الفصل الثاني بعنوان الوصف في الأعمال السردية، حيث نبحت فيه مفهوم الوصف لغةً واصطلاحًا، وفي المبحث الثاني نُعرّف بعناصر الوصف: الزمان والمكان والشخصيات، والمبحث الثالث نستهدف إيضاح تقنيات الوصف وفق تقسيم ثلاثي يقوم على: عناصر الوصف الخارجي وعناصر الوصف الداخلي، واللغة باعتبارها مكوّنًا أساسيًا في تشكيل اللغة الوصفية، والمبحث الأخير يسعى إلى وضع اليد على وظائف الوصف من خلال التعريف بها وعرضها من خلال الأمثلة.

أمّا الفصل الثالث فنبحث فيه تداخل الأجناس في الترجمانة الكبرى، وهو على مبحثين، الأول يبحث الأجناس، والأنواع الأدبية في الترجمانة الكبرى، والثاني يتناول المعارف والعلوم في الترجمانة الكبرى. وفي الفصل الرابع والأخير تطرقت الدراسة لجماليات الوصف في الترجمانة الكبرى، من خلال بحث تقنيات الوصف في المبحث الأول، ووظائفه في المبحث الثاني، والعلاقة بين تداخل الأجناس وجمالية الوصف في الترجمانة الكبرى في المبحث الأخير.

وفي الخاتمة تلخيص لجُملة من النتائج التي توصّلنا إليها ولعلّ من أهمها:

- أن بناء أدب الرّحلة في مراحله الأولى تداخل مع عدد من الأجناس والأنواع الأدبية، والعلوم والمعارف.
- أن جماليات الوصف في الترجمانة الكبرى، تأثرت بتداخل الأجناس والأنواع الأدبية، والعلوم والمعارف في بناء النصّ الرّحلي.
- أن جماليات الوصف في الترجمانة الكبرى، تأثرت بتقنيات الوصف التي تنوعت أشكالها بتنوع حضورها في الأجناس والأنواع الأدبية والعلوم، والمعارف المتداخلة في بناء النصّ الرّحلي.
- أنّ جماليات الوصف في الترجمانة الكبرى، ظهرت عبر وظائف الوصف المتنوعة، وليس فقط من خلال الوظيفة الجمالية للوصف.

الإهداء

إلى مَنْ مَدَّ لِي يَدَ الْعَوْنِ، وَأَغَانَنِي بِفَيْضِ كَرَمِهِ، وَلَطَفَهُ، وَحَسَّنَ أَخْلَاقَهُ،
وَسَعِيَهُ، وَنَفَازَ بَصِيرَتِهِ فِي تَوْجِيهِهِ وَتَقْوِيمِي بِرَأْيِهِ السَّدِيدِ، وَمُلَاحَظَاتِهِ الْعِلْمِيَّةِ
الدَّقِيقَةِ أَسْتَاذِي الْفَاضِلَ الْأَسْتَاذَ الدُّكْتُورَ أَحْمَدَ مُحَمَّدَ وَيَسَ

إلى مَنْ أَعْطَنِي مِنْ عَمْرِهَا، وَبَارَكَنِي بِدَعَائِهَا وَكَسَنِي بِحَنَانِهَا، الْيَدَ
الْنَاعِمَةَ، وَالْقَلْبَ الْكَبِيرَ جَدَّتِي..

إلى مَنْ وَقَفَ بْجَانِبِي: أُمِّي الْحَبِيبَةُ، أَبِي الْغَالِي، وَإِخْوَتِي الْأَعْزَاءَ..

إلى مَنْ وَهَبَنِي الْبَهْجَةَ: صَدِيقَاتِي الْعَزِيزَاتِ..

أَهْدِي هَذِهِ الرِّسَالَةَ..

المحتوى	
الموضوع	الصفحة
ملخص البحث باللغة العربيّة	4
الإهداء	5
المقدمة	10
الفصل الأول: أدب الرحلة	18
المبحث الأول: تجنيس الرحلة	19
أ. مفهوم الجنس الأدبي	19
ب. قضية تجنيس الرحلة	21
ت. مفهوم النصّ الرحلي	34
المبحث الثاني: النصّ الرحلي	36
أ. تصنيف الرحلات	36
ب. مكونات النصّ الرحلي	39
ت. أهمية نصوص الرحلات	41
المبحث الثالث: الرحلات المغربية في القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر	43
أ. الإطار التاريخي	43
ب. السياق التاريخي	46
ت. السياق الثقافي	53
الفصل الثاني: الوصف في الأعمال السردية	58
المبحث الأول: مفهوم الوصف	59
أ. الوصف لغةً	59
ب. الوصف اصطلاحاً	60
المبحث الثاني: التعريف بعناصر الوصف	62
أ. الزمان	62

63	ب. المكان
65	ت. الشخصيات
66	المبحث الثالث: تقنيات الوصف
66	أ. عناصر الوصف الخارجي
68	ب. عناصر الوصف الداخلي
71	ت. اللغة
75	المبحث الرابع: وظائف الوصف
75	أ. الوظائف الحكائية
75	1. الوظيفة الإخبارية
76	2. الوظيفة التصويرية
76	3. الوظيفة السردية
77	ب. الوظائف الدلالية
77	1. الوظيفة الإشارية
78	2. الوظيفة الرمزية
78	3. الوظيفة التعبيرية
79	4. الوظيفة الأيديولوجية
80	5. الوظيفة الجمالية
82	الفصل الثالث: تداخل الأجناس في الترجمانة الكبرى
83	المبحث الأول: الأجناس والأنواع في الترجمانة الكبرى
83	أ. الرحلة
90	ب. السيرة الذاتية
95	ت. التراجم
97	ث. الحكاية
104	ج. الرسائل
118	ح. الخطبة
122	خ. الشعر
129	المبحث الثاني: المعارف والعلوم في الترجمانة الكبرى

129	أ. الجغرافيا
133	ب. التاريخ
136	ت. الأنساب
137	ث. العلوم الشرعية
141	الفصل الرابع: جماليات الوصف في الترجمانة الكبرى
142	المبحث الأول: الوصف في الترجمانة الكبرى
143	أ. المكان في الرحلة
143	1. مكان الانطلاق
147	2. أمكنة العبور
158	3. المكان الغاية
163	ب. المكان خارج الرحلة
166	ت. الشخصيات في الرحلة
166	1. الرحلة الأولى 1169هـ
170	2. الرحلة الثانية 1200هـ
181	3. الرحلة الثالثة 1206هـ
203	ث. الشخصيات خارج الرحلة
206	ج. الزمان في الترجمانة الكبرى
212	المبحث الثاني: وظائف الوصف في الترجمانة الكبرى
212	أ. الوظيفة التصويرية
216	ب. الوظيفة الإخبارية
220	ت. الوظيفة السردية
225	ث. الوظيفة التعبيرية
235	ج. الوظيفة الأيديولوجية
239	ح. الوظيفة الجمالية
242	المبحث الثالث: العلاقة بين تداخل الأجناس وجماليات الوصف في الترجمانة الكبرى
242	أ. تعدد الأصوات (الرواة)
246	ب. خصوصية الوصف في كلّ جنس

248	ت. ثنائىة الواقع والتمخيل
251	ث. الفكر الموسوعي
253	الخاتمة
255	المصادر والمراجع
267	الملخص باللغة الإنجليزية

المقدمة

يبدو الأدب في بعض مناحيه وليد حاجة الإنسان إلى التعبير عن ذاته أو لتصوير العالم الخارجي، وقد تجلّت مظاهر التعبير هذه بأشكال عديدة عبر مختلف الأجناس الأدبية، فالأدب في جانب منه قد يبدو مرآة لصاحبه تعكس أفكاره وأوهامه وطموحاته، وقد يكون أيضاً مرآة للعالم الواسع من حوله بكلّ تفصيلاته ودقائقه. وأدب الرحلة نوع أدبي تتداخل فيه الأنواع وتتنوع فيه آليات الكتابة، وتؤثر فيه عوامل كثيرة، لكن من أهم ما يتجلى فيه هو هذا الوصف الذي يحرص الرحالة أن يقدّمه لمشاهداته ومرئياته وتجاربه، ومن ثمّ فإنه يترجم لنا رؤيته وتفاعله مع عوالم الأمكنة التي أقام بها أو مرّ بها واخترقها وطواها من خلال ما يقوم به من وصف، ولا نبالغ إذا قلنا إنّ الوصف هو أهم ما ينتظره متلقّي أدب الرحلات، فنحن من خلال قراءة الرحلات نتخيل صور الأماكن والشخصيات من خلال براعة الوصف والتصوير التي يفترض أن يمتاز بها كاتب الرحلة. ويمكن القول إنه إذا كان السرد هو جوهر الحكى، فإنّ الوصف صنو السرد في لزومه للحكى والقص.

وهذا ما قادنا لاختيار موضوع بحثنا "جماليات الوصف في الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور براً وبحراً لأبي القاسم الزياتي"، لكي نبحث جماليات الوصف في أحد أضخم كتب الرحلات التي دونت في القرن الثامن عشر الميلادي في المغرب.

وأما لماذا الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور براً وبحراً لأبي القاسم الزياتي؟ فإنّ أبا القاسم الزياتي يُجيب عن هذا السؤال في مقدمة الترجمانة الكبرى بقوله: "إني لما رمت بي الأقدار، وجئت في الأقطار، وشاهدت كثيراً من الأمصار، في البراري والبحار، ووقفت على الأخبار، واجتمعت بجملة وافرة من الأمراء والأبرار، والعلماء النجباء الأخيار، واستفدت منهم ما شاء الله من الآثار، وقيدت من أحوال هذا العالم ما في دواوين الأخبار، وعدت ممتلئ الحواصل، من خبر الأواخر والأوائل، ولما ألقيت عصى التسيار، واستقرت بنا الدار، في ظلّ هذا الإمام العظيم المقدار، جمعت ما قيدته في رحلتي الثلاث، وما شاهدته من الأمصار والبحار، وما لقيت من السادات، جعلته رحلة واحدة على قاعدة النحاة في جواز الجمع بين الأخوات وسميتها الترجمانة الكبرى والتي جمعت أخبار العالم براً وبحراً"¹.

¹ الزياتي، أبو القاسم: الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور براً وبحراً، تحقيق: عبد الكريم الفيلاي، ط1، دار نشر المعرفة

ولعل أول ما يصادفنا في تقديم الزَيَّاتِي للترجمة إشكالية تحديد الجنس الأدبي للترجمة الكبرى، فهل هي سيرة ذاتية أم هي كتاب في الجغرافيا الوصفية التي احتلت جزءاً مهماً من الترجمانة الكبرى غني فيه الزَيَّاتِي بوصف البلدان والمدن والعمران، وأفرد فصولاً يعرض فيها أسماء الجبال والوديان والبحار والحجارة وخصائصها العلاجية والآبار وغيرها من الأمكنة. بالإضافة إلى احتواء الترجمانة على عدد من القصص العجائبية التي تتصل بكرامات الأولياء ومناقب الصالحين. بل إن الترجمانة تتسع لتضم مراسلات هي أقرب إلى الرسائل الإخوانية، ولم تخلُ الترجمانة من الشعر فقد أورد المؤلف عدداً من القصائد في مختلف الموضوعات الشخصية والسياسية والاجتماعية، وضمت أيضاً مجموعة من التراجم لعدد من العلماء والشخصيات السياسية والتاريخية.

كل ذلك دفعنا إلى اتخاذ الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور بَرًا وَبَحْرًا موضوعاً لدراسة جماليات الوصف فيها، إذ من خلال هذا التنوع الأدبي الذي تشكلت من خلاله الترجمانة الكبرى يمكننا اعتبارها من أهم النصوص الأدبية التي من شأنها أن تبرز وظائف الوصف من خلال دراسة العناصر السردية المشتركة بين الأجناس الأدبية المختلفة وهي الزمان والمكان والشخصيات.

تأتي أهمية الزمان لارتباط الوصف به من خلال مفهوم الفعل المؤسس الأول للسرد والذي يتكون من حدث وزمن، فالحدث هو الوصف الذي يشكل الوظائف الوصفية التي نحن بصدد دراستها إلى جانب تأثير مستويات الزمن السردية على الأحداث (الوصف)، وهي: الزمن الماضي (وهو الزمن الذي يرتبط بعملية التذكّر والاستدكار)، الزمن الحاضر (المرتبط بعملية الإخبار والتفسير والتخييل)، وأما الزمن المستقبل (فيرتبط بعملية الاستباق).

وإذا كان المكان هو الحيز فالأفعال لا تقوم في الفراغ إنما في حيز ما، ولهذا الحيز صفاته التي تشكله من خلال وظائف الأسماء الواصفة، ويحضر الزمن في المكان عبر الأفعال التي تصفه بين الثبات والتغير.

وأما الشخصيات التي تتكوّن من خلال الأسماء (الصفات) والأفعال (الأحوال) فتشكّل مع الزمان والمكان العناصر الأساسية للبناء السردية، ولذا وجدنا أنّ دراسة جماليات الوصف تحتاج بالضرورة لهذه العناصر السردية الثلاثة؛ لأن جماليات الوصف لا تقوم على وظيفة وصفية معينة بذاتها إنما تقوم على جميع الوظائف الوصفية وهذا ما يؤكد أهمية الزمان والمكان والشخصيات في دراسة جماليات الوصف في الترجمانة الكبرى .

فهذه هي العناصر الأساسية التي ستشكل التقسيم الأساسي لتحليل تقنيات الوصف في الترجمة الكبرى تحت ما يسمى بعناصر الوصف الخارجي دون إهمال عناصر الوصف الداخلية، واللغة التي تُشكل جانبًا هامًا في إظهار وإبراز جماليات الوصف.

الوظيفة التصويرية للغة هي جوهر الوصف، أما الوظيفة الجمالية فهي جوهر الأعمال الأدبية، وذلك أن الأدب كثيرًا ما يرتبط بالإمتاع في مختلف أجناسه، فكيف إذا تداخلت الأجناس في عمل أدبي معين؟

وإن أهمية دراسة جماليات الوصف في الترجمة الكبرى لتأتي من تداخل الترجمة مع عدد من الأجناس الأدبية والكتابية، وهذا ما يجعل من موضوع الجماليات الوصفية فيها ذا أهمية خاصة، إذ من شأن هذا التداخل أن يتولد عنه نوع ما من الإمتاع والجمال فضلًا عن المعرفة التي في النص.

والدراسات السابقة التي تتصل بموضوع دراستنا، تنقسم إلى قسمين:

أولاً: الدراسات في الوصف:

1. فن الكتابة، تقنيات الوصف، لعبد الله الخمار، نشر مشترك مع دار الكتاب العربي بالجزائر، ط1، 1998، يتناول المؤلف تقنيات الوصف في تحليل عدد من النصوص لتوضيح التقنيات وطريقة توظيفها في النصوص.
2. الوصف في النصّ السردي، بين النظرية والإجراء، لمحمد نجيب العمامي، دار محمد علي للنشر، ط1، 2010، صفاقس تونس، يتناول المؤلف الوصف في هذا الكتاب باعتبار أهميته في الكلام البشري، فيتناول منازل الوصف وأنماطه ووظائفه ويقسمها إلى وظائف حكائية وأخرى دلالية.
3. وظيفة الوصف في الرواية، لعبد اللطيف محفوظ، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط1، 2009، بيروت، يعالج المؤلف علاقة الوصف بالسرد الروائي من خلال دراسة تحليلية للوصف في رواية مدام بوفاري بعد أن يتناول في القسم الأول السرد الوصفي وأشكال الوصف الموجه من قبل السرد والوصف الحر ويختمه بعلاقة الوصف بالزمن.
4. تقنيات الوصف في رحلة " الإفادة والاعتبار " لعبد اللطيف البغادي، لرزيقة رويقي، مجلة العلوم الإنسانية، المجلد 31، عدد 3، ديسمبر 2020، ص275-285، تهدف

- هذه الدراسة إلى بحث أنماط الوصف ووظائفه في إحدى كتب الرحلات، مؤكدًا على أهمية الوصف في أدب الرحلة بالمقارنة ببقية الأعمال السردية كالرواية والقصة.
5. **جماليات الوصف في المجموعة القصصية (الوصية) للقااص هيثم بهنام بردى، د.** اسراء سالم موسى، المجلة الدولية للعلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد 16، أكتوبر 2020، ص35-43، تسعى هذه الدراسة لدراسة أشكال ووظائف الوصف في المجموعة القصصية للقااص هيثم بهنام بردى.
6. **شعرية الوصف في أدب الرحلة - رحلة ابن بطوطة أنموذجًا، لفوزية قفصي، مجلة التواصل في اللغات والآداب، عدد37، مارس 2013، ص155-168،** تعالج هذه الدراسة تقنية الوصف في رحلة ابن بطوطة أنموذجًا انطلاقًا من أهمية الوصف في البناء السردى فعرض المؤلف إلى مفهوم الوصف ووظائفه وعلاقته مع السرد، وأنواعه مستندًا على عدد من الآراء النقدية في مجال السيميائية والسرديات.
7. **جماليات الوصف في روايات سليمان القوابعة، لأمينة عبد الجليل سليمان القواسمة، بإشراف أ.د. سامح عبد العزيز الرواشدة، رسالة ماجستير من جامعة مؤتة في الكرك، الأردن، 2014،** تعرض هذه الدراسة إلى جمليات الوصف في روايات الكاتب سليمان القوابعة من خلال دراسة تقنيات الوصف التي مارسها الكاتب في رواياته.
8. **جماليات تشكيل الوصف في القصة القصيرة، لدكتور نبهان حسون السعدون، طباعة ونشر تموز، ط1، 2014، دمشق،** ينطلق المؤلف من تحديد مفاهيم الجمالية، التشكيل، الوصف، والقصة القصيرة، ثم يتناول جمليات تشكيل اتجاهات الوصف في عدد من عناصر السرد ووظائفه وأنماطه.
9. **الوصف في تجربة إبراهيم نصر الله الروائية، لدكتور نداء أحمد مشعل، وزارة الثقافة، ط1، جرش مدينة الثقافة الأردنية 2015، عمان، الأردن،** يتناول المؤلف موضوعات الوصف وأساليبه ووظائفه وعلاقة الوصف مع عناصر السرد الأخرى من خلال دراسة روايات إبراهيم نصر الله.
10. **الوصف بين الشعر والنثر، لد. م عبد الكريم خضير عليوي السعيدى، مجلة آداب ذي قار، مجلد1، العدد3، مايو 2011، كلية الآداب، جامعة ذي قار، العراق،** تقدم هذه

الدراسة بحثًا في تأثير الوصف على النثر السردى أثناء تداخل الأجناس الأدبية، خاصة حين يتداخل الجنس الشعري بالجنس السردى.

11. الوصف في الرواية العربية الحديثة، رواية متاهة الأولياء لأدهم العبودي أنموذجًا، لدكتور صالح جديد، مجلة حوليات الآداب واللغات، العدد 7، جامعة بوضياف المسلية، الجزائر 2016. تعالج هذه الدراسة الوصف من خلال التقنيات السردية التي يقوم بها بالاعتماد على عدد من المقاربات النقدية في دراسة الوصف ووظائفه وارتباطه بعناصر السرد.

ثانيًا: الدراسات السابقة في الترجمة الكبرى في أخبار المعمور بَرًا وبحرًا ومؤلفها.

1. المدخل الأدبي إلى الترجمة الكبرى في أخبار المعمور بَرًا وبحرًا لأبي القاسم الزياتي، لسعيد المولودي، مجلة الثقافة المغربية، العدد 35، إصدار وزارة الثقافة، 2010. تعرض هذه الدراسة إلى النكبات السبع التي مرّ بها الزياتي خلال رحلاته الثلاث.
2. منهج الكتابة التاريخية في رحلة أبي القاسم الزياتي المسماة " الترجمة الكبرى في أخبار المعمور بَرًا وبحرًا"، لياسين خرشوفة، باحث في التاريخ، مجلة أليكسوس، العدد 19، 2017. في هذه الدراسة يهتم الباحث بالمنهج التاريخي الذي اتبعه الزياتي في تدوين الوقائع، ومن أين استقى الأخبار والجغرافيا الوصفية خاصة في وصفه للبلاد التي لم يعاينها في رحلاته الثلاث، كالصين والهند واليمن والأقاليم الأربعة وما حوتها من جبال ومسطحات مائية وآبار، ومن هم المؤرخون الذين اقتبس منهم وضمن ترجمته اقتباسات عديدة منهم، واتبعهم في منهجهم الوصفي الجغرافي.
3. تداخل الأجناس في أدب الرحلة، لأيوب بن مسعود، المؤسسة العربية لدراسات والنشر، ط1، 2020، يتناول المؤلف الترجمة الكبرى أنموذجًا من أدب الرحلة المغربي، وقضية تداخل الأجناس الأدبية فيها، من خلال تناوله للعوامل التي أدت إلى تداخل الأجناس في كتاب الترجمة الكبرى وتحليلها.

4. أدب الرحلة، جدلية الأنا والآخر، لمجموعة من المؤلفين، تنسيق وتقديم خالد التوزاني، دار كنوز المعرفة، ط1، 2020، عمان، الأردن، ومن ضمن هؤلاء المؤلفين أيوب بن مسعود الذي يتناول في إحدى الفصول جدلية الكتابة والسلطة في الترجمة الكبرى لأبي القاسم الزباني من خلال جدلية السلطة والمنطق.
5. أبو القاسم الزباني (1147-1249هـ/1734-1833م) وكتابة الترجمة الكبرى، لنقولا زيادة، بيروت، مجلة القافلة، المجلد34، العدد الأول، 1985، ص6-9، يعد هذا المقال تلخيصًا للترجمة الكبرى ولما جاء فيها من رحلات الزباني الثلاث وما جاء على لسانه فيها من أخبار.
6. الرحلة المغربية والشرف العثماني، محاولة في بناء الصورة، لمصطفى الغاشي، ط1 الانتشار العربي، بيروت 2015، في صفحة 232 إلى 246 تناول المؤلف شخصية الزباني بالتحليل فعرض إلى المناخات التي وجد فيها الزباني وأثرت فيه وقادته إلى التأليف وخاصة الترجمة الكبرى التي كانت آخر مؤلفاته، فتناول المؤلف انتماء الزباني الاجتماعي وتأثير سلاطين الدولة العلوية عليه وعلاقته بهم، والوسط الثقافي الذي أحاط به وقيمه التاريخية وما قيل فيه من نقد وإشادة.
7. مؤرخو الدولة العلوية " أبو القاسم الزباني أنموذجًا"، لد. نصيرة كلة، قسم التاريخ، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، الجزائر، مجلة الدراسات التاريخية والاجتماعية، تصدر عن كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة نواكشوط، موريتانيا، ص240-252، تتناول هذه الدراسة الزباني المؤرخ فتبين منهجه ومؤلفاته وأهميتها.
8. الأفكار السياسية لأبي القاسم الزباني من خلال كتاب الترجمة، للمولودي نور الزين، مجلة فكر ونقد، إلكترونية، <http://www.aljabriabed.net>، العدد 44، مقال رقم 8، أهمية هذه الدراسة أنها تناولت الأفكار السياسية التي تبناها الزباني خلال محطات حياته المختلفة وتقلبه في المناصب الوزارية في الدولة العلوية.
9. تمثيلات النكبة في " الترجمة الكبرى في أخبار المعمور بَرًا وبحرًا" لأبي القاسم الزباني، لهيثم سرحان ومعاذ الجابري، مجلة العلامة، المجلد6، العدد1، جامعة قطر،

2021. وتذهب هذه الدراسة إلى تأويل النكبات التي مرّ بها الزياتي في الخطاب الرحلي الذي تتضمنه الترجمة الكبرى.

ونحن ننطلق في هذا البحث من عدة فرضيات أبرزها :

- النص الرحلي تداخل مع عدد من الأجناس والأنواع الأدبية والعلوم.
- تنوع تقنيات الوصف ووظائفه إثر تعدد الأجناس والأنواع والعلوم في بناء النص الرحلي.
- تداخل الأجناس في النص الرحلي يبرز جماليات الوصف.
- أهمية الوصف بوصفه موازيًا لأهمية السرد في تشكيل جماليات النص الرحلي.

ونهدف في هذا البحث إلى:

- تسليط الضوء على أثر تداخل الأجناس في الترجمة الكبرى في رفع القيمة الجمالية للنص الرحلي.
- إبراز أهمية الوصف في البناء الجمالي للنص الرحلي.
- الكشف عن علاقة الوصف بالتكوين الجمالي لعناصر السرد الزمان والمكان والشخصيات.

ونفترض الوصول إلى هذه الأهداف من خلال هذه الدراسة بالإجابة عن جملة من التساؤلات لعل من أهمها:

1. ما علاقة أدب الرحلة بالأجناس، والأنواع الأدبية، والمعارف، والعلوم؟
2. ما أثر تقنيات الوصف المستخدمة في البناء الجمالي لنص الترجمة الكبرى؟
3. ما أثر وظائف الوصف في البناء الجمالي لنص الترجمة الكبرى؟
4. ما هي جماليات الوصف في الترجمة الكبرى؟

وستنعمد في هذه الدراسة على منطلقات نظرية نستمدّها أولاً من قضية تداخل الأجناس الأدبية في أدب الرحلات، التي تبحث في العلاقة بين أدب الرحلة والأجناس الأدبية والعلوم والمعارف التي تتداخل معها كالسيرة الذاتية والجغرافيا الوصفية، والتاريخ، والحكي العجائبي. كما سنستند في معظم أرجاء البحث على علم السرد لكون أدب الرحلات من الأعمال السردية، لتحرير مصطلح الوصف، والذي بناءً عليه سنحدّد تقنيات الوصف ووظائفه التي سيتمّ توظيفها في الجانب التطبيقي.

وللوصول إلى نتائج واضحة سنستفيد من المنهج الإحصائي من خلال إعداد جداول تهدف إلى تفكيك البنية الوصفية للترجمة الكبرى والاعتناء بالعناصر السردية: الزمان والمكان والشخصيات، إلى جانب فرز الأجناس والأنواع الأدبية وتعيين مسمياتها بما تحدده صفاتها البنائية.

وبهذا كانت جماليات الوصف في الترجمانة الكبرى لأبي القاسم الزَيَّاني موضوعاً لدراستنا هذه.

ولا يسعني في خاتمة هذه المقدمة إلا أن أتقدم بوافر الشكر وجميل العرفان لأستاذي الكريم الأستاذ الدكتور أحمد محمد ويس الذي وجهني التوجيه العلمي السديد، وأثار بصيرتي بملاحظاته العلمية الدقيقة، وبذل بعنايته المعهودة جهده وطاقته في الإرشاد والتقويم، فالفضل العظيم يعود إليه بعد الله سبحانه وتعالى على إنجاز هذه الدراسة وإخراجها بصورتها الراهنة، فأنا أدين إليه بما في البحث من حصافة وأصالة، وعليّ وحدي حمل ما فيه من وجوه الزلل والنقص والتوهم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الفصل الأول: أدب الرحلة

المبحث الأول: تجنيس الرحلة

- أ. مفهوم الجنس الأدبي
- ب. قضية تجنيس الرحلة
- ت. مفهوم النص الرحلي

المبحث الثاني: النص الرحلي

- أ. تصنيف الرحلات
- ب. مكونات النص الرحلي
- ت. أهمية نصوص الرحلات

المبحث الثاني: الرحلات المغربية في القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر

- أ. الإطار التاريخي
- ب. السياق التاريخي
- ت. السياق الثقافي

المبحث الأول: تجنيس الرحلة

عُرف الإنسان بالعقل، مما جعل لحركاته دوافع أُسمى غايةً، وأبلغ أهمية في أطوار المعارف الإنسانية. لذا كان بحث المفاهيم الأوليّة التي يقوم عليها هذا البحث هو موضوع المبحث الأول والذي سنبحث فيه مفهوم الجنس الأدبي الذي بدوره يُؤسس لمفهوم النصّ الرحلي كجنس أدبي، مع ضرورة بحث قضية تجنيس الرحلة والإشكاليات الدائرة حول اعتبارها جنسًا أدبيًا قائمًا بذاته. إلى جانب الأجناس الأدبية والعلوم والمعارف المتصلة بالبنية النصّية للرحلة للوصول إلى مفهوم أكثر وضوحًا للنصّ الرحلي.

أ. مفهوم الجنس الأدبي

ولكي نرى بوضوح ما هو الجنس الأدبي نعود أولاً إلى معاجم اللّغة فنجدها تُجمَعُ على أنّ الجنس هو "الضَرْبُ من كلّ شيء"¹ أو "الضَرْب من الشّيء"² أو "كلّ ضرب من الشّيء"³. وجمعه "أجناس وجُنُوس"⁴، والجنس "أعمّ من النوع ومنه المُجانسة والتّجنيس. وهذا ما يحمل الجنس على الجمع والترتيب والتصنيف. فيقال: "الحيوان أجناسٌ: فالناس جنسٌ والإبل جنسٌ، والبقرة جنسٌ والشّاء جنسٌ"⁵ ويقال: "هذا

¹ ابن منظور: لسان العرب، المجلد 6، دار صادر، بيروت، ص43.

² ابن فارس، أبو الحسين أحمد: معجم مقاييس اللّغة، اعتنى به: محمّد عوض مرعب وفاطمة محمّد أصلان، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 2001، ص210.

³ الزبيدي، السيد محمّد مرتضى: تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: التريزي وحجازي والطحاوي والعزباوي، راجعه: عبد الستار أحمد فراج، ج15، مطبعة حكومة الكويت، 1975، ص515.

⁴ ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن: كتاب جمهرة اللّغة، ج2، ط1، مطبعة مجلس دائرة المعارف، بلدة حيدر آباد الدكن، 1344هـ، ص95.

⁵ ابن منظور: لسان العرب، المجلد6، دار صادر، ص43.

يُجانس هذا أي يُشاكله"¹. أيّ أنّ الجنس يَرِدُ بمعنى المُشاكلة فإذا كان "فلانٌ يُجانسُ البهائم ولا يُجانسُ النَّاسَ إذا لم يكن له تمييز ولا عقل"². و"كيف يؤانسك من لا يُجانسك"³.

أما النوع فتُعرفُهُ المعاجم اللّغوية بأنّه كذلك الضرب من الشيء وما دلّ " على طائفة من الشيء مماثلة له"⁴. إلا أنّه يأتي بمعنى " ناع الغصن ينوع: أي: تمايل. وناع الشيء نوعاً: تَرَجَّحَ. والتنوع: التذبذب"⁵. ويقال جائع نائع، أيّ مضطرب من شدّة جوعه تمايل، ويدْعُون على الإنسان فيقولون: جُوعاً له ونُوعاً له"⁶. فهذه التعريفات اللّغوية تُظهر أنّ الجنس والنوع يشتركان في تعبيرهما عن الأشكال المختلفة، إلا أنّ النوع أخصّ من الجنس، إذ الجنس " اسمٌ دالٌّ على كثيرين مختلفين بأنواع، كليّ مَقُول على كثيرين مختلفين بالحقيقة"⁷.

وبعبارة أكثر وضوحاً فالجنس هو ما يُطلق على كثيرين مختلفين في الحقيقة مثل الحيوان فهو جنس يشمّل الإنسان والفرس، ومن المعلوم الفرق بين حقيقة الإنسان والفرس. أما النوع فهو ما يطلق على كثيرين متفقين في الحقيقة مثل الناس.

ويمكن تعريفُ الجنس الأدبي بأنّه مصطلحٌ "علميّ يُستخدم في تصنيف أشكال الخطاب، وهو يتوسّط بين الآداب والآثار الأدبية"⁸، ومبدأ الجنس الأدبي يتضمن "معايير مسبقة غايتها ضبط الأثر وتفسيره، أما ضبط الأثر فيستند إلى وجود ما يسمّى شروط الجودة في الكتابة...، أما التفسير فيستند إلى اعتبار الجنس الأدبي كياناً يسير إلى غاية ويعطي الأثر وحدته العضوية"⁹. وقد كان النقاد عبر التاريخ ينظرون إلى النصوص

¹ ابن منظور: لسان العرب، المجلد6، دار صادر، ص43.

² المصدر السابق: ص43.

³ الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود: أساس البلاغة، تحقيق: محمّد باسل عيون السّود، ج2، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998، ص152.

⁴ ابن فارس: معجم مقاييس اللّغة، ص967.

⁵ ابن منظور: لسان العرب، مجلد8، دار صادر، ص364.

⁶ ابن فارس: معجم مقاييس اللّغة، ص968.

⁷ الجرجاني، علي بن محمد: معجم التعريفات، تحقيق ودراسة: محمّد صدّيق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة، ص70.

⁸ زيتوني، لطيف: معجم مصطلحات نقد الرّواية، عربي، إنجليزي، فرنسي، ط1، دار النّهار للنشر، بيروت، 2002، ص67.

⁹ المرجع السابق: ص67.

الأدبية بحسب بُناها الفنية وشخصياتها وتعبيراتها التي تشكل جنسها الأدبي حتّى يتأتّى لهم تصنيفها؛ فكلّ جنسٍ أدبيّ يتمتع بوحدة عضوية. وعن الأشكال التي تندرج تحت الجنس الأدبي فهي إمّا نوع لهذا الجنس كما هو حال الرواية الرومانسية، فهي نوع لجنس الروايات، أو جنس جديد كان نتيجة تطور جنس سابق له مما جعله يستقل بخصائصه التي تُحدد وحدته العضوية الجديدة كالرواية بالنسبة إلى القصة.

هذا ما رسّخ للجنس الأدبي مكانته في حقل الدراسات النقدية؛ فوظيفته التعريفية بالنصوص الأدبية برغم تعدد لغاتها، واختلاف مؤلفيها، وتنوع خلفياتها الثقافية والاجتماعية والفلسفية. جعلته إطاراً جامعاً تنطوي تحته كلّ النصوص التي تنتمي إلى وحدته العضوية.

ب. قضية تجنيس الرحلة

تُشكل الألفاظ والمفاهيم نقطة الأساس في الإشكال الذي مرّت به الرحلة من حيث كونها جنساً أدبياً أم لا؛ لذا كان لابدّ من بحث قضية تجنيس الرحلة للوصول إلى مفهومٍ واضحٍ بالنص الرحلي؛ فكان من الأهمية بحث مفهوم الرحلة لغةً بادئ ذي بدء لضرورة الوقوف على جذور لفظ الرحلة الذي صار وسماً على مجموعة من المُدونات.

يقول ابن منظور عن الرحلة في لسان العرب: "وناقة رحيلة ورحلة أيّ شديدة قوية على السير، وكذلك جَمَلٌ رحيل. وبعبير ذو رُحلة أيّ قوّة على السير"¹، ويضيف "ثم جرى ذلك في المنطق حتّى قيل ارتحل القوم عن المكان ارتحالاً. ورحل عن المكان يرحل، وهو راحِلٌ من قومٍ رُحَلٌ"². وفي تاج العروس "الرحلة (بالكسر: الإرتحال) للمسير، يقال: دَنُتْ رحلتنا، منه قوله تعالى: (رحلة الشتاء والصيف)، (وبالضمّ: الوجه الذي تَقْصِده)، وتُريده، وتَأْخُذه فيه، يقال: أنتم رُحلتني، أيّ الذين أُرْتَحِل إليهم، قاله أبو عمرو، ويقال: مكّة رُحلتني، أيّ وجهي الذي أريد أن أُرْتَحِل إليه"³. "والرحلة أيضاً: (السفرة الواحدة) عن ابن سيده، (والرحيل، كأمرير: اسم ارتحال

¹ ابن منظور: لسان العرب، اعتنى به: أمين محمد عبد الوهاب، محمد الصادق العبيدي، ج5، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، 1986، ص171.

² المصدر السابق: ص171-172.

³ الزبيدي، السيد محمد مرتضى: تاج العروس من جواهر القاموس، ج29، تحقيق: عبد الفتاح الحلو، راجعه: أحمد مختار عمر، وخالد عبد الكريم جمعة، سلسلة التراث العربي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1997، ص60.

القوم) من رَحَلَ يَرْحَلُ¹. ولا يزيد عنهما المقرئ شيئاً إذ عنده "رحل: عن البلد (رحيلاً) ويتعدى بالتضعيف فيقال (رَحَلْتُه)، و(تَرَحَّلْتُ) عن القوم، و(ارْتَحَلْتُ) و(الرحلة) بالكسر والضّم لغة اسم من (الارتحال)². وذلك ما نجده عند صاحب مختار الصحاح " (رَحَلَ) فلان و (ارْتَحَلَ) و (تَرَحَّلَ) بمعنى والاسم (الرَّحِيل). و(الرحلة) بالكسر الارتحال يقال دنت رحلتنا"³.

ما يُلحظ فيما ذكر آنفاً أن معنى الرحلة لغةً هو الانتقال والوجهة والسير الذي بمعنى السفر وقصد وجهة للانتقال إليها. أي الانتقال من مكانٍ إلى آخر، ومنه صيغة المبالغة الرحالة التي أُطلقت على الدواب مثل " فرس عامر بن الطفيل"⁴، أو على بعض الجاهليين أمثال: " الرّحال لقب عمرو بن النّعمان ابن البراء الشّيباني، والرّحال الفهمي، والرّحال لقب عُروة بن عتبة بن جعفر بن كلاب"⁵.

وبالعودة إلى المعنى اللّغوي للرحلة يُكشف المعنى المترسخ في الأذهان، وهو الانتقال والسفر والارتحال. وهذا المعنى يصف الفعل الذي هو الحركة ذات الدافع والمقصد التي بها يتنقل الإنسان من مكان إلى آخر. فيُعبّر في حديثه الشفوي أو المكتوب عن هذه الحركة المطلوبة المقصودة لتحقيق رغبةٍ ما بلفظ الرحلة. إذن كيف بدأ هذا الإشكال؟

وللإجابة عن هذا السؤال يتعين أولاً إيضاح أنّ الرحلة فعلٌ يتداخل مع عدد من المفاهيم، لذا وجب توضيحها، لأهمية ذلك من الناحية المنهجية. فعند استقراء كتب التراث العربي وجد الباحثون أنّ فعل الرحلة ارتبط على وجه العموم بثلاثة مفاهيم هي: كتب الجغرافيا الوصفية، وكتب الأدب الجغرافي، وكتب الرّحلات.

¹ الزبيدي، السيد محمد مرتضى: تاج العروس من جواهر القاموس، ج29: ص60.

² المقرئ، أحمد بن محمد: المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، تحقيق: عبد العظيم الشناوي، ط2، دار المعارف، القاهرة، ص222 .

³ الرازي، محمد بن أبي بكر: مختار الصحاح، مكتبة لبنان، بيروت، 1986، ص100.

⁴ الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، ج29، ص62.

⁵ المصدر السابق: ج 29 ، ص64.

أما الجغرافيا^(*) الوصفية، فظهرت " إبان القرن التاسع الميلادي في حاضرة الثقافة العباسية"¹، "بتشجيع من الخليفة المأمون [786م-833م]"²، بهدف "خدمة أغراض الإداريين والحُكّام والتجار بالدرجة الأولى"³، و"كذلك كانت الحاجة ماسة إلى تعيين محطات القوافل على طرق الحج الموصلة إلى مكة"⁴، فانتساع رقعة الدولة الإسلامية، أوجب ضرورة المعرفة بالوصف الجغرافي الدقيق للبلدان الإسلامية، حتّى يتمكنوا من إدارة أمن الدولة ومتابعة الحركة التجارية واتخاذ العديد من القرارات المناسبة بناءً على المعطيات الجغرافية الواصفة لطبيعة الولايات ومسارات الرّحلات التجارية والعسكرية التي كان ينقلها الرّحالة عبر المصادر المعرفية التي اتخذت من جغرافيا بطليموس منهجاً لها ومصدرًا أساسيًا في جغرافيا الأرض، أو المعاينة المباشرة من خلال الرّحلات التجارية والاستطلاعية والبحرية والبرية التي ازدهرت بسبب الفتوحات الإسلامية. وأبرز ما ألف فيها من كتب " (المسالك والممالك) لأحمد القاسم عبد الله بن خرداذبه، ونحو هذا كتاب(كتاب البلدان) لأحمد ابن واضح اليعقوبي"⁵.

وأما الأدب الجغرافي فجاء نتيجة التطور الذي لحق بالجغرافيا الوصفية التي "تخلت منذ القرن التاسع الهجري [1397م-1493م] عن الوصف الدقيق والتعبير المعقول المقبول، واهتمت بالتراجم ووصف المزارات والأضرحة... التي أحيطت بالكثير من الأساطير والمعجزات، وكرامات الأولياء"⁶، وكان من أبرز المؤلفات

(*) الجغرافيا: " ينقسم لفظ الجغرافيا إلى مقطعين اثنين هما (جيو) وتعني الأرض، و(غرافيا) وتعني وصف أو صوّر، لتجتمع في دلالة (صورة الأرض)، وهو عنوان كتاب (بطليموس) (90-168م) المؤسس لعلم الجغرافيا، وقد ذهب الإغريق إلى إطلاق هذا المصطلح على كل ما يتعلق بالأرض وصورتها، وهو من الألفاظ الدخيلة في العربية، فقد حافظ على بنيته اللفظية دون تغيير، وهو ما يدل على اعتراف علماء العرب الضمني بأسبقية اليونان إلى علم الجغرافيا" حسين تروش: جهود المستشرقين الروسي أغناطيوس يوليانونوفتش كراتشكوفسكي والفرنسي أندريه ميكيل في التعريف بالأدب الجغرافي العربي، مجلة دراسات معاصرة، المجلد 6، العدد 1، جامعة تيسمسيلت، الجزائر، تاريخ النشر 2022/6/2.

¹ الفندي، جمال: الجغرافيا عند المسلمين، ترجمة: إبراهيم خورشيد، عبد الحميد يونس، حسن عثمان، ط1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982، ص26.

² بيار، جورج: معجم المصطلحات الجغرافية عند العرب، ترجمة: محمد الطفيلي، مراجعة: هيثم اللمع، ط2، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 2002، ص257.

³ خصباك، شاكر: الجغرافيا عند العرب، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1986، ص48.

⁴ الفندي، جمال: الجغرافيا عند المسلمين، ص26.

⁵ خصباك، شاكر: الجغرافيا عند العرب، ص49-50.

⁶ أحمد، أحمد رمضان: الرحلة والرحالة المسلمون، دار البيان العربي، جدة، ص13.

التي حاولت جمع مُصنّفات التراث الجغرافي عند العرب منذ النشأة حتّى القرن التاسع عشر الميلادي كتاب (تاريخ الأدب الجغرافي العربي) للمستشرق أغناطيوس كراتشكوفسكي الذي يشير فيه إلى أنّ الأدب الجغرافي مفهومٌ عامٌّ يجمع بين الأدب والجغرافيا التي تشكل جوهر "الأنماط الأدبية المرتبطة بعلم الجغرافيا بصورة أو أخرى"¹. ولا يبتعد المستشرق أندريه ميكيل عن هذا الرأي؛ إذ يرى أنّ ما حصل للجغرافيا الرياضية من تطور نتيجة ازدهار العلوم عند المسلمين أخذها إلى مستوى آخر من التأليف الذي تكوّن من خلال التفاعل بين كلّ من المعرفي والأدبي؛ مما جعلها "تتحوّل بسرعة وبآن واحد إلى حقل تحرّيات وإلى نمط أدبيّ حملَ أسماءً متعددة"².

وذلك ما يؤكد عليه ناصر الموفي فالأدب الجغرافي "مصطلحٌ يُقدّم الأدب باعتباره الأصل، ثم تأتي الجغرافيا بوصفها فرعاً، إنّه أدب يتناول موضوعاً جغرافياً من وجهة نظر أدبية تفرضها شخصيّة الرّحال ومكوّناته الثقافية السابقة"³، مما يعني أنّ الجغرافيا التي تتخذ من التضاريس والبلدان والمسطحات وغيرها من العناصر الطبيعية حضوراً جوهرياً لها. قد خضعت من خلال الأدب إلى عملية انتقالية من حيز يغلب عليه الجانب الوصفي كصفة أساسية في نصوص الجغرافيا الإقليمية والبلدانية⁴، ومن حيز آخر تغطى عليه وظيفة اللغة الوصفية في نصوص الجغرافيا الوصفية إلى مفهوم آخر تظهر فيه أدبية المؤلف كصفة أساسية للنصّ مع حضور الجغرافيا كموضوع أساسي للمادة المكتوبة. ويكشف عن ذلك المستشرق كراتشكوفسكي في تاريخه للأدب الجغرافي الذي يُقدم سرداً يتتبع فيه ما ألفه العرب عبر مراحل تطور الأدب الجغرافي، فيصف لغة ابن بطوطة في رحلته بأنّها: "لغة قصصية بسيطة تميل أحياناً نحو لغة المحادثة محتقظة في ذات الوقت برزانيتها وغناها بالتفاصيل فوق ما تتميز به من الحيوية الدقّاقة، والعاطفة الجيّاشة"⁵، في تأكيد على السمة الأدبية التي صُبغت بها المؤلّفات التي تشغل منها الجغرافيا حيزاً أساسياً.

¹ كراتشكوفسكي، أغناطيوس يوليانيوفتش: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة: صلاح الدّين عثمان هشام، راجعه: إيغور بلياييف، القسم الأول، طباعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1963، ص14.

² ميكيل، أندريه: جغرافية دار الإسلام البشرية حتّى منتصف القرن الحادي عشر، ترجمة: إبراهيم خوري، ج1، القسم1، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1983، ص95.

³ الموفي، ناصر عبد الرزاق: الرحلة في الأدب العربي حتّى نهاية القرن الرابع الهجري، ط1، دار النشر للجامعات المصرية، المنصورة، 1995، ص37.

⁴ يُنظر: خصباك، شاكر: الجغرافيا عند العرب، ص44-52.

⁵ كراتشكوفسكي، أغناطيوس يوليانيوفتش: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص426.

ولمّا كانت الرحلة لغةً هي السفر والانتقال جاء في تعريفاتها الاصطلاحية أنّها "نوع حركة ومخالطة"¹، مما يشير إلى العلاقة الجوهرية بين الرحلة والحركة، إلا أنّها حركة ذات إرادة ودافع معيّن. ممّا جعل تدوين الرحلة يظهر بصورة "متنوّعة للغاية منذ العصور القديمة وقد أسهم فيه عددٌ من الكتّاب المشهورين والهواة كالدبلوماسيين والعلماء والمبشّرين، والأطباء، وأفراد الجيش، والبحارة"²؛ أيّ أنّ أدب الرحلات كانت بدايته مع الرحالة الذين قصدوا تدوين رحلاتهم بهدف حفظ "الظواهر الجغرافية والطبيعية التي اتصلوا بها اتصالاً مباشراً"³، ولم يقفوا عند هذا بل تجاوزوه إلى تدوين كلّ ما يُعاش ويُشاهد في الرحلة، فقد دونوا حال الشعوب، والبلدان، والعمران، والحياة الثقافية، بل جاء بعضهم على وصف الأوضاع السياسية، والدينية، والعادات والتقاليد، والممارسات التي تميّزت بها الشعوب في تلك الأراضي، ودون بعضهم ما شاهدوه من نظم إدارية متصلة بالممالك وأنظمتها التجارية والعسكرية، والاقتصادية، والثقافة وغيرها.

إذن فعل الرحلة ارتبط في التراث بالمفاهيم الثلاثة السابقة، ومما يُلاحظ أنّ هذه المفاهيم تتداخل فيما بينها؛ فالجغرافيا كعلم قائم على المشاهدة والمعاينة والوصف كجزء من عملية التدوين التي تعقب المشاهدة بهدف حفظ العلم والتأليف فيه، قد تتأثر بالأدبية التي تنعكس من خلال اللغة الوصفية عندما تتناول مواضيع تتصل بالأقاليم والبلدان، كالحكايات، والنوادر، والعجائب والأخبار التاريخية التي ارتبطت بتلك الأماكن.

ولعلّ ترتيب هذه المفاهيم الثلاثة: الجغرافيا الوصفية، والأدب الجغرافي، وأدب الرحلات، على التوالي يوضح هذا التداخل بصورة متنامية؛ إذ كانت في البدء الجغرافيا التي تُدرّس من خلال المناهج العلمية لأغراض معرفية بحتة، إلا أنّ هذه الجغرافيا لم يكن من الممكن حدّها بحدود معرفية علمية بعيدة عن التفاعل الإنساني؛ وذلك ما جعل الجغرافيا الوصفية تبتعد قليلاً عن المقاصد العلمية إلى غايات أخرى أكثر ارتباطاً بالوصف الذي تؤثر فيه السياقات الحياتية المتنوعة التي يتفاعل معها المؤلف بالضرورة؛ فتعكس على أسلوبه، وكتابات.

ولعلّ الاهتمام بالأدب هو الذي جعل من اللغة الواصفة غير خالية من تأثيرات الذائقة الأدبية للمؤلف، الذي جعلها تتسم بسمّة الأدبية، فكان الأدب الجغرافي هو الحقل الأكبر الذي يجمع تحته جميع الأشكال غير

¹ الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد: إحياء علوم الدين، ط1، دار ابن حزم، بيروت، 2005، ص713.

² J.A Cuddon: Dictionary of literary terms and literary theory, Penguin Group, 1999, 4th edition, England, P. 937.

³ قنديل، فؤاد: أدب الرحلة التراث العربي، ط1، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، 2002، ص23.

المتسقة التي أنشأها العرب بتعدد توجهاتهم المعرفية بدافع الارتحال المعرفي، والتجاري، والسياسي، والعسكري، والشخصي وغيرها من الدوافع المحفزة لفعل الرحلة.

إلا أنّ فعل الرحلة كان ولا يزال ممتدًا عبر هذه المسيرة المتنامية للجغرافيا في التراث. وهذا يجيب عن سؤال: من أين بدأ هذا الإشكال؟ إذ قد بدأ من نقطة الالتقاء بين الجغرافيا الوصفية والأدب؛ وبالتالي تولدت أنواع من الأدب كالأدب الجغرافي وأدب الرحلات التي كان فيها فعل الرحلة هو جوهر الحركة التي تقوم عليها تلك النصوص في محاولة لتدوين مساراتها وتفاعلاتها وتقاطعاتها مع الأشياء والأشخاص والأفكار.

بعد تحديد بداية الإشكال الذي يعود لتنوع أشكال المؤلفات العربية التي كان فعل الرحلة حاضرًا فيها صار من الضرورة الانتقال إلى المستوى الثاني من إشكالية تجنيس الرحلة للوصول إلى مفهوم واضح للنص الرحلي؛ فكان لابدّ من العودة إلى الأساس الأول الذي بدأنا به دراسة قضية تجنيس الرحلة ألا وهو الألفاظ والمفاهيم.

فإذا كان الجنس في الأدب هو الشكل الذي يُميز النصوص فيما بينها، وكانت المفاهيم هي النعوت التي بها تُنعت النصوص في الأدب، فإنّ الرحلة عندما يراد تعريفها يجب النظر لأشكالها من حيث هي نصوص، وإلى النعوت من حيث هي أسماء سُميت بها تلك الأشكال والنصوص.

وعند البحث في هذه الأشكال والنعوت، تظهر الإشكالية بصورة أشدّ وضوحًا، إذ قد سُميت رحلة ابن فضلان بالرسالة "رسالة ابن فضلان، في وصف الرحلة إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة سنة 309هـ - 921م"¹ من قبل مُحققها، أما مؤلفها فقد نعتها بهذا "كتاب أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد يذكر فيه ما شاهد في بلد الترك، والخزر، والروس، والصقالبة...، وغيرهم"². وكذلك ابن قنفذ يقول في رحلته الزيارية: "سُميت هذا التقييد: أنس الفقير وعزّ الحقيّر"³. وأبو دلف يعبر عن رحلته قائلًا: "ورأيتُ تجريد رسالة

¹ ابن فضلان: رسالة ابن فضلان، تحقيق سامي الدّهان، المطبعة الهاشمية، دمشق، 1960، ص1.

² المصدر السابق: ص67.

³ ابن قنفذ، أبو العباس أحمد الخطيب: أنس الفقير وعزّ الحقيّر، اعتنى بنشره وتصحيحه: محمد الفاسي، وأدولف فور، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، سلسلة الرحلات2، زيارة1، الرباط، 1965، ص2.

شافية تجمع عامة ما شاهده، وتحيط بأكثر ما عاينته، لينتفع به المعتبرون...، ويثقف به رأي من عجز عن مساحة الأرض"¹.

ولعلّ هذه الأمثلة تكشف "دائرة التخصيب"² التي وقع بداخلها فعل الرحلة في محاولات للبحث "عن خصوصية ثقافية وصوت يعبر عن الذات، ويحرر خيالاتها"³؛ ولذا وجب بحث الأجناس الأدبية والعلوم والمعارف التي ظهرت عبر تدوينات الرحالة لرحلاتهم، للوصول إلى مفهوم أكثر وضوحاً عن النص الرحلي.

السيرة الذاتية

السيرة الذاتية هي أول هذه الأجناس الأدبية التي يجب بحثها ربّما لأنّ قصد المؤلف الرّجال لتدوين رحلته، يتوازى في ذات اللحظة مع قصد الراوي في سرد سيرته الذاتية. "فتتحد فيها شخصية الرحالة بالمؤلف بالراوي".⁴ ومما يجمع بين صوت المؤلف الرّجال في رحلته وصوت المؤلف الراوي في سيرته، "التطابق بين المؤلف والراوي"⁵ من حيث "منزلة المؤلف"⁶ من النصّ المُدون، والقصّ المرجعي^(*) الذي يتخذ من الذاكرة مصدراً أساسياً ينهل منه كلّ من الرّجال والراوي.

وتظهر هذه العلاقة بين كلّ من الرحلة والسيرة الذاتية فيما ألفه ابن خلدون التي عُنوانت رحلته "بالتعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً"⁷، وربما لا تحضر السيرة الذاتية بشكل بارز في نصوص الرّحلات، لكنها

¹ الخزرجي، أبو دلف مسعر بين المهلهل: الرسالة الثانية، اعتنى بنشره: مينورسكي، الأستاذ بكلية لندن، مطبعة جامعة القاهرة، 1955، ص1.

² حليفي، شعيب: الرحلة في الأدب العربي، التجنيس، آليات الكتابة، خطاب المتخيل، ط1، رؤية للنشر والتوزيع، 2006، ص48.

³ المرجع السابق: ص49.

⁴ المرجع نفسه: ص50.

⁵ مجموعة مؤلفين: معجم السرديات، ص260.

⁶ المرجع السابق: ص260.

^(*) قصص المرجعي: "يشمل هذا المصطلح مختلف القصص والأجناس السردية التي تُعنى بسرد ما وقع فعلاً...، وأجناس

السرد المرجعيّ متعدّدة: منها ما ظهر في الآداب القديمة كالحوليات والسير وقصص الرحلات". معجم السرديات، ص342

⁷ ابن خلدون، عبد الرحمن: التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1979، ص3.

تظهر ضمناً، إذ يتضمن نصّ الرحلة حضوراً للذات من خلال "جمل السرد والوصف والتعليق، حيث تحضر الذات من خلال الجهاز المعرفي للرحالة وطريقة فهمه وصياغته، فتحضر الأنا سواء كانت مباشرة بضمير المتكلم (مفرداً أم جمعاً) أو مقنعة في ضمير الغائب أو المخاطب"¹.

التراجم

تعود بداية التراجم إلى الاهتمام الذي لقيته ترجمة الآخر بسبب الازدهار المعرفي والأدبي الذي بلغته الحضارة الإسلامية، فما كان للمؤلفين إلى أن اتجهوا نحو تقييد تراجم الذين برعوا ولعبوا دوراً مهماً في تاريخ المعارف الإسلامية، واللغوية، والأدبية، والعلمية. ويمكن تقسيم كتب التراجم إلى قسمين رئيسيين كلاهما كان يهدف إلى إيجاز حياة الفرد المقصود بالترجمة ابتداءً من النسب الذي له بالغ الأهمية في تاريخ العرب عموماً، مروراً بالولادة والنشأة، وذكر تحصيله العلمي وشيوخه، والأعمال التي اشتغلها، ثم إنجازاته وما خلفه من أعمال ومؤلفات، وتلامذته وصلاته بأبناء عصره ثم الإتيان على ذكر مكان وفاته، وزمانها².

فالقسم الأول منها هو كتب الطبقات، والذي يميزها أنها تترجم "لجماعات من الأعيان اتحدت في الغالب مشاربهم، وتلاقحت ثقافتهم، وتوحدت تخصصاتهم، فهناك طبقات الشعراء، وطبقات الأدباء، وطبقات المفسرين، وطبقات المحدثين"³. أما القسم الثاني فهي كتب التراجم العامة التي لا تختص بفئة معينة، بل تجمع جميع الفئات من فقهاء، وشعراء، وسلاطين، ووزراء، فلاسفة، ولغويين، وأدباء، وعلماء، إلا أنها تنقسم إلى خمسة أقسام: الأول منها "يترجم للمادة العلمية نفسها ويعرف بأعيانها"⁴، وأشهرها كتاب (الفهرست)⁵ لابن النديم. أما الثاني فاختص بترجمة أعيان البلد الواحد وأبرز من ألف في هذا القسم الخطيب البغدادي تحت عنوان (تاريخ بغداد)⁶، وأيضاً ابن الحنبلي ألف في هذا النوع من التراجم كتابه (درّ الحبيب في تاريخ أعيان

¹ حليفي، شعيب: الرحلة في الأدب العربي، التجنيس، آليات الكتابة، خطاب المتخيل، ص50.

² ينظر: المرجع السابق: ص53-54.

³ الشكعة، مصطفى: مناهج التأليف عند العلماء العرب، ط6، دار العلم للملايين، بيروت، 1991، ص539.

⁴ المصدر السابق، ص540.

⁵ ابن النديم: الفهرست، دار المعرفة، بيروت.

⁶ البغدادي، الحافظ أبو بكر أحمد بن علي: تاريخ بغداد، دار الكتب العلمية، بيروت.

حلب¹، وكتاب (معجم الأدباء)² لياقوت الرومي يمثل القسم الثالث الذي عمد المؤلفون فيه إلى الترجمة لأعيان تخصصوا في علم معين من العلوم كالفلسفة. والقسم الرابع حاول المؤلفون فيه جمع تراجم جميع الأعيان منذ بداية التاريخ الذي يهتم العرب والمسلمون إلى عصر المؤلف في محاولة للإحاطة بجميع الأعيان وجاء كتاب (وفيات الأعيان)³ لابن خلكان انعكاساً لهذه الرؤية في مجال التراجم. والقسم الخامس ينحصر في زمن معين إلا أن الأعيان لا تحصرهم جغرافياً بل يمتدون لما هو أبعد من ذلك مع مراعاة الترتيب الأبجدي في تدوينهم لتراجم الأعيان. ومن المؤلفات التي تميّز من العنوان في هذا القسم كتاب (الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع)⁴ للسخاوي، ولشهاب الدين أحمد العسقلاني مؤلفٌ يحذو فيه نهج هذه القسم من التراجم هو (الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة)⁵.

تتقاطع التراجم والرحلة، من خلال ترجمة المؤلف الرحال للأشخاص الذين يقابلهم في رحلته، ففي (رحلة العبدري)⁶ يُترجم للأعيان ترجمةً تهدف لوصف الجانب الفكري والثقافي للفقهاء أو الأديب أو العالم. وبعض التراجم طغى عليها الاهتمام بالنسب كما جاء في ترجمة النبي صلى الله عليه وسلم في رحلة الزيّاني (الترجمة الكبرى)⁷ حيث استطرد الزيّاني في ذكر ترجمة نسب نبي الله محمد صلى الله عليه وسلم كلّ وصولاً إلى سيدنا آدم عليه السلام، أما العياشي في مؤلفه (الرحلة العياشية)⁸ فقد تنوعت عنده التراجم بين القصيرة

¹ ابن الحنبلي، رضيّ الدين محمّد بن إبراهيم: درّ الحنبّ في تاريخ أعيان حلب، حققه: محمود حمد الفاخوري، ويحيى زكريا عبّارة، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1972.

² الحموي الرّومي، ياقوت: معجم الأدباء، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، تحقيق: د. إحسان عبّاس، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1993.

³ ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزّمان، تحقيق: إحسان عبّاس، دار صادر، بيروت، 1978.

⁴ السّخاوي، شمس الدين محمّد: الضّوء اللّامع لأهل القرن التّاسع، ط1، دار الجيل، بيروت، 1992.

⁵ ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أحمد بن علي: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، 1993.

⁶ ينظر: العبدري، أبو عبد الله: رحلة العبدري، تحقيق: د. علي إبراهيم كردي، ط2، دار سعد الدين، دمشق، 2005، ص116.

⁷ ينظر: الزيّاني، أبو القاسم: الترجمة الكبرى في أخبار المعمور براً وبحراً، تحقيق: عبد الكريم الفيلاي، ط2، دار نشر المعرفة، الرباط، 1991، ص427-ص442.

⁸ ينظر: العياشي، عبد الله بن محمّد: الرحلة العياشية، حققها: د. سعيد الفاضلي، د. سليمان القرشي، مجلد2، ط1، دار السويدي، أبو ظبي، الإمارات، 2006، ص289.

والطويلة وبين ما ضُمّن في متن الرحلة وبين ما ضُمّن في الهوامش ورُبّما يعود ذلك إلى تراوح أهمية المترجم لهم وتلك خصوصية يحددها المؤلف وحده.

وقد برزت التراجم في الرحلات التي اهتمت بزيارة العلماء والأولياء كما في (الرحلة الحجازية)¹ وذلك لأهميتها عند الإخبار عن الشيوخ خاصة ما اتصل بالمؤلف وكانوا من مشايخه.

إذن ظهور التراجم في نصوص الرحلات يتنوع بسبب اختلاف الدوافع والأسباب القائمة وراء الرحلة ذاتها، إلى جانب الخلفية العلمية التي تؤثر في تشكل منهج التأليف عند صاحب الرحلة. والمؤثرات الفكرية والثقافية والدينية التي تبني شخصية المؤلف التي بها تصاغ العبارات وتتكون اللغة التي تحدّد متن الرحلة وصفته.

التاريخ

تبدأ علاقة التاريخ بالرحلة منذ الوهلة التي يبدأ فيها المؤلف تدوين رحلته التي صارت جزءاً من التاريخ تحمل في طياتها "الأحداث التي عاصرها من منظور يعتمد المعاينة، والقراءة، والتأويل، والسماع"². مما يعني أنّ الرحلة تُعدّ مصدراً تاريخياً، فكتاب مثل (نزهة المشتاق) للإدريسي يخبر عنه الزركلي بأنّه "أصحّ كتاب ألّفه العرب في وصف بلاد أوربة وإيطالية، وكلّ من كتّب عن الغرب من علماء العرب أخذ عنه"³. ورحلة أخرى مثل (رحلة ابن بطوطة) تشكّل مصدراً تاريخياً لفهم الطُرُق الصوفية. وقد تضمنت رحلته "الجهود الرسمية وغير الرسمية في تأسيس الزوايا والخوانق، والبناء التنظيمي للطريقة، والبنية الفكرية للدراویش، وسلبيات وإيجابيات الطريقة سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وأخلاقياً ودينياً وفكرياً"⁴.

¹ ينظر: السوسي، أبو عبد الله محمد: الرحلة الحجازية، ضبطه وعلق عليه: د. عبد العالي لمدير، ط1، مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث، الرابطة المحمدية للعلماء، الرباط، 2011، ص74.

² حليفي، شعيب: الرحلة في الأدب العربي، التجنيس، آليات الكتابة، خطاب المتخيل، ص68.

³ الزركلي، خير الدين: الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ج7، ط15، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 2002، ص24.

⁴ إسماعيل، محمود: رحلة ابن بطوطة مصدر هام لدراسة الطرق الصوفية في الشرق الإسلامي، مؤلف جماعي: أدب الرحلة والتواصل الحضاري، سلسلة ندوات5، مطبعة فضالة، جامعة المولى إسماعيل، مكناس، 1993، ص93.

ولجأ بعض الرّحالة عند تدوينهم رحلاتهم إلى الاقتباس ممن سبقهم. فيلاحظ عند التجاني بعض من الاقتباسات التي يبدأها بقوله "ما حكاه البكري"¹، "ومن تاريخ ابن شداد"². مما جعل أسلوبه ينحو نحو تأليف المؤرخين فيقول: "وكتبت عنه في ذلك كُتُبًا إلى سائر الجهات من كتاب يقول في بعض فصوله: وإنّ صاحب صقلية لجّ في طغيانه فيه واستمر على عدوانه وبغيه وحمله سوء تقديره وفساد تدبيره على اهتضام جانب الإسلام"³.

ويعود حضور التاريخ وأسلوب المؤرخين والاقتباس لأهمية التاريخ في العصور التي ازدهرت ودونت فيها الرّحلات. ففي إعلان صريح من ابن هطّال يستفتح به رحلته يقول: "أما بعد: فإنّ علم التاريخ من أجلّ العلوم قدرًا، وأكملها محاسن وفخرًا"⁴. فبرغم تنوع المناهج في كتب الرّحلات إلا أنّ التاريخ حاضر بشتى الأساليب والصور، مما يجعله جزءًا مهمًا من بناء نصّ الرّحلة لما له من بالغ الأهمية في حفظ المشاهد والأخبار والأحداث؛ فالرّحلة في مبناها النصّي وثيقة مكتوبة، ومن أهم الوثائق في حقول المعارف الإنسانية.

الشعر

حضور الشعر في نصّ الرّحلة يعود لثقافة الرّحال واهتماماته الأدبية. وهو على قسمين فإما أنّه من نظم الرّحال أو ساقه من باب الاستشهاد، سواء كان من حفظه أو مما سمعه في رحلته، فرغب في حفظه وتدوينه. وتتنوع الأشعار بتنوع المواضيع المطروقة في الرّحلة، ففي الرّحلات الزيارية والحجازية تبرز الأشعار الصوفية التي تزخر بمدح الرسول صلى الله عليه وسلم والأولياء والمواظ، فيورد السوسي في رحلته الحجازية شيئًا من هذه الأشعار التي نظمها شيخه في ذم النفس:

¹ التجاني، أبو محمّد عبد الله بن محمّد: رحلة التجاني، قدم له: حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، 1981، ص89.

² المصدر السابق: ص346.

³ المصدر نفسه: ص337.

⁴ التلمساني، أحمد بن هطّال: رحلة محمّد الكبير، باي المغرب الجزائري، إلى الجنوب الصّحراوي الجزائري، تحقيق وتقديم: محمّد بن عبد الكريم، ط1، عالم الكتب، القاهرة، 1969، ص35.

تُحَسِّنُ نَفْسِي الشَّيْءَ وَهُوَ بَغِيْبُهُ *** فَمَهْمَا بَدَا عَايْنْتُ أَقْبَحَ مَا يَرَى¹

ومنها ما يكون لغرض تعليمي أو لمدح شخصية تُرْجِم لها. أو لنقل حدث عايشه الرّجال وكان الشّعـر جزءاً منه. ولا يخفى على أحد العلاقة بين العربي والشّعـر وارتباط هذا الجنس الأدبي بالحياة الثقافيّة والاجتماعيّة والسياسيّة عند العرب عموماً. فليس من الغريب أن يكون حاضراً في نصوص الرّحلات التي تنقل ما يعايشه الرّجال من أحداث، وما يقدره ويتصف به ويقصده بالتدوين من أفكار، وآراء ثقافيّة وأدبيّة، وعلميّة، وسياسيّة، ودينيّة.

الرسائل

ظهر مصطلح الرّسالة في نصوص الرّحلات في شكلين من أشكال التفاعل بين النصّ الرّحلي والرّسالة. فقد نُعْتُتْ بعض الرّحلات بالرّسائل فرحلة " أبي دلف وابن فضلان، تم عنونتهما باسم الرّسالة".² إلى جانب ظهور الأساليب الخطابية في بعض الرّحلات كما في رحلة ابن هطّال واستخدامه في مقدمة رحلته عبارة "أما بعد"³. وضمّن بعض من الرّحالة نصوص رحلاتهم برسائل معينة ارتبطت بالأحداث التي تضمّنتها الرّحلة. ومن هؤلاء أبو القاسم الزيّاني الذي جمع في الترجمانة عدداً من الرسائل منها " رسالة أمير المؤمنين المولى سليمان"⁴ للمؤلف نفسه يعزّيه في وفاة ابنه. وهذه من الرسائل التي عنون لها الزيّاني في كتابه. بخلاف بعض الرّسائل التي جاءت غير معنونة إلا أنّها تُعرف من صيغتها " ولما أتى جوابه أزال شكّي....، إنّّه من سليمان وإنّه بسم الله الرحمن الرحيم...، السيد أبو القاسم الزيّاني..."⁵.

وهكذا فإنّ الرسائل من الأجناس الأدبيّة، التي ازدهرت عند العرب، وحوّت شتى أنواع المعارف، من فقه، وعقيدة، وتصوف، ومنها ما كان نتاجاً للمراسلات الديوانيّة بين الوزراء والأمراء والسلاطين. إلى جانب حضورها بين العلماء والرّحالة أنفسهم؛ ولأنّ الرّحلة نصّ يُقصد به تدوين أحداث الرّحلة عموماً وما يُتعلق بها،

¹ السوسي، أبو عبد الله محمّد: الرّحلة الحجازيّة، ص64.

² حليفي، شعيب: الرّحلة في الأدب العربي، ص65.

³ التلمساني، أحمد بن هطّال: رحلة محمّد الكبير، باي المغرب الجزائري، إلى الجنوب الصّحراوي الجزائري، ص35.

⁴ الزيّاني، أبو القاسم: الترجمانة الكبرى، ص547.

⁵ الترجمانة الكبرى: ص546-547.

فكان حضور الرسائل في بعض الرحلات جزءاً من بنيتها؛ لارتباطها بالأوساط العلمية والدينية والسياسية والثقافية والاجتماعية التي تدور وتتعلق بها الرحلة.

الحكاية

وجود الحكايات في بنية نص الرحلة، يعود لاهتمام الرحالة السائد في تلك العصور التي انقسم فيها الأدباء والمؤرخون على منهجين في اختيار العناصر التي تُقيد في مؤلفاتهم. أما المنهج الأول فقد " اهتم بالسرد الإخباري المختلط بالأحلام والخرافات والتفسيرات الغيبية للوقائع، وأبرز من ألف فيه الطبري والمسعودي"¹. والمنهج الثاني كان أشهر من ألف فيه " ابن خلدون ومن نحا نحوه واهتم بالقواعد الدقيقة والمضبوطة لعلم التاريخ"²، فظهر السرد فيه خالياً من العجائبية والغرائب. وكان القصص فيه أقرب للسير والتاريخ.

وقد ساعد اهتمام الناس بالحكايات العجائبية إلى جانب وظيفته الترفيهية في حضور هذا الجنس الأدبي في بنية بعض نصوص الرحلات. ومما تميزت به الحكايات في نصوص الرحلات كان تنوع موضوعاتها الذي يعود لتنوع مناهج المؤلفين وخلفياتهم الفكرية والثقافية.

فهناك من اهتم بجمع الحكايات العجائبية التي ترتبط بالخرافات والحكايات الشعبية حول العوالم الأخرى والتاريخ القديم. وغيرهم اهتم بحكايات المتصوفة والأولياء وكراماتهم وما ارتبط بالمحكي حول أضرحتهم ومزاراتهم. والآخر جمع بين الاثنين كما الحال في الترجمانة الكبرى لأبي القاسم الزياتي.

الرحلة نص يُعد من أغنى النصوص الأدبية التي زخرت بتفاعل متنوع مع عدد من الأجناس الأدبية والعلوم والمعارف. منها ما تم ذكره كالسيرة الذاتية، والتراجم، والتاريخ، والشعر، والرسائل، والحكايات. وهي أجناس أضيفت لنصوص الرحلات وفق خصوصية كل رحلة على حدة. أما الجغرافيا فهي أصل الرحلات عموماً. ولذا كان حضور الجغرافيا الوصفية في مبنى نص الرحلة حضوراً طبيعياً في نص يقوم مسار السرد فيه على جغرافيا تحدد مسارات الرحلة وظروفها. وهذا ما جعل قضية تجنيس الرحلة بحثاً مهماً يتم طرحه

¹ حليفي، شعيب: الرحلة في الأدب العربي، ص 57.

² المرجع السابق: ص 57.

قبل البدء بتعريف النص الرحلي. إذ كان لا بد من فهم طبيعة البنية النصية للرحلة. وكيف نشأت؟ وكيف تحولت من فعل الرحلة إلى نص الرحلة؟ وما التفاعلات التي خاضتها مع الأجناس الأخرى؟

ج. مفهوم النص الرحلي

البنية النصية للرحلة تشكل العتبة الأولى التي يقف عليها مفهوم النص الرحلي، لذلك كان لابد من بحث قضية تجنيسها أولاً؛ "لقبض على تعريف يجمع زخم الخصوصيات والتتويجات في نصوص الرحلات العربية"¹.

ولعلّ التنوع الذي تزخر به نصوص الرحلات والانفتاح الذي ينعكس من خلال حضور العديد من الأجناس الأدبية والعلوم والمعارف عبر مساراتها السردية، جعل بعض التعريفات الاصطلاحية للنص الرحلي تمتزج فيه "التسجيلات الوصفية والإنشائية التعليمية بالحكاية"² من خلال تفاعل ذات الرحال وما يعايشه أثناء رحلته من مواضيع، وأفكار، ومشاهدات، وأحداث؛ إذ بالرجوع إلى الأشكال التي ينطوي عليها النص الرحلي تتشكل بنية نصية تمزج بين عدد من الأشكال مُنتجة شكلاً هجيناً على حد تعبير عبدالنبي ذاکر إذ يرى أن النص الرحلي "شكل أدبي هجين، إلى حد أنه يمكن القول: إنه جنس متكامل يحطم قانون صفاء النوع، وذلك بإدماجه أنماطاً خطابية متنوعة من حيث الأشكال والمحتويات"³.

ويعود ذلك للمؤثرات التي تكون بناء النص الرحلي منذ بداية انطلاق الرحلة، فالدافع وراء الرحلة يؤثر على محتوى النص، إذ تختلف الدوافع بين الارتحال الديني الذي يقصد أرض الحجاز والقدس. والارتحال الذي يكون بطلب من السلطان لأهداف سياسية، وأحياناً معرفية. وغيرها من الدوافع إذ اشتهرت عدد من نصوص الرحلات المغربية بالكتابة عن الأضرحة والأولياء والقبور. إلى جانب ثقافة المؤلف وانطباعاته التي تتشكل عبر مسار الرحلة فتؤثر على اختياراته للأجناس الأدبية والعلوم والمعارف التي يضيفها على بناء النص الرحلي كالقصص، والتراجم، والتاريخ، والأشعار، والرسائل. دون إغفال أنّ فعل الرحلة يتأثر بمسار السرد المتحقق في

¹ حليفي، شعيب: الرحلة في الأدب العربي، ص68.

² المرجع السابق: ص69.

³ الحاتمي، محمد: المعرفي والأدبي في الرحلات المغربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2020، ص23.

الزمن¹، والوصف المتحقق في المكان² مما يُخضع النص الرحلي لتغييرات عديدة تجعله "يعطي انطباعاً بأنه شكل مائع ومرن إلى حد كبير، إضافة إلى شدة تعقده واحتماله لأنماط وأساليب ومضامين كتابية تبعده عن البساطة"³.

وبهذا يمكن القول بأنّ النص الرحلي تأليف يهدف إلى تدوين المشاهدات وتسجيلها بحيث يحافظ على ذاكرة الرحلة التي لا تخلو من التأثير بالتفاعلات والانفعالات المصاحبة لفعل الرحلة وقصديته، ومساراتها، بأسلوب يعتمد في ذات الوقت على المخزون المعرفي، والأدبي، والثقافي، والديني، مما يُكسب البنية النصية للرحلة المدونة خصوصية مفتوحة على عدد من الأجناس الأدبية والعلوم والمعارف.

¹ ينظر: يقطين، سعيد: السرد العربي، مفاهيم وتجليات، ط1، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2012، ص171.

² ينظر: المرجع السابق: ص171.

³ الحاتمي، محمد: المعرفي والأدبي في الرحلات المغربية، ص23.

المبحث الثاني: النص الرحلي

إذا كان النص الرحلي يضم جميع النصوص التي أُلِّفَتْ حول مسارات رحلة حدثت في الواقع، وأراد المؤلف الرجال غالباً من خلال عملية الكتابة حفظ تلك المسارات والمشاهدات والأحداث المبنية حول فعل الرحلة متأثر ومؤثرًا، فإن من الضروري بحث تصنيفات النصوص الرحلية. ولا يمكن إغفال أهمية تحديد مكونات النص الرحلي التي تُشكل اللبنة المؤسسة لهويته الأدبية، والتي تشكل دعامة أولية يقوم عليها الجانب التطبيقي لاحقاً في هذا البحث، وتبيين أهمية النص الرحلي.

أ. تصنيف الرحلات

ذهب الباحثون في تصنيف نصوص الرحلات إلى آراء شتى، ولعل أبرز هذه التصنيفات ما ذهب إليه فاطمة خليل في أطروحتها (الرحلة في الأدب المغربي) من تقسيم نصوص الرحلات إلى خمسة أقسام هي: "الرحلة الحجازية، الرحلة السفارية، الرحلة السياسية، الرحلة السياسية الرسمية، الرحلة السياحية"¹.

أما تصنيف محمد الفاسي في مقدمته لكتاب (الإكسير في فكاك الأسير)، فقد قسم الرحلة إلى خمسة عشر قسمًا هي: "الرحلة الحجازية، الرحلات السياحية، الرحلات الرسمية، الرحلات الدراسية، الرحلات الأثرية، الرحلات الاستكشافية، الرحلات الزيارية، الرحلات السياسية، الرحلات العلمية، الرحلات المقامية، الرحلات الدليلية، الرحلات الخيالية، الرحلات الفهرسية، الرحلات العامة، الرحلات السفارية"². وفي المقابل يُصنف عبد الرحيم مودن الرحلات إلى قسمين هما: "النمط الديني والنمط الدنيوي"³.

بالمقارنة بين التصنيفات السابقة؛ يُلاحظ أنّ التصنيفات تقوم بالنظر إلى مضامين الرحلة، أو مقاصدها وغاياتها، أو تجمع بينهما. مما جعلها تتسم بالإيجاز الشديد أو الاهتمام المبالغ بالجزئيات والتفاصيل؛ الذي أخلّ بوظيفة التصنيف التي تهدف إلى تيسير البحث من خلال الجمع بين المصنفات المشتركة في موضوع معين أو المرتبطة بعلاقة ما تدعو الحاجة لبحثها، ودراستها.

¹ الحاتمي، محمد: المعرفي والأدبي في الرحلات المغربية، ص77.

² المرجع السابق: ص75-76.

³ مودن، عبد الرحيم: أدبية الرحلة، ط1، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1996، ص58.

فعند العودة إلى تصنيف محمد الفاسي يمكن أن نلاحظ اعتمادَ المُصنّف على مواضيع الرّحلات ومقاصد الرّحالة في تصنيفه؛ وهذا ما قاده إلى تسمية إحدى هذه التقسيمات بالرّحلات العامة وعرفها بأنّها "رحلات جمعت كثيراً من هذه الأغراض"¹. بالإضافة إلى الاهتمام الشديد بالجزئيات الذي جعله يفصل بين الرّحلات العلمية والاستكشافية والأثرية والدليلية والتي تشترك بأنّ محتواها يقوم على مواضيع علمية، والرّحلات الدراسية والفهرسية إذ يُعرّف الدراسة بأنّها تلك الرّحلات "التي يؤلفها عن رحلته لطلب العلم، ولقاء المشايخ"²، وهو ذاته ما قد تنطوي عليه الرّحلات الفهرسية "التي يقتصر فيها على ذكر الرجال الذين لقيهم والشيخوخ الذين قرأ عليهم والكتب التي درسها عليهم"³، والتي يمكن ضمّها لقسم الرّحلات العلمية باعتبارها تحتوي على مواضيع علمية، خاصةً تلك التي تُتناول فيها المؤلفات ومواضيعها والحوارات العلمية التي تدور بين الشيخ وطالب العلم. ولا يقف عند هذا الحد إذ من أقسام الرّحلات كما يطرحها الرّحلات الخيالية التي يُعرّفها بأنّها "تلك الرّحلات التي توضع على لسان رحالة وهمي"⁴ والتي لا يظهر من خلال تعريفه لها ما هو موضوعها أو ما دافعها. وكذلك تصنيفه لما يسميه الرّحلات المقامية التي يظهر من خلال تسميته بأنّها قائمة على البناء الشكلي للرحلة. ويفصل بين الرّحلات الرّسمية والسفارية والسياسية والتي تشترك في تعريفها كما يطرحه محمد الفاسي بأنّها ترتبط بتوجيه من السلطان أو الملك إلى السفير أو إلى من يراه كفاءة للقيام بها.

أما تقسيمه لكلّ من الرّحلات الحجازية والزّيارية برغم أنّها ذات طابع ديني فلا يمكن الاعتراض عليه من حيث اعتماده على موضوع الرحلة أو دافع الارتحال. خاصةً أنّها انتشرت في المغرب وصارت بعض الرّحلات تُسمى بالحجازية وأخرى بالزّيارية وذلك لانتشار ذلك العُرف في تسمية الرّحلات التي يقصد بها أداء الحج أو العمرة بالحجازية وتلك الرّحلات التي يُقصد بها زيارة قبور الأنبياء والأولياء بالرّحلات الزّيارية.

أما تصنيف عبد الرحيم مودن فيمكن القول بأنّه "رغم وجاهته يطرح بعض المشاكل"⁵؛ إذ الرّحلات الدينية لا يمكن فصلها عن الدنيوية وذلك لأنها قد تحتوي على مواضيع علمية، أو سياسية، أو اجتماعية، أو

¹ الحاتمي، محمد: المعرفي والأدبي في الرّحلات المغربية، ص76.

² المرجع السابق: ص75.

³ المرجع نفسه: ص76.

⁴ المرجع نفسه: ص76.

⁵ المرجع نفسه: ص78.

شخصية وغيرها؛ إذ لا يخلو مسار أيّ رحلة من الأحداث والأشخاص التي تعترضه وتدخل في بنائه النصي، وتؤثر فيه.

ولعلّ الإشكال سيكون في قسم الرحلات الدنيوية إذ سيكون أكثر غموضاً للباحث، لأنه سيندرج تحت هذا التصنيف جمع كثير من نصوص الرحلات التي تختلف في الدوافع والمواضيع. فالرحلة الشخصية تختلف اختلافاً كلياً عن الرحلات السياسية أو الرحلات العلمية وغيرها من الرحلات التي تتناول قضايا تهم الرحالة المؤلف في هذه الدنيا الواسعة؛ مما يجعله تصنيفاً ضيق الأفق أو غير مفيد للبحث.

لهذا نجد تصنيف فاطمة خليل أبعد ما يكون عن الاضطراب وعدم التدقيق، إذ تقسيمها للرحلات إلى الأقسام الخمسة يجعلها تخرج من دائرة الإيجاز الشديد التي وقع فيها عبد الرحيم مودن، والتشتت الذي طغى على تقسيم محمد الفاسي، إلا أنّ تقسيمها أيضاً لم يخلُ من الملاحظات المنهجية في التصنيف إذ قد أغفلت عن قسم الرحلات العلمية "والذي يبدو أنّ الباحثة أدرجت هذا القسم ضمن الرحلات السياحية"¹. وفرقت بين الرحلات السياسية والسياسية الرسمية والتي لا شك أنّها سياسية سواء كانت رسمية أو غير رسمية.

نستنتج من ذلك أنّ نصوص الرحلات من حيث الدوافع يمكن حصرها في أربعة أقسام:

1. الرحلات الدينية وهي التي يقود صاحبها دافع ديني للارتحال سواء لأداء مناسك الحج والعمرة أو لزيارة قبور الأنبياء والأولياء. وهي على فرعين: حجازية، وزيارية.
2. الرحلات السياسية وهي التي يكون الغرض منها سياسياً سواء كان بأمر من السلطان، كابتهائه سفيراً للدولة أو مرافقاً. ولا تخلو أن تكون ذات دافع سياسي شخصي.
3. الرحلات العلمية وهي التي يدفع صاحبها طلب المعرفة والعلوم مهما كان مجالها.
4. الرحلات الشخصية وهي التي تقوم على عديد من الدوافع المرتبطة بالوضع الاجتماعي والنفسي للرحال مثل السياحة أو الارتحال مع الأهل، أو طلباً للرزق وغيرها. ولعلّ اختيار تسمية الرحلات الشخصية لتكون على اتساع الدوافع الشخصية للإنسان نظراً للعوامل المؤثرة في دافع الارتحال الشخصي كالعامل الاجتماعي والنفسي والثقافي.

¹ الحاتمي، محمد: المعرفي والأدبي في الرحلات المغربية، ص 77.

وذلك أقرب لضبط عملية تصنيف الرحلات؛ فقيامها وفق موضوعات الرحلات أو حتى بنائها النصي يخرج لنا عددًا من الرحلات التي تجمع بين موضوعين أو أكثر، مما يجعل من الضروري توسيع دائرة التصنيف وهذا يعود للإشكالية الأساسية التي تمتاز بها نصوص الرحلات وهي عدم وجود بناء واحد أو منهج معين تعارف عليه المؤلفون في تدوينهم لرحلاتهم.

ب. مكونات النص الرحلي

النص الرحلي ذلك التأليف الذي يجمع تنوعًا غنيًا على مستوى المضامين والأشكال في محاولته لحفظ مسار الرحلة الذي يؤثر ويتأثر بذات المؤلف، يُشكّل عبر فعل الكتابة نصًا يتكوّن من ثلاثة أطراف: "الحاكي (المؤلف الرحالة)، المحكي (الخطاب الرحلي)، المحكي عنه (السفر)"¹.

وقصدية الارتحال والسفر التي تنشأ من الذات المركزية - الرحالة - منذ بدأ فعل الرحلة تنتقل لمستوى ثانٍ وهي قصدية الكتابة، عندها تتم عملية الكتابة الرحلة فيتشكل النص الرحلي تحت عدد من المؤثرات أبرزها الدافع للسفر الذي يحدد وجهة الرحال ومساره المادي على أرض الواقع، ثم الأحداث والوقائع التي يُعايشها عبر مسار الرحلة، ولا يمكن تجاهل مرجعية الرحالة التي تؤثر في كل ما يمس الذات المركزية سواء قبل عملية التأليف أو أثناءها.

ولعل مرجعية الرحالة هي المؤثر الأبرز في تشكيل النص الرحلي، ذلك أنّ نصوص الرحلات لم تتوضع على شكل محدد كما هو الحال في الأجناس الأدبية الأخرى كالقصة والمقامة والشعر، والرسائل، وغيرها. وهذا ما جعل من النص الرحلي يخضع بحكم انشداد الرحالة إلى النمط التألفي إلى ممارسة الكتابة التأليفية تحليلًا وتفسيرًا ومقارنة وتوثيقًا واستطرادًا شعرًا ونثرًا، واستشهادًا وتأويلًا². إلا أنّ بناء النص الرحلي الزاخر بالتنوع على مستوى الأشكال والمضامين، يقوم على عدد من المكونات الأساسية بها تنهض جميع مستوياته ويمكن تلخيصها في ثلاث مكونات هي:

¹ الحاتمي، محمد: المعرفي والأدبي في الرحلات المغربية، ص26.

² ينظر: مودن، عبد الرحيم: أدبية الرحلة، ص30.

1. **الوصف:** أخذ الوصف الحيز الأبرز في النص الرحلي؛ لأنّ نقل مسار الرحلة القائم على المعاينة والمعايشة إلى نصّ مكتوب يتطلب "الوظائف الحكائية للوصف"¹. فبرغم واقع حال الوصف في الحكاية إذ هو ليس "سوى خديم لازم للسرد"²، يُعد الوصف أهم مكونات النص الرحلي لأنّه القالب الذي يُصور المشاهد ويعتني بالتفاصيل التي تنقل تجربة الارتحال ومعايشة المسار ابتداءً بوصف التضاريس الجغرافية، والمجتمعات وعمرانها، والشخصيات وثقافتها التي تعترض طريق الرحالة أو تُصاحبه في رحلته. وهذا ما يميز نصوص الرحلات عن كثير من الأجناس السردية التي يحضر فيها الوصف وقد يحتل منها صفحات كثيرة، إلا أنّ الغرض الأساسي من هذه الأجناس هو الحكاية وتتبع الأحداث في حركة تزيد سرعتها، أو تنخفض كما في الرواية والقصة. أما في النص الرحلي فالغرض الأول هو نقل تلك المشاهدات للمتلقى في حركة سردية زاخرة بالوظيفة التصويرية والجمالية، والإخبارية للوصف.

2. **السرد:** يبقى السرد عنصراً راسخاً في النص الرحلي من خلال الراوي الرحالة القائم بفعل السرد والذي يربط بين الفقرات التصويرية والتسجيلية لمسار الرحلة، والناقل للأحداث والوقائع التي يمر بها في رحلته، والمنشد للأشعار. ولا يقف عند هذا الحد، بل تتطور وظيفته ليقوم باستحضار عدد من الأجناس الأدبية والعلوم والمعارف وإشراكها في بنية النص الرحلي؛ إذ قد يرى الرحالة أنّ هذا المقام يستوجب ذكر حكاية ما أو نصّ رسالة أو اقتباس؛ وتتعدد الأغراض التي تقود الراوي الرحالة لإدخال هذه الأنواع وغيرها على مسار الرحلة، ومن هذه الأغراض الحاجة للتفسير والشرح والإفهام والاستشهاد، والاستئناس، والتأريخ، وغيرها. وما يمتاز به الراوي في النص الرحلي كونه في معظم هو ذاته الرحالة القائم بفعل الرحلة والمشاهد والمجرب، وهو أيضاً المؤلف مُنتج النص الرحلي والمتحكم ببنائه، إلى جانب أنّه الراوي الرئيسي، مع وجود رواة ثانويين يحضرون في بعض أجزاء السرد عندما يريد الراوي الرحالة نقل ما استمع إليه أو عايشه على لسان غيره، أو نقل بعض الأخبار والحكايات التي عايشها آخرون.

3. **المعرفة:** تُشكل المادة المعرفية جزءاً مهماً في النصوص الرحلية؛ بسبب اختلاف مشارب الرحالة الذين دونوا في رحلاتهم بعضاً منها، ومن المعارف التي لا يخلو منها أيّ نصّ رحلي هي

¹ مجموعة مترجمين: طرائق التحليل السردية، ط1، اتحاد كتاب المغرب، الرباط، 1992، ص76.

² المرجع السابق: ص76.

المعارف الجغرافية التي تهتم بتضاريس الأرض وتظهر عادة عبر مسارات الرحلة. وهناك المعارف الدينية التي تزخر بها الرحلات الحجازية والزيارية التي تدور حول الأماكن المقدسة، وقيور الأنبياء والأولياء، والطرق الصوفية، والمشايخ. إلى جانب المعارف التاريخية التي توجد عند الرحالة المتأثرين بالكتابات التاريخية، والسياسية، فيتجهون نحو التأريخ للأماكن والبلدان والأشخاص، والأنظمة السياسية، والسلطين، والملوك، إما عبر الاقتباس أو نقل ما عاينوه وعاشوه في رحلاتهم. ولا تقتصر المعارف على هذه الأقسام، بل تمتد لأي موضوع يطرحه الرحالة في رحلته بهدف إفادة المتلقي.

ت. أهمية نصوص الرحلات

تتأتى القيمة العلمية لنصوص الرحلات من كونها مصدراً تاريخياً مكتوباً من خلاله عُرِفَتْ تضاريس الأرض، ودُون تاريخها، وعُرِفَتْ شعوبها، وثقافتها، وسياساتها، وعمرانها، واقتصادها. مما جعلها وثيقة مهمة في حقل العلوم، والمعارف الإنسانية. فالجمع بين الوصف القائم على المشاهدة والمعاينة ورصد البيانات وتحليلها في كثير من الأحيان وفق مناهج مُستقاة من علوم الفلك، والجغرافيا، والحساب، والهندسة، وعلم الاجتماع، والتاريخ، والفلسفة ؛ أعطاهما قيمتها من حيث إنها "مرجع أساسي ومعين كبير" ¹ للباحثين في مختلف العصور.

أما قيمتها الأدبية فتظهر من خلال التنوع الذي يزخر به النص الرحلي، فهو لا يقوم على وحدة موضوعية، بل تتعدد فيه الموضوعات بين الواقعية، والعلمية، والحكاية، والعجائبية، والشعرية، والدينية، والسياسية، والثقافية، والاجتماعية، والعمرانية، والجغرافية، والتاريخية. بالإضافة إلى "تنوع في الأسلوب من السرد القصصي، إلى الحوار، إلى الوصف، وغيره" ² كل هذه الموضوعات والأساليب تجعل من أدبية نص الرحلة أدبية غير تقليدية؛ فخصوصية كل رحلة على حدة تجعل من الأسلوب الأدبي الذي يُقدّم لمختلف

¹ حسين، حسني محمود: أدب الرحلة عند العرب، ط2، دار الأندلس، بيروت، 1983، ص7.

² المرجع السابق: ص8.

الموضوعات عبر مسارات الرحلة ذا خصوصية جمالية يتفرد بها النص الرحلي عن بقية الأجناس الأدبية مما يقدمه للمتلقي من " متعة ذهنية كبرى".¹، و"سرد مشوق"².

¹ حسين، حسني محمود: أدب الرحلة عند العرب، ص9.

² المرجع السابق: ص9.

المبحث الثالث: الرحلات المغربية في القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر

شكلت نصوص الرحلات خلال قرن ونصف من بداية تأسيس الدولة العلوية بالمغرب وثيقة تاريخية مهمة، نتيجة لما سطرته من وقائع وأحداث، تعكس حقبة تاريخية اتسمت تارةً بالاضطراب، وتارةً أخرى بالاستقرار. وشهدت على تيارات فكرية جديدة وأخرى أصيلة في المجتمع المغربي، وسجلت التفاعلات التي عايشها المجتمع سواء مع الداخل أو الخارج، وتأثرت بقوى سياسية وأخرى دينية، وغيرها من القوى المجتمعية. لذا كان لزاماً بحث السياق التاريخي والثقافي لتلك النصوص، بعد تحديد الإطار التاريخي لتلك الحقبة والذي سيرسم صورة تقريبية للمناخ الذي تكونت فيه الرحلات المغربية في ذلك الوقت.

أ. الإطار التاريخي

يتميز السياق التاريخي والثقافي للرحلات المغربية خلال القرن 18م والنصف الأول من القرن 19م بخصوصية هامة، لذا كان من الضروري تحديد الإطار التاريخي والأحداث المؤثرة في كلٍّ من السياق التاريخي والثقافي.

كان القرن 18م البداية الفعلية لترسيخ أسس الدولة العلوية، وذلك في ظل حكم السلطان إسماعيل بن الشريف، إذ بُيع في 13 إبريل 1672م¹، وانتهت فترة حكمه في سنة 1727م². وقد امتازت هذه الحقبة من تاريخ المغرب بالاستقرار الذي ضمنه الجيش النظامي الذي أسسه السلطان إسماعيل. ولكن سرعان ما تحول هذا الجيش إلى "أداة اضطراب وشغب"³، فصارت تُعرف الحقبة التي لحقت وفاة السلطان إسماعيل "بأشد فترات تاريخ المغرب اضطراباً"⁴، فقد استفحل الصراع بين أبناء السلطان إسماعيل بن الشريف؛ لأنه لم يعهد بالسلطة لأيٍّ من أبنائه بعد استشارة "كاتبه أحمد اليمحمدي بشأن ترشيح أحدهم، فنصح به بأن لا يفعل، لأنه لم يكن فيهم من هو مؤهل للملك"⁵.

¹ ينظر: حركات، إبراهيم: المغرب عبر التاريخ، ج3، دار الرشاد الحديثة، ط2، الدار البيضاء، 1994، ص33.

² ينظر: المصدر السابق: ص59.

³ المصدر نفسه: ص60.

⁴ المصدر نفسه: ص63.

⁵ المصدر نفسه: ص59.

واستمر الصراع على العرش قائماً حتى بُويع السلطان عبد الله بن إسماعيل في سنة 1744م¹ للمرة الخامسة في مكناس على يد القضاة والفقهاء والمسؤولين، وقد قَدِمَ الجيش إليها لبيعته طائعين². وقد أعاد في عهده النشاط للتجارة الخارجية" مع إنجلترا وهولندا اللتين احتكرتا بصفة شبه كلية تجارة المغرب الخارجية"³.

وتبدأ مع وفاة السلطان عبد الله واستخلاف نجله محمد الثالث سنة 1757م⁴ حقبة مختلفة من تاريخ المغرب، عُرِفَتْ بالانفتاح على الخارج وإعادة الاستقرار والوحدة الوطنية. فقد اهتم السلطان بالإصلاحات الداخلية حيث واجه ثورة بعض القبائل وسعى في تطوير البنية العمرانية، و"أمر ببناء سفينة جهادية، وأمر ببناء مجموعة من السفن في تطوان التي أصبحت ذات أهمية كبيرة في تزويد البلاد بالأسلحة"⁵. وأكد في المقابل على فعالية الدولة في إدارة القضايا الاقتصادية للدولة، وخاصة في سنوات "المجاعة التي امتدت فيما بين 1190هـ-1197هـ / 1776م-1782م"⁶.

وبرغم اتسام هذه الحقبة بالانفتاح بعدما ارتبطت المغرب "لأول مرة في ظل الحكم العلوي بمعاهدات مع دول كثيرة في آن واحد، وقد تناول أكثرها العلاقات التجارية والاقتصادية بالإضافة إلى الشؤون الدبلوماسية وقضايا الأسرى"⁷، واختيار سياسة "التقارب الإيجابية مع الخلافة العثمانية بعد فترة ركود طويلة"⁸. وإظهار الدعم للخلافة العثمانية باعتبارها "رمزاً للسيادة الإسلامية، فساندهم بالدعم المادي والمعنوي وتبادل معهم الوفود ، واستفاد من الخبراء الأتراك في الشؤون العسكرية والهندسية"⁹. إلا أن العلاقات المغربية الأوروبية كان لها وجه آخر ظهر عليه التوتر خاصة في العلاقات المغربية الفرنسية،

¹ ينظر: حركات، إبراهيم: المغرب عبر التاريخ، ج3، ص78.

² ينظر: المصدر السابق: ص78.

³ المصدر نفسه: ص83.

⁴ ينظر: المصدر نفسه ، ص83.

⁵ المصدر نفسه: ص100.

⁶ المصدر نفسه: ص102.

⁷ المصدر نفسه: ص103.

⁸ المصدر نفسه: ص108.

⁹ المصدر نفسه: ص108.

إذ عمدت فرنسا إلى ترسيخ وجودها في المنطقة تحت ما يسمى " بالحماية الأجنبية انطلاقاً من حماية رعاياها أولاً ومحاكمتهم دون تدخل السلطة الوطنية، ثم شملت بالحماية مستخدميها المغاربة وسماستها"¹.

ومع انتهاء حقبة السلطان محمد الثالث، تنتقل المغرب إلى حقبة جديدة تواجه فيها اضطرابات سياسية داخلية وخارجية على حد سواء؛ إذ "أعلن السلطان تنصله من ترشيح أي أمير للعرش بعده، وأنه يترك البت ذلك للمسلمين"². ليتقلد بعده ابنه اليزيد السلطة ببيعة محلية في 1790م³، والذي تعود محاولاته للظفر بالحكم إلى ثورة العبيد حين تمرد العبيد ضد السلطان محمد الثالث وبايعوا ابنه اليزيد⁴، لكنه فشل في مساعيه حينها. أما هذه المرة فيواجه رفض أخيه هشام للبيعة؛ لتستمر الاضطرابات الداخلية بين أنصار الفريقين حتى وفاته متأثراً بجراحه، في 1792م⁵، إثر معركة ضروس خاضها ضد أخيه وأنصاره من أهل المغرب والإسبان؛ ليخلف ذلك صراع آخر بين ثلاثة أمراء يطالبون بالعرش، هم هشام بالجنوب، ومسلمة بالشمال، وسليمان بفاس⁶. الذي انتهى إلى هذا الأخير.

كانت مواجهة السلطان اليزيد للنفوذ الإسباني داخل الأراضي المغربية بداية الانغلاق على الخارج؛ فما أن أعلن عن وفاة السلطان اليزيد حتى كتب الأمير مسلمة للحكومة الإسبانية ليعرض عليها عقد معاهدة صلح⁷، واضطر السلطان سليمان لاتخاذ قرار بإيقاف الجهاد البحري، وتصدير الحبوب لأوروبا، مما منع عن المغرب "ردود الفعل التأديبية في هذه الفترة ما شهدته موانئ الجزائر والقطر التونسي حتى تعرضا للاحتلال الأجنبي"⁸.

¹ حركات، إبراهيم: المغرب عبر التاريخ، ج3 ص112.

² المصدر السابق: ص94.

³ ينظر: المصدر نفسه: ص122.

⁴ ينظر: بنعبد الله، عبد العزيز: تاريخ المغرب، العصر الحديث والفترة المعاصرة، مع المعجم التاريخي، ج2، مكتبة السلام، الدار البيضاء، ص42.

⁵ ينظر: حركات، إبراهيم: المغرب عبر التاريخ، ج3، ص127.

⁶ ينظر: بنعبد الله، عبد العزيز: تاريخ المغرب، العصر الحديث والفترة المعاصرة، ج2، ص45.

⁷ ينظر: حركات، إبراهيم: المغرب عبر التاريخ، ج3، ص169.

⁸ المصدر السابق: ص154.

أوصى السلطان سليمان لابن أخيه عبد الرحمن بن هشام بالسلطة في وصية مكتوبة، ورد نصّها لدى عدد من المؤرخين كالناصرى والمشرفي¹، فتمت البيعة في أوائل 1822م². وقد شهد عهده اضطرابات داخلية وخارجية، واستطاع التغلب عليها، وساند الجزائر في ثورتها ضد الاحتلال الفرنسي إذ مدّها "بالمال والسلاح والرجال وإيواء الأسر اللاجئة وتشغيل الأيدي العاملة والتقنية. ووقفت مراكزه الجهادية بشجاعة في وجه الأساطيل القوية"³. وأخرج المغرب من الاحتلال الذي طال كلاً من الجزائر وتونس وليبيا؛ فبرغم الضعف الذي كان يعاني منه المغرب في جيشه وماليته واقتصاده. ثم يحافظ على استقلاله، فإنّ ذلك يعود للقدرة العجيبة على المراوغة الدبلوماسية التي تميز بها مغرب القرن التاسع عشر الميلادي⁴.

ب. السياق التاريخي

يُلخص الجدول أدناه عدداً من الرحلات المغربية التي حدثت ودُوّنت في حقبٍ مختلفة من تاريخ المغرب خلال القرن 18م والنصف الأول من القرن 19م. وتأتي أهمية هذا الجدول بعد تحديد الإطار التاريخي لتلك الفترة، لفهم السياق التاريخي الذي مرت به الرحلة المغربية.

القرن	الإطار الزمني	عنوان الرحلة	المؤلف	نوع الرحلة
القرن 18م	"فترة أوج المجد السياسي السلطان إسماعيل بن الشريف 1672م-1727م 1082هـ-1139هـ" ⁵	الرحلة الصغرى 1121هـ ⁶	أحمد بن محمد أحوزي الهشتوكي	رحلة حجازية
	فترة "هيمنة الجيش واستفحال أزمة العرش بين أبناء السلطان إسماعيل بن الشريف			

¹ ينظر: حركات، إبراهيم: المغرب عبر التاريخ، ج:3، ص:173.

² ينظر: المصدر السابق: ص:175.

³ المصدر نفسه: ص:229.

⁴ ينظر: المصدر نفسه: ص:229.

⁵ المصدر نفسه: ص:32.

⁶ ينظر: الحاتمي، محمد: المعرفي والأدبي في الرحلات المغربية، 401-402.

رحلة حجازية	أبو العباس أحمد بن محمد الدرعي	الرحلة الناصرية 1121هـ ²	1727م-1757م 1139هـ-1171هـ ¹
رحلة حجازية	فخر الدين محمد الطيب ابن محمد بن موسى الفاسي الشرقي	رحلة ابن الطيب ³ 1139هـ ⁴	
رحلة حجازية	محمد بن أحمد الحضيكي	الرحلة الحجازية ⁵ 1152هـ ⁶	
رحلة حجازية	أبو مدين بن أحمد الصغير الدرعي الأصل	رحلة أبو مدين الدرعي 1152هـ ⁷	
رحلة حجازية	إبراهيم العيني	رحلة إبراهيم العيني 1194هـ ⁹	فترة "الانفتاح وإعادة إقرار الوحدة الوطنية"

¹ حركات، إبراهيم: المغرب عبر التاريخ، ص 63.

² ينظر: الدرعي، أبو العباس أحمد بن محمد بن ناصر: الرحلة الناصرية، تحقيق: عبد الحفيظ ملوكي، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2011، ص 16.

³ ينظر: الشرقي، محمد الطيب ابن محمد بن موسى الفاسي: رحلة ابن الطيب من فاس إلى مكة المكرمة، تحقيق: عارف أحمد عبد الغني، دار العراب، دمشق، 2014.

⁴ ينظر: داغستاني، عبد المجيد: كتاب رحلة ابن الطيب من فاس إلى مكة المكرمة، محمد الطيب الفاسي، موقع قبلة الدنيا، مكتبة الحج والطواف، تاريخ 11/04/2019 7:50 مساءً (مقال إلكتروني) .

⁵ ينظر: السوسي، أبو عبد الله محمد: الرحلة الحجازية، ضبطه وعلق عليه: د. عبد العالي لمدير، ط1، مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث، الرابطة المحمدية للعلماء، الرباط، 2011.

⁶ ينظر: الحاتمي، محمد: المعرفي والأدبي في الرحلات المغربية، ص 403-404.

⁷ ينظر: المصدر السابق: ص 405-406.

⁹ ينظر: المصدر نفسه: ص 407-408.

رحلة حجازية	أبو القاسم الزياني	الرحلة الأولى من كتاب الترجمة الكبرى في أخبار المعمور برًا وبحرا 1169هـ ³	السلطان محمد بن عبد الله 1757م-1790م 1171هـ-1204هـ ¹	
رحلة سفارية	أبو القاسم الزياني	الرحلة الثانية من كتاب الترجمة الكبرى 1200هـ ⁴		
رحلة سفارية	محمد بن عبد الوهاب بن عثمان المكناسي	الإكسير في فكاك الأسير 1779م-1780م ⁵		
رحلة سفارية	محمد بن عبد الوهاب بن عثمان المكناسي	رحلته المسماة البدر السافر لهداية المسافر إلى افتكاك الأسارى من يد العدو والكافر 1195هـ ⁶		
رحلة سفارية	محمد بن عبد الوهاب بن عثمان المكناسي	رحلة المكناسي إحرار المعلّى والرقيب في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والتبرك بغير الحبيب		

¹ حركات، إبراهيم: المغرب عبر التاريخ، ص84.

³ ينظر: الزياني، أبو القاسم: الترجمة الكبرى، ص57.

⁴ ينظر: المصدر السابق: ص86.

⁵ ينظر: نجيب، مليكة: المرأة في الرحلة السفارية المغربية، خلال القرنين 18 و19، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2014، ص24.

⁶ ينظر: ابن عثمان، محمد بن عبد الوهاب: البدر السافر لهداية المسافر إلى افتكاك الأسارى من يد العدو والكافر، تقديم وتعليق: د عبد الهادي التازي، ط1، كتاب العربية 52، الرياض، 2012، ص31.

		1200هـ ¹		
رحلة سفارية	أحمد بن المهدي الغزال	رحلة الغزال وسفارته إلى الأندلس المسماة نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد 1179هـ ²		
رحلة حجازية	أبو عبد الله محمد بن عبد السلام النَّاصري	الرحلة الناصرية الكبرى 1196هـ ³		
رحلة حجازية	محمد بن إبراهيم بن أحمد بن محمد التتاني	رحلة محمد التتاني 1204هـ ⁵	فترة "التكتلات الإقليمية ومراجعة الموقف المغربي تجاه أوروبا السلطان اليزيد 1790م-1792م 1204هـ-1206هـ ⁴	القرن 18م
رحلة شخصية تخللتها رحلة إلى الحج	أبو القاسم الزياني	الرحلة الثالثة من كتاب الترجمة الكبرى في أخبار المعمور برًّا وبحرا	فترة حكم " السلطان سليمان بن محمد بن عبد الله وتضعضع سلطة المخزن 1792م-1822م	نهاية القرن 18م

¹ ينظر: المكناسي، محمد بن عبد الوهاب: رحلة المكناسي، المسماة إحراز المعلى الرقيب في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والتبرك بقبر الحبيب، تحقيق: محمد بوكبوط، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2003، ص47-48.

² ينظر: الغزال، أحمد بن المهدي: نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد، تحقيق: إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984، ص10.

³ ينظر: النَّاصري، أبو عبد الله محمد بن عبد السلام: الرحلة النَّاصرية الكبرى، تحقيق د. المهدي الغالي، ج1، ط1، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، دار أبي رقرق للطباعة والنش، 2013، ص120

⁴ حركات، إبراهيم: المغرب عبر التاريخ، ج3، ص120.

⁵ ينظر: الحاتمي، محمد: المعرفي والأدبي في الرحلات المغربية، ص409-410.

وبداية القرن 19م	1206هـ-1238هـ ¹	1206هـ ²		
القرن 19م	فترة " المغرب في مواجهة الغزو العسكري الأجنبي شرقاً وشمالاً، السلطان عبد الرحمن بن هشام 1822م-1859م 1238هـ-1276هـ ³	رحلة التامراوي 1242هـ ⁴	محمد بن محمد بن التامراوي	رحلة حجازية
		رحلة الصّفار إلى فرنسا 1845م-1846م ⁵	محمد بن عبد الله الصّفار الأندلسي التطواني	رحلة سفارية

وما يُلاحظ من خلال تتبع أنواع الرحلات المغربية أنّ الرّحلات الحجازية، والتي دوافعها تتجه نحو الحجاز لأغراض دينية، تشكل النسبة الأكبر خلال القرن 18م والنصف الأول من القرن 19م. وفي المقابل تُشكّل الرّحلات السفارية، والتي دوافعها مرتبطة بوظيفة المؤلف سفيراً للدولة أو مرافقاً وغيرها من الدوافع النسبة الأقل، ومع ذلك يمكن ملاحظة أنّ في عهد السلطان محمد الثالث ترتفع عدد الرّحلات السفارية، نتيجة الانفتاح الذي شهدته العلاقات المغربية مع دول أوروبا والدولة العثمانية.

¹ حركات، إبراهيم: المغرب عبر التاريخ، ج3، ص128.

² ينظر: الزياتي، أبو القاسم: الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور براً وبحراً، ص 167.

³ حركات، إبراهيم: المغرب عبر التاريخ، ج3، ص174-ص228.

⁴ ينظر: الحاتمي، محمد: المعرفي والأدبي في الرّحلات المغربية، ص410-411.

⁵ ينظر: التطواني، محمد بن عبد الله الصّفار الأندلسي: رحلة الصّفار إلى فرنسا، تحقيق وتقديم: سوزان ميللر، وترجمها وشارك في التحقيق: خالد بن الصغير، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2007.

ظهرت الرحلات الحجازية إثر تقييد رحلات الحج والعمرة، والتي يهدف فيها المؤلف إلى وصف الطريق إلى الحجاز، وبيان مناسك الحج والعمرة، وذكر فضلها. وقد يتخلل هذه الرحلات سرد زيارات أخرى حدثت بداخل المسار الأساسي للرحلة، كزيارة قبور الأنبياء والصالحين، ومجالس العلماء وكبار المشايخ طلباً للعلم أو للإجازة، والترجمة لهم.

وتُعدّ الرحلات الحجازية في المغرب من أقدم الأنواع التي كُثر التأليف فيها، وقد انبرى عبد الله التازي لجمع ما يزيد عن مائة رحلة في مؤلفه (رحلة الرحلات مكة في مائة رحلة مغربية ورحلة)¹. غير أنّ عدد الرحلات المحققة لا يزال قليلاً، إذ لا يزال معظمها حبيس المخطوطات.

وقد اشتهر تقييد رحلات الحج الموسومة بالحجازية عند المغاربة حتّى صارت إرثاً ثقافياً، بل ربّما لا تخلّ معظم رحلات المغرب في القرن 18 والنصف الأول من القرن 19، من ذكر رحلة الحج، إذ يُفهم من عنوان رحلة ابن عثمان المكناسي (إحراز المعلى الرقيب في حج بيت الله الحرام، وزيارة القدس الشريف، والتبرك بقبر الحبيب)، بأنّها رحلة حجازية قصد فيها المؤلف الحجاز للحج وزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم، وزيارة القدس أيضاً، إلا أنّ هذه الرحلة في الأساس جاءت بتوجيه من السلطان محمد الثالث إلى البلاط العثماني. إذ كان هدفها "إبلاغ السلطان عبد الحميد خان [1725م/1789م - 1137هـ/1203هـ] أسباب اعتباره للمبعوث التركي إسماعيل أفندي شخصاً غير مرغوب فيه"²، فهي رحلة حجازية بالنظر إلى تدوين ابن عثمان لرحلته مع الركب العثماني للحج، وهي رحلة سفارية إذ أخذ بعين الاعتبار دافع الارتحال والوصف الدقيق لأوضاع الدولة العثمانية السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والجغرافية.

بيد أنّ الرحلات السفارية في عهد السلطان محمد الثالث، شهدت نمواً بارزاً، فسجل ابن عثمان ثلاث رحلات سفارية: الأولى حين كان "سفيراً لدى العاهل الإسباني كارلوس الثالث، وعن هذه السفارة ألف كتابه (الإكسير في فك الأسير)"³، والثانية عندما عين "سفيراً مرة أخرى في مالطة ونابولي، وهي السفارة التي خصّها

¹ ينظر: التازي، عبد الهادي: رحلة الرحلات، مكة في مائة رحلة مغربية ورحلة، ج1، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، مكة المكرمة، 2005.

² المرجع السابق: ص400.

³ المرجع نفسه: ص400.

بكتابه (البدر السافر في افتكاك الأسارى من يد العدو الكافر)¹، والثالثة هي (إحراز المعلى والرقيب) التي دونها عن سفارته إلى الدولة العثمانية.

غير أنّ مسألة السفارة في المغرب لم تبدأ بوصفها مؤسسة " لها ضوابط واضحة تتسم بالاستمرارية وبالعامل على رعاية مصالح البلد ودعمه ورفع التقارير التي تعتمد في رسم السياسة الخارجية للدولة"² كما عرفها الأوروبيون، فقد سُخِّرَ السفراء "لتنفيذ تعليمات وأوامر السلاطين الذين انفردوا باتخاذ القرارات"³، وواجه الرّحالة السفراء إلى بلاد أوروبا أو كما يطلقون عليها بلاد الكُفار صعوبات عديدة في محاولة إنجاز مهام سفاراتهم في تلك البلدان، ووجدوا أنفسهم بحاجة إلى " تبريرات شرعية للانتقال إلى دار الكفر"⁴.

وقد حاول بعض الذين مارسوا الارتحال كسفراء للمغرب حصرَ عددٍ من الشروط التي رأوا وجوب توافرها في الرّحالة، ومنها ما يُورده ابن عثمان في نصِّ رحلته البدر المسافر في قوله: "ينبغي لمن يسلك بلاد النصارى أن يكون ذا نفس أبيّة، في الرفاهية رابية، وهمّة عالية...، ويترك كل فم ولسان بمدحه فاغراً، ويُمرّ أفعاله وأقواله بالقوانين...، ويعطي من الخطاب كل ذي حق حقه، وإلا فليلزم مكانه ولا يتعدّى أوطانه"⁵. وهو هنا كأنما يحدد متطلبات العمل في البلاط السلطاني، فالسفير يحتاج للإلمام بمهارات "التواصل والتفاوض والإقناع والإلمام بلغة الآخر، وثقافته، ومميزات تفكيره، وعوامل قوته، ومكامن ضعفه، وعلوم السياسة، وأعراف المجتمع، وخصوصيات الآخر المختلف"⁶.

وبقيت علاقة الرّحالة المغربي المسلم مع الآخر الأوروبي بالتحديد في إطار الرّحلات السفارية تحت وطأة المُساءلة الدينية التي يعبر عنها محمد بن الصفار التطواني في رحلته السفارية إلى فرنسا عام 1845م، ما الكيفية " للتخلص من رائحة ذلك الدنس الملتصقة بهم، وكيفية تبرير سلوكهم حتى يلقى القبول من إخوانهم

¹ التازي، عبد الهادي: رحلة الرحلات، مكة في مائة رحلة مغربية ورحلة، ص400.

² نجيب، مليكة: المرأة في الرحلة السفارية المغربية، خلال القرن 18 و19، ص196.

³ المرجع السابق: ص192.

⁴ المرجع نفسه: ص196.

⁵ المرجع نفسه: ص193.

⁶ المرجع نفسه: ص193.

في الدين والعقيدة"¹، مما يعني أن هذه المشكلة لم تكن فقط في بدايات الرحلات السفارية ، بل استمرت إلى منتصف القرن 19.

ونخلص مما سبق إلى أنّ الرحلات المغربية خلال القرن 18 والنصف الأول من القرن 19، بقيت متأثرة بالمرجعيات الفقهية والمجتمعية المغربية وتسيطر عليها الرحلات الحجازية، وهذا ما تؤكده أعداد الرحلات الحجازية التي تفوق ما تم تأليفه من رحلات سفارية مغربية خلال تلك المرحلة. وذلك ليس ببعيد عما يعكسه التعليم الذي تلقاه الفقهاء والكتّاب والدبلوماسيون القائم على علوم الدين في رحلاتهم السفارية فها هو ابن عثمان يعنون رحلته إلى مالطة ونابولي (بالبر السافر لهداية المسافر، إلى افتكاك الأسارى من يد العدو الكافر)، وقد دون في رحلته نفسها حوار حين انبرى إلى مناظرة أحد الرهبان الذي صادف أنه يتحدث العربية عما يقولونه في المسيح². ومبعوث آخر " مثل أشعاش حمل معه زاده حتى لا يأكل مما عندهم"³. فـرحلاتهم السفارية كان معظمها ينطلق من السعي في إطلاق سراح الأسرى، في فترة سادت فيها القوى الأوروبية وبسطت حمايتها على دول الشمال الأفريقي، مما أبقى على صورة الآخر العدو والمخالف لعقيدتهم التي كانت تزدهر عبر رحلاتهم إلى الحجاز طلباً لأداء مناسك الحج والعمرة، وغيرها من الزيارات والأعمال المرتبطة بالجانب الديني للرحالة المسلم.

ت. السياق الثقافي

حافظ المناخ الثقافي في المغرب في زمن العلويين خلال القرن 18م على طابعه الإسلامي، فكانت العلوم الشرعية هي العلم الذي يُسعى في تحصيله ويُمتدح صاحبه، فها هو المؤسس الفعلي للدولة العلوية السلطان إسماعيل الشريف يُطلق على الجيش لفظ عبید البخاري⁴. وذلك تعظيماً لصحيح البخاري الذي كان يُعدّ من أهمّ المؤلفات التي عُنيّت بها الثقافة المغربية عموماً، والمجالس العلمية للسلطين العلويين خصوصاً.

¹ نجيب، مليكة: المرأة في الرحلة السفارية المغربية، خلال القرن 18 و 19، ص194.

² ينظر: ابن عثمان، محمد بن عبد الوهاب: البدر السافر لهداية المسافر إلى افتكاك الأسارى من يد العدو الكافر، ص 246

³ نجيب، مليكة: المرأة في الرحلة السفارية المغربية، خلال القرن 18 و 19، ص196.

⁴ ينظر: البلغيثي، آسية الهاشمي: المجالس العلمية السلطانية على عهد الدولة العلوية الشريفة، ج1، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 1996، ص239.

ويظهر التبادل الثقافي بين المسلمين من خلال الاعتناء الذي حظي به علم الحديث، والتفسير، والفقه في الرحلات الحجازية، "فكانت قافلة الحج عند مرورها بمصر ذهاباً وإياباً توفر للطلاب والعلماء فرصة الالتقاء بالمشايخ والفقهاء، وأعيان المصريين ممن ذاع صيتهم في المشرق، ويتم التبادل الثقافي والعلمي، وعند عودة العلماء من الحج والطلبية، كانت تنتشر أخبار علماء مكة، مما كان يُرغّب الطلبة أكثر في الارتحال إليها"¹. وللاهتمام الشديد بعلم الحديث خصوصاً، صارت الرحلات الحجازية تحقق شرطاً هاماً لمن طلب الإجازة لرواية الأحاديث باللفظ والكتابة، فهي تحقق شرط الأخذ عن الشيخ مباشرة. وفي هذا حرص على حفظ الحديث الشريف سالمًا من التحريف. ولا تقف أهمية الإجازة عند هذا الحد، فقد صارت شهادة علمية، ورخصة مهنية. وفي عهد السلطان محمد الثالث بلغ الاهتمام بالعلوم والمعارف إلى "وضع برنامج دراسي لجامعة القرويين"² لخدمة طلبة العلم.

ولما كان السلطان يسعى في المجالس العلمية إلى ضمّ أئمة العلماء والشيوخ في الحديث الشريف والتفسير والفقه ويخصصهم بالعطايا والجوائز، كان السعي لتحقيق الإجازة في تلكم العلوم بالغ الأهمية، لمن أراد "العيش في ظلال الحكام والوقوف على أبوابهم رصدًا للفرص أو لتسلل إلى الداخل حيث العيش الهنيء والحياة الرغيدة"³، وكان امتداد تأثير السلطة يتجاوز التأثير على الجوانب العلمية بل هو يمتد إلى ما قد يُظن بأنه بعيد كل البعد عن البلاط السلطاني، ألا وهو الزوايا التي تعبر عن التدين الشعبي⁴، وتُعرف الزاوية المغربية "بكونها مدرسة دينية ودارًا مجانية للضيافة؛ أي مؤسسة لها طابع إحصاني"⁵. فاختيار موقع زاوية تامكروت مثلاً لم يكن ليكون وليدًا للصدفة، إذ يقع "وسط ما يزيد عن ثلاثمائة قصر

¹ زكري، لامعة: الرحلة العلمية ودورها في إثراء المجال العلمي: المفهوم، الدوافع، الأنواع، دورية كان التاريخية، العدد 22، ديسمبر 2013، ص 158.

² الأخضر، محمد: الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية (1075-1311/1664-1894)، ط1، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1977، ص 271.

³ نجيب، مليكة: المرأة في الرحلة السفارية المغربية، خلال القرن 18 و19، ص 209.

⁴ ينظر: لحسن، دحماني: البركة والتبرك والزاوية: مقاربة سوسيولوجية لواقع التدين بالمغرب، قسم الدراسات الدينية، بحث عام، مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، 16 أبريل 2019، ص 3.

⁵ المرجع السابق: ص 5.

من قصور وادي درعة"¹، بالإضافة إلى كونه مكان التقاء القوافل التجارية، وقد شهدت هذه الزاوية صراعات مع المخزن لاتخاذها عددًا من المواقف أبرزها "الامتناع عن الدعاء للسلطين في خطبة الجمعة"².

وطبيعة العلاقة بين الزاوية والمخزن وفق التصورات النظرية تنقسم إلى تصورين أساسيين هما: أن تكون في تعارض تام مع سياسة المخزن أو أن تعتبر أداة تابعة للمخزن³. وفي كثير من الأحيان عند غياب السلطة المركزية لعبث الزوايا "دور الوسيط بين الرعية والسلطة"⁴. وقد كانت الجهة المسؤولة عن ركب الحجاج غالبًا ما تختار قادة من العلماء أو أصحاب الزوايا - أي العلماء الصوفية - ، ومن الزوايا التي تقلدت قيادة الركب هي الطائفة الناصرية⁵، وتعد (الرحلة الناصرية الكبرى) "تتويجًا لرحلات الناصريين إلى المشرق، خاصة وأنها الأخيرة من نوعها"⁶. وهي لم تقتصر على مواضيع الرحلات الحجازية كوصف مسار الطريق إلى مكة ومناسك الحج. بل "الإجازات التي استوعبتها وردت منسوبة إلى أصحابها. هذا، فضلًا عن تراجم العديد من العلماء وأخبار التصوف والمتصوفة"⁷، ولعل ما يميز نص هذه الرحلة عن بقية الرحلات الناصرية أن مؤلفها محمد بن عبد السلام الناصري هو "آخر كبار شيوخ هذه الزاوية والطريقة الشاذلية"⁸.

وتأتي أهمية الرحلات الناصرية لتسليطها الضوء على جزء هام من الثقافة الإسلامية في المغرب يتعلق بالزوايا ووظائفها المتنوعة: كالوظيفة العلمية والروحية المتمثلة بطلب العلم والطريقة [أي المنهج السلوكي لطالب العلم]، والوظيفة الاستشفائية التي جعلتها مزارًا طلبًا للشفاء وقضاء الحاجات، والوظيفة

¹ الخليشي، عبد العزيز: زاوية تمجروت والمخزن 1642-1914، الرباطات والزوايا في تاريخ المغرب، دراسة تاريخية مهداة للأستاذ إبراهيم حركات، تنسيق: نفيسة الذهبي، ط1، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 1997، ص121.

² المرجع السابق: ص128.

³ ينظر: لحسن، دحماني: البركة والتبرك والزوايا، ص8.

⁴ مجموعة مؤلفين: ندوة الحركة العلمية في عصر الدولة العلوية إلى أواخر القرن التاسع عشر، رقم8، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، وجدة، المملكة المغربية، 1993، ص187.

⁵ ينظر: الناصري، أبو عبد الله محمد بن عبد السلام: الرحلة الناصرية الكبرى، ص6.

⁶ المرجع السابق: ص6.

⁷ المرجع نفسه: ص7.

⁸ الأخضر، محمد: الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية (1075-1311/1664-1894)، ص368.

الجهادية في مواجهة التدخل الأجنبي "بوصفه مسيحيًا ومستعمرًا"¹، بالإضافة إلى الوظيفة السياسية وعلاقتها بالمخزن.

ومع بداية القرن 19م وصلت دعوة محمد بن عبد الوهاب إلى المغرب عبر الاتصال المباشر في مواسم الحج، وما بلغ تونس من كتاب آل سعود²، فانقسم علماء المغرب في الرد على الكتاب بين "التأييد المعتدل لهذه الدعوة والمعارضة لها والتحامل عليها"³. وتبنى السلطان سليمان الموقف المعتدل وقد كلف الفقيه حمدون بن الحاج "بتحرير الرد المغربي"⁴، وقد لقيت قبولًا من السلطة المخزنية فمُنعت "زيارة القبور وإقامة مواسم الصالحين"⁵. ويُرجع بعض الباحثين موقف السلطان سليمان والمؤيدين من العلماء لهذه الدعوة من الناحية الدينية إلى الدوافع الإصلاحية نتيجة للغلو في البدع التي انتشرت في المجتمع. ومن الناحية السياسية كان تأييد دعوة محمد بن عبد الوهاب "ثورة على الخلافة العثمانية، الشيء الذي جعل منها سلاحًا أيديولوجيًا ملائمًا في نظر المخزن، يقاوم به خصومه في الداخل الذين كانوا أساسًا من مشايخ الطرق، وأخذ خصومه في الخارج، أعني الحكم التركي في الجزائر"⁶. وقد سجلت رحلة أبو القاسم الزياني - الترجمانة الكبرى - موقفًا معارضًا لدعوة محمد بن عبد الوهاب حيث يقدم لنص رسالة محمد بن عبد الوهاب إلى علماء تونس بقوله: "فإنه...، لم يجد من يعارضه من ملوك أهل السنة، فوجه كتابه إلى أقاليم أهل السنة، يدعوهم لاتباع مذهبه الفاسد، وبدعته الشنعاء"⁷.

وجاء عهد السلطان عبد الرحمن في النصف الأول من القرن 19م، ببوادر الانفتاح العلمي على أوروبا إذ حرص السلطان على تكوين نجله الأمير محمد في الهندسة والرياضيات، وكانت إحدى بعثاته الموجهة إلى أوروبا تتكون من أربعة طلاب⁸.

¹ لحسن، دحماني: البركة والتبرك والزاوية: مقارنة سوسولوجية لواقع التدين بالمغرب، ص9.

² ينظر: مجموعة مؤلفين: ندوة الحركة العلمية في عصر الدولة العلوية إلى أواخر القرن التاسع عشر، رقم8، ص206.

³ المرجع السابق: ص206.

⁴ المرجع نفسه: ص207.

⁵ الأخضر، محمد: الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية (1075-1311/1664-1894)، ص277.

⁶ مجموعة مؤلفين: ندوة الحركة العلمية في عصر الدولة العلوية إلى أواخر القرن التاسع عشر، رقم8، ص207.

⁷ الزياني، أبو القاسم: الترجمانة الكبرى، ص393.

⁸ ينظر: حركات، إبراهيم: التيارات السياسية والفكرية بالمغرب، خلال قرنين ونصف قبل الحماية، ط2، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1994، ص36.

وبرغم أنّ البعثات للبلاد الأوروبية قديمة في المغرب إلا أنّها كانت ولا زالت ضئيلة خلال القرن 18م والنصف الأول من القرن 19م. وهذا ما تظهره أعداد الرحلات السفارية التي سُجلت أولها في زمن العلويين على عهد السلطان إسماعيل، ومع ذلك لم يُسهم السياق الثقافي في المغرب بازدهارها ونموها خلال هذه الحقبة، وأغلب ما دَوّن فيها كانت سفارات إما للدولة العثمانية كرحلة أبو القاسم الزياني للقسطنطينية، أو لفكاك الأسرى كرحلة محمد المكناسي والغزال.

وهذا يعني أنّ التأثير الشديد بالعلوم الإسلامية، والثقافة المجتمعية المنطوية على الذات، بالإضافة لنمو دور الزوايا وتأثيرها على المجتمع المغربي في ظل الأزمات السياسية التي توالّت على المغرب خلال تلك الحقبة، أنتج نصوصاً بطابعٍ دينيٍّ بارز، ماعدا عدد من النصوص التي تناولت الرحلات السفارية والتي غلب عليها موضوع افتكاك الأسرى، وهذا دون الابتعاد عن الصبغة الدينية التي اتسمت بها الرحلات المغربية في تلك الحقبة.

الفصل الثاني: الوصف في الأعمال السردية

المبحث الأول: مفهوم الوصف

أ. الوصف لغةً

ب. الوصف اصطلاحاً

المبحث الثاني: التعريف بعناصر الوصف

أ. الزمان

ب. المكان

ت. الشخصيات

المبحث الثالث: تقنيات الوصف

أ. عناصر الوصف الخارجي

ب. عناصر الوصف الداخلي

ت. اللغة

المبحث الرابع: وظائف الوصف

أ. الوظائف الحكائية

1. الوظيفة الإخبارية

2. الوظيفة التصويرية

3. الوظيفة السردية

ب. الوظائف الدلالية

1. الوظيفة الإشارية

2. الوظيفة الرمزية

3. الوظيفة التعبيرية

4. الوظيفة الأيديولوجية

5. الوظيفة الجمالية

المبحث الأول: مفهوم الوصف

انطلاقاً من أهمية الوصف في الكلام المكتوب، لاعتباره عنصراً قاراً في بناء النصوص، والجندي الخفي في الأعمال السردية، كان من الضروري بحث مفهوم الوصف، للوصول إلى تصور تنهض به هذه الدراسة التي تقوم على بحث جماليات الوصف في الترجمانة الكبرى لأبي القاسم الزياتي، مؤرخ الدولة العلوية.

أ. الوصف لغة

جاء في المعاجم أنّ الوصف "وصفُك الشيءَ بجليته ونعته"¹، "وصفاً وصفة"². وصفة الشيء "الحالة التي يكون عليها من جليته ونعته، كالسواد والبياض، والعلم والجهل"³. ومنه صيغة المبالغة "الوصاف...، أيّ العارف بالوصف"⁴. وقولهم تواصفوا الشيء أيّ "وصفه بعضهم لبعض"⁵. و"استوصفتُ الطبيب لدائي، إذا سألته أن يصف لك ما تتعالج به"⁶. ويقال "اتصف الشيء في عين الناظر، احتمل أن يُوصف"⁷.

أما عند النحاة "فإنّما يريدون بها النعت وهو اسم الفاعل والمفعول، أو ما يرجع إليهما من طريق المعنى، كمثّل وشبه"⁸. فارتسام حقيقة الأشياء من خلال الإخبار باللغة هو المعنى الذي غلب على مادة

¹ الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد: كتاب العين، تحقيق: د. مهدي المخزومي، ود. إبراهيم السامرائي، ج7، دار ومكتبة الهلال، ص162.

² ابن منظور: لسان العرب، مجلد9، نشر أدب الحوزة، قم، إيران، محرم 1405، ص356.

³ مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، ط4، مكتبة الشروق الدولية، 2004، ص1037.

⁴ المصدر السابق: ص1037.

⁵ المصدر نفسه: ص1037.

⁶ الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد: تاج اللغة وصحاح العربية، راجعه: د. محمد محمد تامر، أنس محمد الشامي، زكريا جابر أحمد، دار الحديث، القاهرة، 2009، ص1249.

⁷ ابن فارس، أبو الحسين أحمد: مقاييس اللغة، تحقيق وضبط: عبد السلام محمد هارون، ج6، دار الفكر، 1979، ص115.

⁸ الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب: القاموس المحيط، نسخة منقحة علق عليها: الشيخ أبو الوفا نصر الهوريني المصري الشافعي، راجعه: أنس محمد الشامي وزكريا جابر أحمد، دار الحديث، القاهرة، 2008، ص1758.

وصف في المعاجم العربية، ومع ذلك يضيف ابن رشيق معنى آخر حين يقول: "وأصل الوصف الكشف والإظهار، إذ يقال: قد وصف الثوب الجسم، إذا نمّ عليه ولم يستره"¹.

ويمكن اختزال تعريفات المعاجم العربية للوصف في عدد من المفردات: هي الإخبار والكشف، والإيضاح والزينة. أو بعبارة جامعة شارحة أنه "ذكر الشيء كما فيه من الأحوال والهيئات"² ظاهرة وباطنة. وذلك "يكون في الحق والباطل"³، وأحسنه ما "يكاد يمثله عياناً للسامع"⁴.

ب. الوصف اصطلاحاً

إذن المعنى اللغوي للوصف يضم عدداً من المعاني المهمة التي تتجلى من خلال الأدب، ذلك أنه حلية وزينة، وكشف وإظهار، وإخبار وإيضاح. وقد كان الشعر عند العرب من الآداب التي ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالوصف حتى قال ابن رشيق عنه: "أكثر الشعر يرجع إلى الوصف"⁵.

في حين لم تذهب التعريفات الاصطلاحية إلى أبعد من المعاني المعجمية للوصف، يُعرّف جبور عبد النور الوصف أدبياً على حد قوله بأنه: "نقل صورة العالم الخارجي أو العالم الداخلي من خلال الألفاظ والعبارات، والتشابه، والاستعارات التي تقوم لدى الأديب مقام الألوان لدى الرسّام، والنغم لدى الموسيقي"⁶. ولكن لا يقف الوصف في الأدب عند الوصف الخارجي للأشياء، بل يمتد إلى "تمثيل الطبيعة الداخلية انفعالات وميولاً وأحاسيس"⁷. ومن التعريفات التي تؤكد ذلك أنّ الوصف في الأدب "نهج في التعبير، يُطابق نهجاً في الإدراك، ويُجسد سياقاً في الوعي، مبعثه طبيعة النفس التي تعي ذاتها ومحيطها الطبيعي، وقوامه نقل المشاهد والأحداث والحالات، كما تنعكس في مرآة الذات الإنسانية، قولاً أو كتابة"⁸.

¹ ابن رشيق، أبو علي الحسن: العمدة في محاسن الشعر، وآدابه ونقده، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ج2، ط5، دار الجيل، بيروت، 1981، ص295.

² ابن جعفر، أبو الفرج قدامة: نقد الشعر، تحقيق: د. محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص130.

³ رضا، أحمد: متن اللغة، موسوعة لغوية حديثة، مجلد5، دار مكتبة الحياة، بيروت 1960، ص766.

⁴ ابن رشيق، أبو علي الحسن: العمدة في محاسن الشعر، وآدابه ونقده، ج2، ص294.

⁵ المصدر السابق: ج2، ص294.

⁶ عبد النور، جبور: المعجم الأدبي، ط2، دار العلم للملايين، بيروت، 1984، ص292-293.

⁷ يعقوب، إميل، وبسام بركة، ومي شيخاني: قاموس المصطلحات اللغوية والأدبية، عربي، إنجليزي، فرنسي، ط1، دار العلم للملايين، بيروت، 1987، ص407.

⁸ المرجع السابق: ص1306.

وهذه التعاريف تفرق بين الوصف التسجيلي الذي يميل للواقعية في وصف الأشياء، والوصف الرومانسي الذي يتخذ من الوجدان عيناً ثالثة يرى بها الموجودات فيصورها بما يتلاءم والحالة الفنية التي يفيض بها أو الحالة النفسية التي تعتريه. وقد ذهب بعض النقاد إلى تعريف أشمل بحيث يُعرف الوصف أنه "إنشاء يُراد به إعطاء صورة ذهنية عن مشهد، أو شخص، أو إحساس، أو زمان للقارئ، أو المستمع"¹. ويمكن اعتبار هذه التعريفات محاولات لتعريف الوصف من حيث إنه أداة تستخدم لتسجيل المشاهدات ونقل الأحاسيس في قوالب الكلمة؛ بغرض الإخبار أو الإظهار أو التزيين. إلا أن الوصف في مستوى التعبير الكتابي عند النقاد يُعد "مقطعاً من الحيز النصي"² وبالتالي يقابل "الحوار الذي هو حكاية للأقوال، والسرد الذي هو حكاية للأعمال"³.

ولهذا عندما يُعرف عبد اللطيف محفوظ الوصف بأنه "هو الخطاب الذي يُسم كل ما هو موجود، فيعطيه تميزه الخاص وتفرده داخل نسق الموجودات المشابهة له أو المختلفة عنه"⁴، باعتباره من الحيز النصي، وتتم مقابله بكل من الحوار بصفته خطاباً "يدور بين اثنين على الأقل"⁵، ويتميز بتفاعل عدة أصوات، وعدة أشكال للوعي، أو جهات النظر"⁶، والسرد باعتباره الخطاب "المنتج لحدث حقيقي أو خيالي يقوم بتوصيله واحد، أو اثنين، أو عدد من الرواة"⁷ تبعاً للكيفية "التي تروى بها القصة...، وما تخضع له من مؤثرات"⁸. تتضح الرؤية التي من خلالها يمكن اعتبار الوصف حيزاً نصياً، وليس فقط أداة تستخدم لنقل الصور الخارجية أو الأحاسيس والانفعالات الداخلية أو حتى الأفكار والتصورات المتعلقة بالأشخاص والأشياء. إذن فالوصف يحتل جزءاً لا يتجزأ من بنية النص، متجاوزاً التصور العام عنه كأداة تهدف لتزيين وتحلية النصوص أو نقل الوقائع والمشاهد فقط.

¹ وهبه، مجدي، وكامل المهندس: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، ط2، مكتبة لبنان، بيروت، 1984، ص433.

² قسومة، الصادق: طرائق تحليل القصة، دار الجنوب للنشر، تونس، 2000م، ص163.

³ المرجع السابق: ص163.

⁴ محفوظ، عبد اللطيف: وظيفة الوصف في الرواية، ط1، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2009، ص13.

⁵ عبد النور، جبور: المعجم الأدبي، ص100.

⁶ برنس، جيرالد: قاموس السرديات، ترجمة: السيد إمام، ط1، ميرييت للنشر والمعلومات، القاهرة، 2003، ص44.

⁷ المرجع السابق: ص122.

⁸ لحداني، حميد: بنية النص السرد من منظور النقد الأدبي، ص45.

المبحث الثاني: التعريف بعناصر الوصف

كان لزاماً التطرق لتعريف كل من الزمان والمكان والشخصيات بعد التعرف على مفهوم الوصف، وقبل البدء في تناول تقنيات الوصف، ذلك أنّ العملية الوصفية باستخدام اللغة في النصوص الأدبية عموماً والسردية خصوصاً التي تتجه نحو ثلاثة عناصر أساسية هي الزمان والمكان والشخصيات.

أ. الزمان

قُدّم مبحث الزمان على المكان والشخصيات، لما له من أهمية بالغة؛ برزت إثر التعريفات التي حاول من خلالها الفكر الإنساني الإجابة عن صرخة القديس أوغسطين "ما هو الوقت إذا؟ إن لم يسألني أحدٌ عنه، أعرفه؛ أمّا أن أشرحه، فلا أستطيع. ومع ذلك، أؤكد بجسارة، إنّه، لو لم يكن شيءٌ ينقصني، لما كان وقت يمضي؛ ولولا الماضي لما كان مستقبل ولولا الماضي لما كان حاضر"¹.

إنّ إجابة أوغسطين تؤكد التعقيد الذي تتطوي عليه مقولة الزمن، ولعلّ تساؤلاً آخر من برتراند رسل يؤكد "صعوبة معرفة ما معنى قولنا ذلك الحدث؟"² أيّ الوقوف على تحديد الحدث في الماضي، والذي تعود صعوبته إلى "العادة في اعتبار الماضي غير موجود"³. ولكن ما يُسَعِف المتسائل في محاولته للوقوف على إجابات عن مقولة الزمن هي الذاكرة التي تحيل لذلك الحدث، والتوقع الذي يفتح باباً نحو الحدث القادم، فيمكن تعليل "الماضي والمستقبل بواسطة الذاكرة والتوقع، ونعني بالماضي إذن اختبار الذاكرة الحاضرة لشيء معين مضى، وبالمستقبل التوقع أو الانتظار لشيء آت أو مقبل"⁴.

وقد انعكست هذه الصعوبة في ضبط مفهوم الزمن عند النقاد وعلماء اللغة، فالزمن عند سعيد يقطين مثلاً "ليس الزمان ماضياً أو حاضراً فقط. فهناك الزمان الممتدّ، والمستمر، والمنقطع"⁵. ولأنّ "بين

¹ اعترافات القديس أوغسطينوس: ترجمة: يوحنا الحلو، ط4، دار المشرق، بيروت، ص249.

² Russell, Bertrand: Human Knowledge, Its Scope and Limits, 9, George Allen and Unwin LTD, London, 1948, P231.

³ المرجع السابق: ص231.

⁴ مبروك، مراد عبد الرحمن: بناء الزمن في الرواية المعاصرة، رواية تيار الوعي نموذجاً (1967-1994)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1998، ص6.

⁵ يقطين، سعيد: السرد العربي، مفاهيم وتجليات، ط1، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2012، ص25.

الماضي والحاضر اتصالات وتداخلات، وتفاعلات¹ يتساءل "كيف يمكن لنا أن نقيم المسافات والحوافز بين الأزمنة؟"²

ولهذا تُشكل الكتابة إطارًا يحاول الإمساك بالزمن، إذ تقيم حوله إطارًا يفصل بين الزمن الفيزيائي والأزمنة التي ينطوي عليها "التعبير، فكل نصّ هو نصّ مكتوب بشكل أبدي (هنا) و (الآن)"³. وهذا ما جعل البحث عن مفهوم الزمن في حقل الدراسات الأدبية يتخذ اتجاهًا مغايرًا لما هو عليه في بقية الحقول المعرفية. فتقسيمات الزمن، منها "ما هو ثنائي، ومنها ما هو ثلاثي"⁴، والتقسيم الذي سنستند إليه في دراستنا هذه، التقسيم الثنائي للزمن: فهناك زمن القصة، "زمن الوقائع"⁵ الذي "يخضع بالضرورة للتتابع المنطقي للأحداث"⁶، ويتم تعريفه بأنه "الزمن التخيلي الذي تستغرقه الواقعة الفعلية، وبصورة أكثر شمولية، الذي يستغرقه الحدث كله. ولتحديد زمن القصة. فإن المرء يستند إلى مظاهر سرعة سير النصّ، والحدث، والتلميحات النصّية الداخلية."⁷ والثاني، زمن السرد، أو كما تُسميه يمني العيد "زمن القول الذي يميّز لنفسه مستوى آخر في النصّ ذاته"⁸، وهو الذي لا يتقيد "بهذا التتابع المنطقي"⁹، لأنّ الراوي يتحكم به، فيتأثر ترتيب الأحداث، بالتقنيات السردية التي يوظفها الراوي لبناء المتن الحكائي، كالاسترجاع، والاستباق، وغيرها.

ب. المكان

لا يقل المكان أهمية عن الزمان؛ إذ برغم التاريخ المعقد لكلا المقولتين، تبنى الباحثون لوقتٍ طويل مقولة "أنّ الأدب فن زمني temporal art في مقابل الفنون المكانية كالرسم والنحت"¹⁰. حتّى لفت باختين

¹ يقطين، سعيد: السرد العربي، مفاهيم وتجليات، ص 25.

² المرجع السابق: ص 25.

³ بارت، رولان: نقد وحقيقة، ترجمة: د. منذر عياشي، ط 1، دار الإنماء الحضاري، حلب، 1994، ص 20.

⁴ يقطين، سعيد: تحليل الخطاب الروائي، الزمن، السرد، التبئير، ط 3، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1997، ص 89.

⁵ العيد، يمني: تقنيات السرد الروائي، في ضوء المنهج البنوي، ط 3، دار الفارابي، بيروت، 2010، ص 111.

⁶ لحداني، حميد: بنية النصّ السرد، من منظور النقد الأدبي، ط 1، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1991، ص 73.

⁷ مانفريد، يان: علم السرد، مدخل إلى نظرية السرد، ترجمة: أماني أبو رحمة، ط 1، دار نينوى، دمشق، 2011، ص 119.

⁸ العيد، يمني: تقنيات السرد الروائي، في ضوء المنهج البنوي، ص 111.

⁹ لحداني، حميد: بنية النصّ السرد، من منظور النقد الأدبي، ص 73.

¹⁰ مانفريد، يان: علم السرد، مدخل إلى نظرية السرد، ص 127.

في مقالة له الانتباه إلى ما أطلق عليه " اسم chronotope، الذي يعني حرفيًا الفضاء الزماني، وذلك للترابط الجوهرى للعلاقات الزمانية والمكانية التي يتم التعبير عنها فنيًا في الأدب"¹. وهذه العلاقة تتكشف من خلال الوصف الذي قدمه شارل كريفل للمكان "بأنه هو الذي يؤسس الحكى لأنّ الحدث في حاجة إلى مكان يقدّر حاجته إلى فاعل وإلى زمن، والمكان هو الذي يضيف على التّخيل مظهر الحقيقة"².

يُقدّم التفسير الذي وُضع لمصطلح chronotope بوصفه لفظًا منحوتًا يعبر عن "العنصرين الأساسيين لأيّ سرد: الموقع والحركة في الفضاء"³، يُقدّم تصورًا أوليًا للإشكال الذي خاضه المكان مع مصطلح الفضاء. فالموقع يمثل المكان أيّ "الإطار الذي تقع فيه الأحداث"⁴ والحركة تمثل الزمن أيّ "الإطار الذي تتساقط فيه الأحداث"⁵. وهذان العنصران يقعان في الفضاء الذي يتميز عن المكان بكونه "أشمل، وأوسع من معنى المكان، والمكان بهذا المعنى هو مكوّن من مكونات الفضاء"⁶. وكذلك الحركة؛ فالفضاء "يفترض دائمًا تصور حركة الأحداث داخله، أيّ يفترض الاستمرارية الزمنية".⁷ ومن أوجه التباين بين الفضاء والمكان، أنّ المكان يُقدّم في الأعمال السردية عبر الوصف سواء بالأسماء أو الجمل أو المقاطع، مما "يفترض دائمًا توفّقًا زمنيًا لسيرورة الحدث، لهذا يلتقي وصف المكان مع الانقطاع الزمني"⁸.

¹ Bakhtin,M,M: The dialogic imagination, Edited by Michael Holquist, Translated by Caryl Emerson and Michael Holquist, Austin, University of Texas press, p84.

² الشيدى، بدر: قهقهة على الرصيف، ما تيسر من سيرة التطواف والسكون، الآن ناشرون وموزعون، 2024، ص58.

³ A group of authors: Proceedings of the workshop entitled, Bakhtin`s theory of the literary chronotope: Reflections, Applications, Perspectives, Gent, Academia press, 2010, p61.

⁴ فاطيمة، ظافري: البنية الزمكانية في رواية "حب في خريف مائل" لسمير قسيبي، رسالة ماجستير، جامعة 8 ماي 1945 قالمة، الجزائر، 2019/2018، ص26.

⁵ المرجع السابق: ص26.

⁶ لحمداني، حميد: بنية النصّ السردى من منظور النقد الأدبي، ص63.

⁷ المرجع السابق: ص63.

⁸ المرجع نفسه: ص63.

ويمكن تلخيص هذا في أنّ المكان في الأعمال السردية هو ذلك الذي يتوقف عنده الزمن، وعند انتهاء وصفه يحضر الزمن ليستمر في مكان أوسع وذا امتداد يجري مع جريان الأحداث "وهو بالتحديد ما نسميه الفضاء"¹.

ت. الشخصية

يكتمل أساس البناء الفني للأعمال السردية بالشخصية التي بها تقوم الأحداث، وبحركتها تجري؛ وفي المعاجم اللغوية "الشَّخْصُ: سواد الإنسان وغيره تراه من بعيد، والشَّخِصُ: الجسم"²، "وكلّ شيء رأيت جسمانه، فقد رأيت شخصه؛ فالشخص: كل جسم له ارتفاع وظهور، والمراد به إثبات الذات فاستعير لها لفظ الشَّخص"³. ويزيد معجم الوسيط "الشَّخصيّة: صفات تميز الشخص من غيره. ويقال: فلان ذو شخصية قوية، وذو صفاتٍ متميّزة وإرادة وكيان مستقل"⁴.

وهذا يعني أنّ الشخصية لا تقتصر على الصفات الخلقية للشخص، بل تمتد إلى صفاته الخلقية وأفكاره، فهذه التركيبية هي التي تشكل الشخصية السردية الخيالية أو الواقعية؛ فيُعرفها معجم المصطلحات الأدبية "شخصية (Character) هي تشير إلى الصفات الخلقية والمعايير والمبادئ الأخلاقية ولها في الأدب معانٍ نوعية أخرى"⁵. وأبرز تقسيمات الشخصيات في السرد، الشخصية الرئيسية، والشخصية الثانوية، والشخصية الهامشية.

¹ لحمداني، حميد: بنية النصّ السردى من منظور النقد الأدبي، ص 63.

² ينظر: الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب: القاموس المحيط، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف محمد نعيم العرقسوسي، ط 8، مؤسسة الرسالة، بيروت، 2005، ص 621.

³ ابن منظور: لسان العرب، مجلد 7، نشر أدب الحوزة، قم، إيران، محرم 1405، ص 45.

⁴ مجموعة مؤلفين: المعجم الوسيط، ج 1، المكتبة الإسلامية، إسطنبول، تركيا، ص 475.

⁵ فتحي، إبراهيم: معجم المصطلحات الأدبية، ط 1، المؤسسة العربية للناشرين المتحدّين، صفاقس، 1986، ص 211.

المبحث الثالث: تقنيات الوصف

عُرِفَ الوصف منذ القدم في محاولات الإنسان لرسم المشاهد وتسجيلها من خلال اللّغة، وقد استطاع الإنسان تطويره عبر قرون من التفاعل مع الذات والخارج الذي أثر في تغيير عمليات الوصف، ولهذا كان من المهم بحث التقنيات التي بها يَرْتَسِم الوصف، ويُنْبَنى، ويزدهر عبر سلسلة الأحداث المكونة للنّص السّري.

تُقدّم تقنيات الوصف¹ في النقاط الآتي ذكرها، رغبةً في بناء تصورٍ أوليّ عن هذه التقنيات التي بها يُرْتَسِم كل من الزمان والمكان والشخصيات والأحداث التي تقوم بها:

1. عناصر الوصف الخارجي: الأشكال، الألوان، الأضواء، الظلال، الأصوات، الروائح، الطُعوم، الملموسات، الحركة، الملامح، الثياب، الحلي.
2. عناصر الوصف الداخلي: البيئة، الذكاء، الثقافة، المستوى الاجتماعي، الجانب الانفعالي الوجداني.
3. اللّغة.

أ. عناصر الوصف الخارجي

يُعد الوصف النقلي من أقدم أشكال الوصف، وهو الذي يهدف إلى نقل صورة أو مشهد ما عبر اللّغة، مما يعني أنّ الحواس هي البوابة التي من خلالها يستقبل الواصف المشاهد التي سينوي تصييرها عباراتٍ، فنصوصٍ؛ لذا كانت "الأشكال، والألوان والأضواء، والظلال، والأصوات، والروائح، والطعوم، والملموسات، والحركة، واللامح، الثياب، والحلي"² من أبرز العناصر التي تُؤثر في تكوين صفات الأشياء في الخارج.

وهذه العناصر تُسهم في وصف كلّ من الزمان والمكان والشخصيات وكذلك الأحداث من خلال المراوحة بين السرد والوصف في النصوص، وبالمثال يتضح أنّ همنغواي حين يقول: "الضباب منتشر فوق صفحة النهر بينما سيارة (جيب) رمادية اللون تنهب الأرض في الفترة بعد الفترة، وقد جلس في داخلها جوار السائق أحد كبار الضباط، وفي الخلف ضباطه المرافقون. وكانت هذه السيارات الصغيرة، تُقذف

¹ ينظر: خمّار، عبد الله: فنّ الكتابة، تقنيّات الوصف، منهج مقترح لإثراء نشاط التعبير، نشر مشترك مع دار الكتاب العربي بالجزائر.

² ينظر: المرجع السابق: ص7، ص14، ص21، ص26.

برشاش المياه الموحلة أكثر من غيرها، وكنا نعرف حين تتميز إحداها بسرعة فائقة، أنها تقل الملك الذي خرج من مقره¹. وعند تأمل النص السابق يمكن ملاحظة بعض عناصر الوصف الخارجي المكونة للمشاهد الموصوفة، كالأشكال والأحجام في قوله: (سيارة جيب، السيارات الصغيرة)، والألوان في استخدامه لعبارة (رمادية اللون) وكلمة (الضباب)، أما بالنسبة للأصوات في قوله: (تُقذف برشاش المياه الموحلة) يتبادر للذهن صوت رشاش تلك المياه، ويمكن أيضًا تصور رائحة تلك المياه كونها غير نقية، بل موحلة. ويحتل عنصر الحركة المساحة الأكبر من الوصف الذي يظهر في عباراتٍ مثل (سيارة جيب ... تنهب الأرض في الفترة بعد الفترة، جلس في داخلها، تقذف برشاش المياه الموحلة، بسرعة فائقة، خرج من مقره)، والحركة في النص نوعان: الحركة الخارجية عند قوله: (بسرعة فائقة، جلس)، أما الحركة الداخلية فتظهر عندما يوجز الوصف بقوله: (تنهب الأرض في الفترة بعد الفترة) دون الخوض في تفاصيل تلك الفترات، أو حين يصف الشخصيات التي تستقل سيارة الجيب بقوله: (وقد جلس في داخلها جوار السائق أحد كبار الضباط، وفي الخلف ضباطه المرافقون) والتي عادة ما تهدف إلى تسريع حركة الأحداث وتجنب الإطالة في الوصف.

وهذه العناصر تصف مشهد خروج الملك من مقره والمكان الذي تمر به سيارته الذي يقع بجوار نهر ينتشر حوله الضباب، والشخصيات التي تستقل سيارة الجيب التي تسبق سيارة الملك، بوصفه للشخصية التي تجلس بجوار السائق بقوله: (أحد كبار الضباط) يحيل الوصف إلى تصور رجل يرتدي زيًا يمتاز به الضابط الأعلى رتبة عن الضباط المرافقين له.

ويمكن وضع اليد على وصف الزمان من خلال تتبع الحركة التي تحكم الأحداث، وتبرز من خلال الأحداث المتعاقبة، فمرور سيارة الجيب يسبق مرور السيارة التي تقل الملك. والتزامن بين مرور السيارات الصغيرة واستخدام رشاش المياه الموحلة لقذفها به.

ومن هذه الأمثلة يُفهم أنّ عناصر الوصف الخارجي تنقل الصورة الخارجية عبر بوابة الحواس التي بها يُتصور كلّ من المكان والشخصيات والأحداث باستخدام اللغة الواصفة.

¹ همغواي، إرنست: وداعًا أيها السلاح، ترجمة: رفعت نسيم، مراجعة: أحمد زكي عبد الحليم، دار القلم، بيروت، ص6.

ب. عناصر الوصف الداخلي

يمتاز الوصف الداخلي عن الوصف الخارجي في أنه يقوم على عدد من العناصر التي تُشكل جوهر العناصر الأساسية للنصوص السردية: الزمان والمكان والشخصيات، كالعقل والوجدان بالنسبة للشخصيات في مقابل الجسم وحركاته الذي يوصف عبر عناصر الوصف الخارجي. ولأنّ هذه العناصر ليست في وضوح عناصر الوصف الخارجي، وجب توضيحها تارة بالشرح وتارة أخرى مقرونة بالأمثلة؛ لتتضح أنواع المواضيع التي تتفرع عن كلّ عنصر من عناصر الوصف الداخلي.

أولاً: البيئة، لا تقتصر على البيئة الطبيعية، بل تشكل البيئة الاجتماعية أعقد البيئات تأثيراً على تكوين عناصر النصوص السردية، فالمجتمع الذي يبني المكان ويؤثر في تكوين الشخصيات، يتكون من بيئات عديد كالأسرة، والمدرسة أو الجامعة، ومكان العمل، ودائرة الأصدقاء، الشارع الذي يمثل المجتمع سواء في دائرة ضيقة كشارع الحي، أو دائرة أوسع كالشارع الذي يُعنى به التوجه العام للمجتمع.

ثانياً: الذكاء، يعبر الذكاء عن المستوى الفكري، والمعرفي، والثقافي للشخصية، الذي يتميز بين الشخصيات، فمثلاً يصف الطبيب صالح ذكاء مصطفى سعيد الخارق " وسرعان ما اكتشفتُ في عقلي مقدرةً على الحفظ والاستيعاب والفهم، اقرأ الكتاب فيرسخ جملة في ذهني، وما ألبث أن أركز عقلي في مشكلة الحساب حتّى تنفتح لي مغاليقها"¹. أما نجيب محفوظ فيصف شخصية نوال في رواية خان الخليلي " فلا هي إلى الطيش والرعوننة تنتسب، ولا من حدة الذكاء وبراعته تستمد"².

ثالثاً: الثقافة، من المصطلحات التي تستدعي التعريف بها ليتضح العنصر الموصوف؛ فالثقافة "بالمعنى الخاص هي تنمية بعض الملكات العقلية أو تسوية بعض الوظائف البدنية"³، أما الثقافة بالمعنى العام فهي "ما يتصف به الرجل الحاذق المتعلّم من ذوق جمالي (فني)، وحسّ نقدي (وعي) وحكم عقلي (منهج)... لهذا ربط (روستان) الثقافة بالعلم عندما قال: العلم شرط ضروري في الثقافة، ولكنه ليس شرطاً

¹ صالح، الطبيب: موسم الهجرة إلى الشمال، ط14، دار العودة، بيروت، 1987، ص26.

² محفوظ، نجيب: خان الخليلي، مؤسسة هنداوي، 2023، ص91.

³ صليبا، جميل: المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982، ص378.

كافيًا، إنّما يطلق لفظ الثقافة على المزايا العقلية التي أكسبنا إيّاها العلم حتّى جعل أحكامنا صادقة وعواطفنا مهذبة¹.

الثقافة في النصوص تظهر عبر المؤشرات التي ترتبط بالشخصية مثل عندما يقول دوستوفسكي: "ولقد قال بيتر بيتروفيتش أيضًا عدة أشياء، لأنه معجب بنفسه، على ما أظن، ويحب كثيرًا أن يُصغي الناس إلى حديثه، وذلك ليس بالأمر المعيب إلى حد ما. ولم أفهم أقواله كثيرًا بالطبع، ولكن دونيا أفهمته، وإن يكن ذا ثقافة محدودة، فإنّه ذكي، وربما طيب أيضًا"². فمن خلال الوصف يتكشف عن شخصية بيتر جانبها الثقافي الذي يظهر من خلال حبه لأن يصغي الناس لحديثه، وتضيف شخصية دونيا وصفًا إضافيًا لشخصية بيتر بأنه محدود الثقافة، ولكن مع ذلك هو ذكي. مما يعني وفق التعريف السابق للثقافة أنّ شخصية بيتر تمتاز بالذكاء وقد اكتسب شيئًا من العلم، ولكن مع ذلك لم تتطور مهاراته المكتسبة ليصبح صاحب ثقافة عالية أو بارزة.

رابعًا: المستوى الاجتماعي، يؤثر المستوى الاجتماعي للشخصية في صفاتها ومعاملاتها وثقافتها وحتّى في نمو ذكائها، ويمتد تأثير المستوى الاجتماعي إلى تكوين وبناء البيئات وذلك من خلال التكوين الطبقي للمجتمعات. والتفاعل الذي يخلقه ذلك التكوين. ويظهر ذلك جليًا عند التمثيل عن ذلك بوصف شخصيتين من مستويين اجتماعيين مختلفين، كما في رواية عرس الزين، فشخصية البدوي يصفها الطبيب صالح "كان البدوي رجلًا موسرًا، ولعلّه أثرى رجل في البلد، جمع ثروته بعرق جبينه، من الصياغة والتجارة والسفر، وبعضها آل إليه عن طريق زوجته. كما يقول أهل البلد رجل أخضر الذراع، لا يمس شيئًا إلا تحول بين يديه إلى مال، في أقل من عشرين عام، كون من العدم ثروة"³. أما شخصية موسى فيصفها "موسى الذي لا يذكر الناس اسمه، ولكنهم يسمونه الأعرج، رجل طاعن في السن...، كان عبدًا رقيقًا لرجل موسر في البلد، ولمّا منحت الحكومة الرقيق حريتهم أثر موسى أن يبقى مع مولاه"⁴. يمكن ملاحظة الفروق بين الشخصيتين على المستوى الاجتماعي وتأثيره في شخصيتهما، فالأول شخصية إيجابية استطاع تغيير

¹ شيخة، جمعة: الثقافة: لغة واصطلاحًا، حدودها وأبعادها، رابطة العالم الإسلامي، المملكة العربية السعودية، 2014، ص6.

² دوستوفسكي: الجريمة والعقاب، ترجمة: فوزي عطوي، ج1، دار الكتاب العربي، بيروت، 1968، ص57.

³ صالح، الطبيب: عرس الزين، دار العودة، بيروت، 1988، ص72.

⁴ المرجع السابق: ص37.

مستواه الاجتماعي، والثاني شخصية سلبية لم يستطع التخلي عن المستوى الاجتماعي الذي عاش فيه برغم أنه حصل على فرصة للتغيير.

خامسًا: الجانب الانفعالي الوجداني، يعبر هذا الجانب عن الحالات النفسية "كخفة الروح والظل والمزاح والطباع وما يصدر عنها من عواطف ودوافع"¹. والتي بها توصف الشخصيات، فتتضح، وتتكشف دواخلها، لننظر كيف يعبر دوستوفسكي عن المزاج السوداوي لشخصية راسكولينكوف "في اليوم التالي، أفاق راسكولينكوف متأخرًا، بعد نوم مضطرب لم يرحه أبدًا. لقد أفاق سوداوي المزاج، عصبياً، غير سوي، ورمى نظرة اشمئزاز إلى غرفته، فإذا هي قفص صغير يبلغ طوله ست خطوات، وإذا بمظهرها كأبشع ما يكون"². ويستمر دوستوفسكي في كشف طباع شخصية راسكولينكوف "إنه كريم وطيب، ولكنه لا يحب أن يطلع أحدًا على مشاريعه، وربما فضل أن يرتكب حماقة كبرى على أن يظهر عمل خير يقوم به. هذا إلى أنه في بعض الأحيان يبدو باردًا، بكل بساطة، عديم الإحساس، إلى درجة التخلي عن إنسانيته، كأنه في الواقع، شخصيتين متناقضتين"³.

يهدف الوصف الداخلي إلى وصف تلك العناصر التي تشكل الصورة النفسية للشخصيات بشكل واضح، والمكان بصفته الوعاء الذي يحوي، ويؤثر في كل تلك المعاني، والأشياء، والشخصيات، أما الزمان فتتشكل هويته الماضية عبر الأحداث التي تقوم بها الشخصيات، كما يؤثر في تشكيل تلك الأحداث والشخصيات والأمكنة.

¹ خمّار، عبد الله: فنّ الكتابة، تقنيّات الوصف، ص 97.

² دوستوفسكي: الجريمة والعقاب، ج 1، ص 42.

³ دوستوفسكي: الجريمة والعقاب، ج 2، ص 318.

ت. اللّغة

تتجاوز اللّغة في الوصف المفردات والتراكيب البلاغية، فاللّغة الواصفة تحتاج في تركيب العناصر إلى أساليب توظف في رسم وتشكيل الشخصيات والأمكنة والأزمنة والأحداث، فتحقق الغاية من الكتابة التي تستوجب التفاعل مع النص بوصفه نسيجاً لغوياً فعّالاً.

وقد ذكر عبد الله خمّار في كتابه (فن الكتابة) عدداً من هذه الأساليب، غير أنّ السعي لجمع تلك الأساليب والتقنيات التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بكيفية استخدام اللّغة في عملية الوصف كان دعوةً لاختصارها وهي:

أ. الوصف المباشر: يختلف تأثير أسلوب الوصف المباشر بين وصف الأمكنة والشخصيات. في حين أنّ الوصف المباشر يصور أبعاد المكان بدقة "وزين هذا المسجد بفصوص الذهب المعروفة بالفسيفساء تخالطها أنواع الأصبغة الغريبة الحسن. وذرع المسجد في الطول من الشرق إلى الغرب مائتاً خطوة وهي ثلاثمائة ذراع"¹. أما عند توظيفه لوصف شخصية ما، فغالباً ما تكون غير محورية، وقد يوظف الكاتب وصفها للكشف عن صفات شخصية محورية كما في رواية الدروب الوعرة، فالكاتب يصف شخصية سعيد آيت سليمان بوصفٍ مباشر الذي من خلاله يمهد لمعرفة شخصية محورية هي مقرران " سعيد آيت سليمان شيخ يتظاهر بالورع والتقى ويناديه جميع الناس بابا سعيد احتراماً له، ويُعتبر في القرية رجلاً حنكته الأيام، فلا يقدر عليه أحد من خصومه، ومن المعروف عنه أنه قليل الوفاء بالعهد"².

ب. الوصف غير المباشر: يتخذ الكاتب الوصف غير المباشر طريقاً لتمييز بعض الشخصيات عن غيرها، بما يخدم غاياته من رسم ملامحها وطباعها، فيذهب الطيب صالح لوصف ود الرئيس وصفاً غير مباشراً، من خلال وصف حركة يده التي سترسم ملامحه "وملس ود الرئيس شاربيه المقوسين بعناية إلى أعلى، طرفاهما كحد الإبرة، ثم أخذ يمسح بيده اليسرى لحيته الغزيرة البيضاء التي تلبس وجهه من الصدغ إلى الصدغ، ويتنافر لونها

¹ ابن بطوطة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، حققه وقدم له: محمد عبد المنعم العريان، راجعه وأعد فهرسه: مصطفى القصّاص، ج1، ط1، دار إحياء العلوم، بيروت، 1987، ص105.

² فرعون، مولود: الدروب الوعرة، ترجمة: د. حنفي بن عيسى، ط5، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1990، ص50.

الأبيض الناصع مع سمرة وجهه كلون الجلد المدبوغ"¹، فإذا بحركة اليد هذه ترسم ملامح شخصية ود الرئيس التي تمتد إلى تبيين طباعه " وود الرئيس يستعمل الكحل متذرعاً، بأنّ الكحل سنة، لكنني أظن أنه يفعل ذلك زهواً"². ويزيد في إظهار طباعه وأفكاره " كان كثير الزواج والطلاق لا يعنيه في المرأة أنها امرأة، يأخذهن حيثما اتفق"³. ومن المثال يتضح كيف يتم الوصف غير مباشر انتقائاً من وصف حدث غير مهم مثل لمس ود الرئيس للحية إلى تفاصيل نفسية تتكشف من الصفات الشكلية، كدلالة استخدامه للكحل، ثم وصف نظرتة للمرأة وعلاقته بها.

ت. الوصف بالتدرج: ارتباط الوصف بالنص السردى يدفع للموازنة بين قيمة الوصف في إبراز ملامح الشخصية وطباعها وسلوكها، والأحداث التي تشكل جوهر السرد، بالإضافة إلى أن الوصف الداخلي للشخصيات الذي لا يمكن إيراد دفعه واحدة، ففعالية البناء في النصوص السردية تقتضي التدرج في وصف الشخصية، ومثال ذلك ما قام به الطيب صالح إذ قدم لشخصية مصطفى في بداية الرواية "رجل ربع القامة، في نحو الخمسين أو يزيد قليلاً، شعر رأسه كثيف مبيض، ليست له لحية وشاربه أصغر قليلاً من شوارب الرجال في البلد، رجل وسيم"⁴. ثم يتدرج ليبدأ في إظهار صفات الشخصية النفسية: " ظل يستمع في صمت، وبيتسم أحياناً، ابتسامة أذكر الآن أنها كانت غامضة، مثل شخص يتحدث عن نفسه"⁵. ويستمر على هذا المنوال إلى نهاية الرواية، حين يصف مصطفى نفسه: " كأني ممثّل هزلي يصيح"⁶.

ث. الوصف بالمقارنة: كما يُقال: "والضدّ يُظهر حسنه الضدّ"⁷؛ فالوصف بالمقارنة بين شيئين أو شخصيتين يظهر صورتها بطريقة متميزة، ويسلط الضوء على العيوب والمزايا، ويبرز التفاوت بينهما؛ فيرتسم في ذهن القارئ صورة أكثر وضوحاً مما إذا كان الوصف مباشراً وخالياً من

¹ صالح، الطيب: موسم الهجرة إلى الشمال، ص82.

² المرجع السابق: ص82.

³ المرجع نفسه: ص82.

⁴ المرجع نفسه: ص6.

⁵ المرجع نفسه: ص8.

⁶ المرجع نفسه: ص171.

⁷ شعر علي بن جبلة الملقب بالعوك: جمعه وحققه وقدم له: د. حسين عطوان، ط3، دار المعارف، القاهرة، ص116.

المقارنة. ومن الأمثلة التي توضح هذا الأسلوب في الوصف، "دخل الصالون شخص جديد هو الأمير الشاب أندره بولكونسكي زوج الأميرة الصغيرة. إن الأمير بولكونسكي فتى بارع الجمال، ريع القامة، واضح القسمات، جاف الهيئة، وكل شيء فيه من نظرتة المكودة الضجرة إلى مشيته البطيئة الموزونة، يناقض كل المناقضة ما تتصف به زوجته الصغيرة من نشاط وحيوية وحرارة".¹

ج. الوصف بالفعل: اعتبار الأحداث أيّ الأفعال في صورتها اللغوية وصفًا، ينطلق من القول بأنّ الأفعال تصف الحركات والهيئات كما تصف الأسماء الأشياء "فهناك فرق مثلاً بين أخذ السكين، وأمسك بالسكين، فكل فعل يُعيّن الطريقة التي يؤخذ بها السكين، فهو لذلك يحمل وصفًا للحركة"²؛ لهذا حين يصف دوستوفسكي مشهد محاولة انتحار أفروسينيوشكا في رواية الجريمة والعقاب، فإنّه يصف من خلال الأفعال ثلاث شخصيات، الأولى هي أفروسينيوشكا التي يتضح من خلال الوصف أنّها يائسة حين اسندت "يدها اليمنى إلى الحاجز، ثم رفعت ساقها الأيمن من فوق الحاجز، ثم رفعت ساقها الأيسر، ورمت بنفسها في القنال"³، أما الجندي فيتصف بالشجاعة فقد "هبط درجات السلم المؤدي إلى القنال، وخلع ملابسه، وحذاه ورمى بنفسه في الماء"⁴، وينتهي بشخصية راسكولينكوف الجبان الذي يراقب المشهد "بشعور غريب من عدم الاكتراث، وأحس بالغثيان ثم راح يتمتم: إنّه قبيح.. الماء... لا يستحق العناية والاهتمام"⁵.

ح. الوصف بالحوار: يكشف الحوار بين الشخصيات عن صفاتهم وآرائهم، فمثلاً يفهم من الحوار الذي دار بين الشخصيات الثلاث على الترتيب: معمر الهادي وسيد علي وعلي بن رباح حول إضراب الفلاحين رفضًا لانتهاك الفرنسيين أراضيهم الزراعية، "قال معمر الهادي: ينبغي للإنسان ألا يتحول بفكره عن العمل، وعن الجهاد في سبيل المعيشة...، هذان رجلان منا قد

¹ تولستوي، ليو: الحرب والسلام، ترجمة: سامي الدروبي وصياح الجهم، ج1، وزارة الثقافة، دمشق، 1977، ص65.

² لحداني، حميد: بنية النصّ السردى من منظور النقد الأدبي، ص78-79.

³ دوستوفسكي: الجريمة والعقاب، ج1، ص249.

⁴ المرجع السابق: ص249.

⁵ المرجع نفسه: ص250.

انتهيا إلى السجن"¹. "أراد سيد علي أن يعترض، ولكنه تفكر في الأمر، فأحجم. إنه لا يريد أن يقحم نفسه في مشاجرة لا معنى لها"². أما علي بن رباح فعندما سمع "معمر: إذا كان هدفك أن تعيش فحسب، فاخفض رأسك واعمل. هذه الوسيلة التي لا وسيلة سواها" وهنا صاح علي بن رباح قائلاً له: "عفوك، عفوك، أعتقد أن علي أن أقول إنني غير موافق على ما تقول. الناس في هذه البلاد من طينة كريمة...، إننا لم نخفض رؤوسنا في يوم من الأيام فلن نخفضها اليوم"³. يكشف الحوار عن جزء كبير من صفاتهم فمعمر الهادي يقدم مصلحته واستقراره المادي ويفضل الإذعان للحال، في المقابل علي بن رباح يُظهر الشخصية الثورية عبر رفضه للاحتلال الفرنسي لأراضيهم، أما سيد علي فإنه يرفض، ولكنه لا يشعر بأن الخوض في هذا الحوار سيعود عليهم بأي نفع، فيحجم عن الحوار؛ لهذا يُعتبر الوصف بالحوار من الأساليب الوصفية التي بها تقدم الشخصيات بصورة غير مباشرة.

ومن المؤكد أن انصهار الوصف في عملية السرد، يؤثر في تكوين أساليب الوصف التي تمثل اللغة الواصفة، وإذا ما اختصرت في ستة أساليب كما أشار إليها عبد الله خمّار، إلا أنها تبقى في حالة من التفاعل داخل عملية السرد التي لا يمكن وصفها بالثبات، فهي في حركة دائمة بدوام حركة جوهرها أي الأحداث، مما يجعل للغة بوصفها تقنية من تقنيات الوصف في الأعمال السردية صفة متجددة بتجدد التفاعلات التي تخلقها حركة السرد.

¹ ينظر: خمّار، عبد الله: تقنيات الوصف، فن الكتابة، ص107.

² المرجع السابق: ص107.

³ المرجع نفسه: ص108.

المبحث الرابع: وظائف الوصف

الوظيفة قيمة قارة في فاعلها، وكذلك وظائف الوصف قيمة قارة في الوصف؛ لذا كان لابد من استخلاص الوظائف التي تُشكل جوهر عملية الوصف في الأعمال السردية، فقد " اختلفت وظائف الوصف تسمية وعدداً باختلاف الدارسين وباختلاف تاريخ دراساتهم والمدونات التي اعتمدها لمقاربة الوصف"¹، وقد سعى محمد نجيب العمامي في كتابه الوصف في النصّ السردى إلى حل هذا الإشكال²، في محاولةٍ للإمساك بأهم وظائف الوصف.

يقسم العمامي وظائف الوصف إلى قسمين: وظائف حكائية، ووظائف دلالية، ويُعرف الحكائية بأنها "الوظائف المتعلقة بالحكاية من جهة أحداثها وزمانها والقائمين بها"³. أما الدلالية فهي "وظائف لبعضها علاقة بالوظائف الحكائية وبعضها الآخر علاقة أوثق بالخطاب وبمضامين النصّ السردى"⁴.

أ. الوظائف الحكائية:

1. الوظيفة الإخبارية: هي وظيفة "ملازمة لكل وصف"⁵؛ فالوصف يقدم معلومات ومعارف عن الموصوفات، فالسرد في حاجة دائمة للوظيفة الإخبارية للوصف، وتتضح عند قراءة المقطع التالي: "خرج إلى الصالة وهو يحمل كوب الشاي الكبير الفارغ. وكان المقعد الكبير الموجود بالصالة خالياً، وأحد الصبية ينام على الكنبه القريبة، وامرأة شابة تقف أمام الحوض فيما بين المطبخ والمرحاض. أما الأم فكانت تجلس على الكنبه الأخرى، إلى جوار النافذة العريضة بزجاجها المغلق وشيشها المفتوح"⁶. معلومات حول عدد من الموصوفات كشخصية يوسف النجار التي تحمل كوب الشاي والذي أخبر عنه بأنه كبير وفارغ، والأم الجالسة على الكنبه والصبي النائم على الكنبه القريبة من باب الصالة، والمرأة الشابة

¹ العمامي، محمد نجيب: الوصف في النصّ السردى، بين النظرية والإجراء، ط1، دار محمد علي للنشر، تونس، 2010، ص174.

² ينظر: المرجع السابق: ص174 - ص184.

³ المرجع نفسه: ص185.

⁴ المرجع نفسه: ص196.

⁵ المرجع نفسه: ص185.

⁶ أصلان، إبراهيم: مالك الحزين، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1998، ص13.

الواقعة. والنافذة التي وصفت بأنها عريضة وزجاجها مغلق وشيشها مفتوح. ويضيف الصادق قسومة أن الوظيفة الإخبارية ليست وظيفة عشوائية، بل على العكس من ذلك إذ "تتمثل في الإخبار اللازم لمتابعة السرد، أي هي ضرب من ضروب التفاعل الجدلي بين هاتين الأداتين القصصيتين"¹، أي السرد والوصف.

2. الوظيفة التصويرية: التصوير أو التمثيل هو جوهر الوصف، وما الوصف إلا تصوير وتمثيل من خلال اللغة، لهذا كانت الوظيفة التصويرية أو التمثيلية، الوظيفة الأبرز للوصف، إذ "لا يمكن أن تكون فضلة يمكن الاستغناء عنها في النص، بل يكون الوصف بمنزلة العين التي يطل منها المتلقي على عالم النص وهو يتحرك في الزمان والمكان"². وما يميز هذه الوظيفة هو حضورها في مختلف النصوص، فتوجد في الشعر، أقدم الفنون، كما تسجل حضورها في الرواية والقصة والسّير الذاتية، ولا يستغنى عنها في نصوص الرّحلات وكتب التاريخ، ولا تقف عند هذا الحد، بل إنّ الوظيفة التصويرية تحضر في أقلّ التعبيرات، كالأسماء، والنعوت.

3. الوظيفة السردية: تسمية هذه الوظيفة بالسردية، لتكون جزءاً من وظائف الوصف، تستدعي مصطلحاً مهماً في النقد الأدبي ألا وهو تسريد الوصف الذي يعرفه محمد الناصر العجيمي "المقصود بتسريد الوصف، بإيجاز، أن القائم به، في الخطاب السردى، يسعى إلى دمج في السرد حتى لا إمكان للفصل بينهما، فتختفي من الوصف، أو تُغشى، نزعتة التلقائية إلى تعطيل الحدث وتعليقه"³. ذلك أن الوصف عُرف بدوره في تعطيل حركة السرد، إذ يقول "تودوروف: إنّ الوصف يحدث وقتاً فيبدو مجرى الزمن معلقاً ومسار السرد منبسّطاً فضائياً. ويقدر هيرش أن الوصف هو مجرد استدعاء أشياء خارجية في زمن ثابت، ويرى روسي: أن الملفوظات الوصفية تمثل محطات تدهم الخطاب السردى لتوقف مجرى الأحداث فيه"⁴.

¹ قسومة، الصادق: طرائق تحليل القصة، ص207.

² مونسي، حبيب: شعرية المشهد في الإبداع الأدبي، دار الغرب للنشر والتوزيع، 2003، ص178.

³ العجيمي، محمد الناصر: الخطاب الوصفى في الأدب العربي القديم، الشعر الجاهلي أنموذجاً، ج1 و2، مركز النشر الجامعي، تونس، 2003، ص405.

⁴ المرجع السابق: ص405.

بيد أنّ الوظيفة السردية للوصف تنقله من عامل ثبات وتعطيل إلى عامل حركة وتيسير للسرد في طور احتياجات السرد الدائمة للوصف؛ لهذا يمكن اعتبار المقطع التالي نموذجاً يكشف الوظيفة السردية للوصف، " في السماء دارت حدّات حيارى: وعلى الأرض انطلقت جماعات الطلبة. كانوا يغادرون الفناء الجامعي إلى الطريق مشتبكين في أحاديث شتى، ثم لاحت بينهم جماعة من الطالبات لا يتجاوزن الخمس، يَسِرْنَ في خَفَرٍ ويخلص نجيا. وكان ظهور الفتيات في الجامعة لا يزال حدثاً طريفاً يستثير الاهتمام والفضول"¹. الوصف في هذا المقطع لا يعطل حركة السرد، إنّما يؤكد على وظيفته السردية، بل إنّّه يرصد حركة الأحداث ويصورها في آن واحد. وهذا ما يتوافق مع تعريف محمد العجيمي لمصطلح تسريد الوصف، بحيث يكونان معاً في آن واحد دون تنافر أو تعارض.

ب. الوظائف الدلالية:

1. الوظيفة الإشارية: ترتبط هذه الوظيفة بالسرد التخيلي، إذ يقوم الوصف في النص السردى التخيلي بإيهام القارئ بواقعية هذا العالم المُتخَيَّل؛ ولهذا سُميَتْ في بعض الدراسات بالوظيفة الإيهامية. ويرى فيليب هامون أنّ هذا الإيهام يمتد أيضاً "للإيهام بالواقعية"². ولكن كيف من الممكن الإيهام بالواقعية؟ لتأتي الإجابة، إنّها التفاصيل، "فمعنى ذلك أنّ الواصف يتبع الأسلوب الاستقصائي"³. فحضور تلك التفاصيل في الواقع حقيقة لا مناص منها ولا تخيل في الأمر، إلّا أنّ المبالغة التي تصاحب الاهتمام بالتفاصيل يجعل القارئ يشعر بالواقع بإحساس مضاعف، لا يحسه تجاه الواقع عادةً.

ويمكن من خلال المقطع التالي ملاحظة كيف يعبر الوصف عن الواقعية بطريقة تستحضر الآلام والمعاناة فتكاد توهم القارئ بالألم والأسى إذ لم تكن توهمه فعلاً جراء قراءة هذا المقطع: "كانت جوازات سفرهم في أيديهم، مغبرة من دروب الصحراء، ومسودة من سحب النفط المشتعلة، وكانوا يتلفتون خلفهم برعب، الأطفال بعيونهم الواسعة، بعيونهم التي

¹ محفوظ، نجيب: القاهرة الجديدة، ط4، دار الشروق، القاهرة، 2016، ص5

² مشعل، نداء أحمد: الوصف في تجربة إبراهيم نصر الله الروائية، ط1، وزارة الثقافة، عمان، 2015، ص269

³ المرجع السابق: ص270

اتسعت، انشغلوا بالحقائب التي تدور على حزام النقل في المطار، وفرحوا، لم أصدق أننا نستطيع النسيان إلى هذا الحد¹.

2. الوظيفة الرمزية: استخدام الرمز في الأعمال السردية، لا يعد جديدًا؛ فلطالما نحا الناس لتوظيف الرموز تجنبًا للتعبير المباشر عن بعض المعاني لأغراض مختلفة؛ لهذا فالوصف يضطلع بالرموز التي ما هي إلا أسماء ونعوت. إلا أن الوظيفة الرمزية للوصف لا تقف عند الأسماء والصفات، بل تمتد إلى أبعد من ذلك، فإذا قرأ المقطع التالي: "مالت الشمس عن كبد السماء قليلًا، ولاح قرصها من بعيد فوق القبة الجامعية الهائلة، كأنه منبثق منها إلى السماء، أو عائد إليها بعد طواف، يغمر رؤوس الأشجار والأرض المخضرة وجدران الأبنية الفضية والطريق الكبير الذي يشق حدائق الأورمان بأشعة لطيفة"² يمكن أن يفسر تصوير الشمس وحركتها، وتأثيرها في المقطع السابق بأنه وصف للقاهرة الجديدة، أو وصف لحالة الأمل والتفاؤل التي ارتبطت في ذلك الوقت بالجامعات باعتبارها مركزًا للعلم والتقدم والتطور، ولهذا سميت هذه الوظيفة في بعض الدراسات بالوظيفة التفسيرية، فالوصف "قابل لقراءتين، وحامل لمعانٍ قريبة ظاهرة وأخرى بعيدة خافية"³.

3. الوظيفة التعبيرية: ترتبط هذه الوظيفة بالمؤلف من جهة وبالشخصيات القائمة في النص من جهة أخرى، فالوصف يعبر عن أحوالهم ونفوسهم وقيمهم وأفكارهم، لذلك يرى العمامي أن قيام الوصف "على الاختيار، اختيار الموصوف والمنظور والمعجم، وهذا الاختيار بصمة من بصمات الذات الواصفة وأثر من آثارها"⁴. ولهذا نجد الوصف يعبر عن انفعالات الشخصيات، بل ويترجم معجمه اللغوي اختياراتهم الفكرية، والجمالية، "فقال ثالث بحمية انتقادية: وهو يتفحص ظهور الفتيات المهزولات: ولكن الله خلقهن ليكن سفيرات الهوى! فقهقه الأول ضاحكًا وقال مدفوعًا بروح الاستهتار والادعاء: أذكر أننا في الجامعة، وأن الجامعة مكان لا يجوز أن يذكر فيه لا الله ولا الهوى! منطقي جدًا ألا يذكر الله، أما

¹ نصر الله، إبراهيم: مجرّد 2 فقط، ط2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1999، ص7.

² محفوظ، نجيب: القاهرة الجديدة، ص5.

³ العمامي، محمد نجيب: الوصف في النص السردى بين النظرية والإجراء، ص197.

⁴ المرجع السابق: ص200.

الهوى؟¹ هذا المقطع يعبر عن اختيارات نجيب محفوظ كروائي للمواضيع المطروحة من خلال الوصف كالإيمان والثقافة والمجتمع الخ، وأيضًا يكشف عن طبيعة بعض الشخصيات التي تتواجد في الجامعة وتُشكل جزءًا لا يتجزأ من البناء المجتمعي في الرواية. بالتالي إنّ الجمل التعبيرية تكشف عن مكنونات الأنفس وأفكار العقول سواء الذات المؤلفة أو المؤلفة.

4. الوظيفة الأيديولوجية: تكشف هذه الوظيفة عن الأفكار والآراء والعوامل التي تُنتج النص؛ فيتحول الوصف بيد الكاتب " إلى سلاح لغوي يعبر من خلاله عن أفكاره وآرائه السياسية والدينية والاجتماعية"². وذلك أنّ الوصف "لا يكون محايدًا. وهو يشف دومًا عن وجهة نظر ما ويدرج قيمًا"³. بل إنّ النص "يُنتج الأيديولوجيا وتُنتجه"⁴. فمثلاً علاقة نجيب محفوظ بالفلسفة ودراسته لها كان له أثر كبير في إنتاج عدد من رواياته " كالطريق، ثرثرة فوق النيل، ملحمة الحرافيش، ليالي ألف ليلة، التي تتضمن بعدًا فلسفيًا واضحًا"⁵. وفي المقابل أثرت أعماله في المجتمع المصري، وتباينت ردود الأفعال تجاهها بين من اعتبره " حالة مصرية، لا بد من المحافظة عليها بكل ما فيها"⁶. ومن اختلف معه خاصة حول رواية أولاد حارتنا التي أثارت جدلاً كبيرًا حولها. أمّا الأيديولوجيا الداخلية، أي التي ترتبط بعناصر السرد والخطاب السردية، فإنّها تظهر عبر تكوين الشخصيات والمكان الذي تدور فيه الأحداث من خلال ما يُسمى "بمسألة التوجيه التقويمي (الحجاجي) الملازم لكل وصف. فالوصف حجة تقود إلى استنتاج"⁷. ويكون ذلك من خلال الصفات التي يستخدمها الكاتب للإخبار عن الشخصيات والأشياء والتي "تقتضي حكمًا معياريًا أخلاقيًا أو جماليًا"⁸. إذ عندما يتم وصف الفتيات اللاتي كن

¹ محفوظ، نجيب: القاهرة الجديدة، ص6.

² مشعل، نداء أحمد: الوصف في تجربة إبراهيم نصر الله الروائية، ص302.

³ العمامي، محمد نجيب: الوصف في النص السردية بين النظرية والإجراء، ص180.

⁴ المرجع السابق: ص201.

⁵ عبد العزيز، إبراهيم: أنا نجيب محفوظ، سيرة حياة كاملة، ط1، دار نفرو للنشر والتوزيع، مصر، 2006، ص74.

⁶ دوير، محمود: غضب وشروط، مراجعة لأعمال نجيب محفوظ تثير الجدل، القاهرة، سكاى نيوز عربية، 15 ديسمبر 2021، الاقتباس: 2023/11/18، 5:57 مساءً (مقال إلكتروني).

⁷ العمامي، محمد نجيب: الوصف في النص السردية بين النظرية والإجراء، ص204.

⁸ المرجع السابق: ص204.

يرتدن الجامعة حديثاً في رواية القاهرة الجديدة مرة بقوله: "إنهن سفيرات العلم لا الهوى"¹، وأخرى بقوله: "ولكن الله خلقهن ليكن سفيرات الهوى!"² يتكشف عبر الوصف معيار أخلاقي بين وصف الفتيات بسفيرات العلم وسفيرات الهوى، وإن كان الوصف الأول يوجّه التأويل إلى وجهة نظر إيجابية، فإن الوصف الثاني يجعل من الحكم شائكاً عند مُساءلة المعيار الأخلاقي وسبب اختياره لهذه الأوصاف وما يحمله التأويل في إطار السرد. إذن ترتبط الوظيفة الأيديولوجية في عملها بالكاتب بصفته المرجع الخارجي، وشخصيات النص وعالمها الأخلاقي بوصفهم مرجعاً داخلياً. وبين كلا المرجعين علاقة تأثر وتأثير.

5. الوظيفة الجمالية أو التزيينية أو الزخرفية: ارتبطت الوظيفة الجمالية بالوظيفة التصويرية للوصف منذ القدم، إذ لطالما وظف الإنسان الوصف في الشعر لأغراض جمالية، ولبلوغ هذه الجمالية كان لابد من تغييب "الوهم التصويري أو التمثيلي، فالواصف لا يقرب بين الشيء الموصوف والمرجع الواقعي، إنما يباعد بينهما متعمداً"³. بهدف إبهار القارئ، ويتحقق ذلك الإبهار جلياً في وصف امرئ القيس لفرسه:

مكّر مفرّ مقبل مدبرٍ معاً *** كجلمود صخرٍ حطّه السّيل من عل⁴

كما أنها تكشف عن "استعراض القدرات اللغوية و [البلاغية مثل] التشبيهات"⁵ للشاعر أو الكاتب. أما في الأعمال السردية فتعمل بالإضافة إلى ما سبق على "بناء ديكور، وإلى تحديد إطار الحدث وتصوير الأبطال والشخصيات الرئيسية"⁶. ويمكن التمثيل على هذا من خلال المقطع التالي الذي يصور فيه نجيب محفوظ شخصية إحسان شحاتة "كانت عظيمة الشعور بأمرين: جمالها وفقرها. كان جمالها فائقاً. وقد استأسر سكان دار الطلبة، وجعل سكان الحجرات يرسلون شواظ أنفسهم فتلتقي جميعاً في شرفة الدار الصغيرة البالية، وترتمي

¹ محفوظ، نجيب: القاهرة الجديدة، ص6.

² المرجع السابق: ص6.

³ العامي، محمد نجيب: الوصف في النص السردى بين النظرية والإجراء، ص205.

⁴ الزورني: المعلقات السبع مع الحواشي المفيدة، تحقيق: محمد خير أبو الوفاء، مراجعة: مصطفى قصاص، ط1، مكتبة البشرى، باكستان، 2011، ص32.

⁵ مشعل، نداء أحمد: الوصف في تجربة إبراهيم نصر الله الروائية، ص296.

⁶ ينظر: جرييه، آلان روب: نحو رواية جديدة، ترجمة: مصطفى إبراهيم مصطفى، تقديم: د. لويس عوض، دار المعارف، القاهرة، ص129.

عند قدم الفتاة الحسناء الفخور. ولكن لم توجد بالدار مرآة حقيقة بأن تعكس ذاك الجمال الصبيح، فالفقر حقيقة ماثلة كذلك.¹

يتبين مما تقدم أنّ الوصف يقدم في النص الواحد وظائف مختلفة، تمتاز فيما بينها بالأدوار التي تُشكلها اللغة معنى ومبنى، ويخلقها الكاتب بالاختيار والغاية، وتؤثر فيها الأيديولوجيا والقيم، وغيرها من العوامل التي تخلق علاقة وثيقة بين الوصف والسرد، فينمو البناء الدلالي للنص من خلال تعاضدهما التام الذي يظهر على مستوى الوظائف التي يقوم بها الوصف لينهض السرد في حركة بنائه للنص.

¹ محفوظ، نجيب: القاهرة الجديدة، ص20.

الفصل الثالث:

تداخل الأجناس في الترجمانة الكبرى

المبحث الأول: الأجناس والأنواع الأدبية في الترجمانة الكبرى

أ. الرحلة

ب. السيرة الذاتية

ت. التراجم

ث. الحكاية

ج. الرسائل

ح. الخطبة

خ. الشعر

المبحث الثاني: المعارف والعلوم في الترجمانة الكبرى

أ. الجغرافيا

ب. التاريخ

ت. الأنساب

ث. العلوم الشرعية

المبحث الأول: الأجناس والأنواع الأدبية في الترجمانة الكبرى

نسعى في هذا المبحث إلى الكشف عن الأجناس، والأنواع الأدبية التي تداخلت في الترجمانة الكبرى، باعتبار النص الرحلي تفاعلاً ثقافياً، سردياً، تقوم بنيته على نسيج من الأجناس والأنواع التي تعكس تفاعلية ذات المؤلف الرحال مع الرحلة، ورصيده الأدبي.

أ. الرحلة

يستهل الزيّاني في مقدمة الترجمانة الكبرى، ببيان قصده من هذا التأليف فيقول: "جمعتُ ما قيدته في رحلاتي الثلاث...، جعلته رحلة واحدة على قاعدة النحاة في جواز الجمع بين الأخوات، وسميتها الترجمانة الكبرى، والتي جمعتُ أخبار العالم برّاً وبحراً"¹. وقد كُنّا بينا ما النص الرحلي في هذا البحث، إذ هو تأليف يهدف إلى تدوين المشاهدات وتسجيلها بحيث يحافظ على ذاكرة الرحلة التي لا تخلو من التأثير بالتفاعلات والانفعالات المصاحبة لفعل الرحلة وقصديته، ومساراتها، بأسلوب يعتمد في ذات الوقت على المخزون المعرفي، والأدبي، والثقافي، والديني، مما يُكسب البنية النصية للرحلة المدونة خصوصية منفتحة على عدد من الأجناس الأدبية والعلوم والمعارف.

وتدوين الرحلات الثلاث عند الزيّاني يتقاطع مع عدد من الأجناس، والأنواع الأدبية، والمعارف والعلوم، ولهذا فسنبحث عن الخيوط التي تربط الرحلات الثلاث، في محاولة للقبض على النص الرحلي بداخل الترجمانة الكبرى. وبرغم تقاطع هذا المسار مع أجناس وأنواع أدبية، ومعارف وعلوم متنوعة، إلا أنّ الزيّاني وضع مفاتيح يمكن من خلالها تحديد الحيز النصي للرحلة.

يبدأ الزيّاني تدوين أولى رحلاته بعنوان الرحلة الأولى²، وهي الرحلة التي توجه بها إلى الحجاز سنة تسع وستين ومائة وألف للهجرة³، بعد أن قرر والده "أداء الفرض، والمجاورة بحرم الرسول صلى الله عليه وسلم،

¹ الترجمانة الكبرى: ص53.

² المصدر السابق: ص58.

³ ينظر: المصدر نفسه: ص58.

لأنه سئم المغرب والمقام به، لتبدل أحواله عما كان يعهد، ففرّ بدينه، وهياً أسباباً¹، ودور الزيّاني في تلك الرحلة أن كان "مساعدته على شأنه، ومتصرفه عن مراده، وإذنه"²، وقد كان عمره آنذاك ثلاثاً وعشرين سنة، فسافروا في بحر القلزم، بعد الأخذ بالمشورة، غير أنّ النكبة الأولى وقعت لهم بتكسر المركب، وضياح البضاعة، والأسباب، وعند نزولهم بالحجاز، وأداء الفريضة، وجدوا أنّ المقام هناك يحتاج لذات اليسار، فعزموا العودة للمغرب، وفي طريق العودة، نزلوا بمصر عند صاحب لهم³، وقد انبهر الزيّاني بابن الصاحب الذي يصفه "كان له يد في علم الرّمل، وعلم السيمياء، ومن رأى تصوراته يحسب أنّه من الأولياء، فشغفت بفنه واتخذته شيخاً"⁴، وتنتهي هذه الرحلة بالوصول إلى المغرب في العام الذي توفي فيه السلطان عبد الله بن إسماعيل الشريف 1171هـ⁵، بعد مواجهة بعض المتاعب في طريق العودة إثر تعطل المراكب في الإسكندرية بسبب "الحرب التي [كانت] بين الإفرنسييس والإصبنيل مع الإنجليز"⁶. ويمكن ملاحظة أنّ الرحلة لم يتجاوز حيزها النصي من الترجمانة الكبرى الثلاث صفحات، وقف عندها الزيّاني على أبرز الأحداث، حيث وضع سبب السفر، وسبب العودة، وبعض الأنشطة التي قام بها أثناء الرحلة.

الرحلة الثانية يعنونها الزيّاني في المرة الأولى بقوله: "سفارة المؤلف عام 1200هـ"⁷، ويبين سبب تلك الرحلة فيقول: "وجهني أمير المؤمنين بهدية للسلطان عبد الحميد العثماني [1725-1789] للاصطنبول، وهي الرحلة الثانية من المغرب إلى المشرق"⁸، بعد هذا التنويه يقطع الزيّاني مسار الرحلة الثانية بحيز نصي يتعلق بجغرافيا المغرب وتاريخه، ولا يعود إلى مسار الرحلة إلا بعد ست عشرة صفحة، مستخدماً كلمة "رجوعاً"⁹ التي ستتكرر في الترجمانة للربط بين أجزاء النص الرحلي لوجود فواصل من نصوص أخرى، ويعود مرة أخرى لبسط

¹ الترجمانة الكبرى: ص58.

² المصدر السابق: ص58.

³ ينظر: المصدر نفسه: ص58-60.

⁴ المصدر نفسه: ص59.

⁵ المصدر نفسه: ص60.

⁶ المصدر نفسه: ص60.

⁷ المصدر نفسه: ص65.

⁸ المصدر نفسه: ص65.

⁹ المصدر نفسه: ص82.

سبب الرحلة السفارية، والذي يُلخص في ما قاله السلطان محمد الثالث للزيّاني إثر دعوته لتكليفه بمهام السفارة: "اخترتك لتشفي غليلي في أمرين: أحدهما أن تقبض أولئك الظلمة الذين سرقوا من مال الله، والثاني تسفه هذا الباشدور [يعني السفير] الذي كذب علي، وتعرفهم أنّه لا يصلح للسفارة بين الملوك، ويلزمه ما يلزم أصحابي الذين سرقوا من مال الله"¹، والقضية أنّ بعثة السلطان محمد الثالث المكونة من القائد علال الدراوي، والقائد قدور البرنوصي، والكاتب السيد محمد الحافي، وجهوا بكتاب، وأموال لفداء الأسرى الترك من مالطة، فلمّا رُفض فكاك الأسرى²، وأوصلوا كتاب السلطان إلى الوزير حسن باشا، وجَدَ في المکتوب أنّ المبلغ المرسل مئتان وأربعة وسبعون ألفاً، غير أنّهم لم يدفعوا سوى مائتين وستين ألفاً، فكان جواب أحدهم عندما سُئل: "المال دفعناه للوزير...، فلا كلام لنا معك"³، فأمر الوزير بطردهم من إسطنبول، والسبب الثاني أنّ الباشدور التركي نقل كتاباً للسلطان محمد الثالث يتضمن "العدر عن أهل الجزائر، والتملق لهم، والايصاء بهم، وبأهل تونس"⁴، والمعروف كما يخبر الزيّاني أنّ "أهل الجزائر على طرفي النقيض مع أمير المؤمنين"⁵، وكان قد سأل السلطان الباشدور عن أهل الجزائر فقال: "إنّ معي كتباً من السلطان لهم، أتوجه بها إليهم، ولأهل تونس أن يتأدبوا معك كما يتأدبون مع السلطان عبد الحميد، وينفذوا أمرك فيما تبعث لهم عليه"⁶، فأمر السلطان بالألا يتوجه الباشدور إلى الجزائر أو تونس، ويرافقه إلى إسطنبول الكاتب محمد بن عثمان المكناسي⁷، غير أنّ البعثة التي كانت ستجّه إلى إسطنبول كتبوا للسلطان يعفيهم من مرافقة الباشدور الذي "يفسد عملهم بما يسمعون من السب والطعن في جانب الدولة"⁸، وبذلك كُلف الزيّاني بتلك المهمة، التي أدّاها على أكمل وجه، وبرز فيها حيث تمكن من لقاء السلطان عبد الحميد الأول، وحاز على رضاه، بما أظهره من حسن الأدب مع الملوك، ورجاحة الرأي والمنطوق⁹.

¹ الترجمانة الكبرى: ص 87.

² ينظر: المصدر السابق: ص 83.

³ المصدر نفسه: ص 83.

⁴ المصدر نفسه: ص 85.

⁵ المصدر نفسه: ص 83.

⁶ المصدر نفسه: ص 85.

⁷ ينظر: المصدر نفسه: ص 86.

⁸ المصدر نفسه: ص 86.

⁹ ينظر: المصدر نفسه: ص 119-126.

ورصد الزيّاني خلال رحلته الثانية عددًا من الجوانب التي امتازت بها الدولة العثمانية، إذ وقف على وصف الأماكن المعتبرة¹ بإسطنبول، والمساجد العظام² التي يزيد عددها عن المائة مسجد، وأبرزها مسجد آية صوفيا³، وكذلك مراتب العلماء، والمدارس، وطريقة اختبار المتعلمين⁴، ولم يغفل عن تسجيل أقسام العسكر العثماني، ومرتباتهم⁵، وسرد أيضًا قصة لقائه مع كمال الدين باشا⁶ الذي أجازته في تلخيص كتابه (تأليف الروح في تاريخ الدول العثمانية)، وحضور الكاتب محمد بن عثمان لذلك اللقاء الذي تمخض عنه استطراد في الحديث عن الحسد، وما لقيه بعض العلماء كالمقري⁷ من حسد في عصره.

وقد أقتطع الحيز النصي للرحلة الثانية، غير مرة بعدد من النصوص، فعند نزول الزيّاني بمرسى مالقة من بلاد الأندلس قال: "تعين علينا ذكر مدن الأندلس، إذ هي من حسان مغربنا"⁸، ثم يعود إلى مسار الرحلة بقوله: رجوعًا⁹ بعد ثمان صفحات. وكذلك عند استنكاره لبعض الحكايات¹⁰، أو في مقارنته بين مدينة إسطنبول ومدينة بغداد حيث يرى أن "لا بد من ذكر ضخامة دولة العرب في الإسلام ببغداد"¹¹، وأيضًا في ذكره تاريخ آل عثمان¹². لينتهي الحيز النصي للرحلة الثانية بعنوان: الزيّاني في المغرب بعد السفارة¹³، حيث لقي الاستحسان والثناء من السلطان محمد الثالث على ما أنجزه في رحلته السفارية.

¹ ينظر: الترجمانة الكبرى: ص 99.

² ينظر المصدر السابق: ص 103 وص 115-116.

³ ينظر: المصدر نفسه: ص 114.

⁴ ينظر: المصدر نفسه: ص 111-113.

⁵ ينظر: المصدر نفسه: ص 120.

⁶ ينظر: المصدر نفسه: ص 104-110.

⁷ ينظر: المصدر نفسه: ص 106.

⁸ المصدر نفسه: ص 87.

⁹ ينظر: المصدر نفسه: ص 96.

¹⁰ ينظر: المصدر نفسه: ص 101-102.

¹¹ المصدر نفسه: ص 117-118.

¹² ينظر: المصدر نفسه: ص 127-129.

¹³ ينظر: المصدر نفسه: ص 131.

الرحلة الثالثة، وهي أطولها، وكانت رحلة اضطرارية إثر وقوعه في النكبة الخامسة¹ عام 1206هـ²، بعد توليه ولاية وجدة، وانهزامه مع العسكر الذين معه على يد بعض القبائل العربية. حيث توجه بعدها إلى مدينة وهران، والتي يبدأ منها الزياني سرد مسار رحلته الثالثة، حيث قضى الشق الأول منها بين تلمسان، والجزائر، وقسنطينة، وتونس، ولقي فيها عددًا من الفقهاء³، والعلماء⁴، ورجال السياسة - البايات^(*) - كولاية الدولة العثمانية مثل الباي محمد بن عثمان في مدينة وهران⁵، والباي حسن باشا في مدينة قسنطينة⁶. ويتخلل الشق الأول نصوص خارجة عن مسار الرحلة، والتي غالبًا ما يضع لها عنوانًا فرعيًا لتمييزها، مثل: الخبر عن مدينة تلمسان⁷، بلوغ مولانا إدريس للمغرب عام 170هـ⁸، موسى بن أبي العافية المكناسي قام بدعوة الشيعة⁹، تداول الدول لملك المغرب¹⁰ الخ.

ويبدأ الشق الثاني عندما تتحول الرحلة الاضطرارية إلى رحلة حجازية، إذ بعد التحذير من الخدمة مع الأمراء¹¹، يشعر الزياني بالحاجة إلى أداء فريضة الحج "إنما أنا رجل أريد السفر في البحر"¹²، فأنا "لا غرض لي في صحبة الملوك...، وغرضي إن شاء الله في التوجه للحرمين الشريفين"¹³. فيتوجه إلى إسطنبول التي يجدد فيها مرة أخرى رغبته في التخلص من ماضيه المتعلق بالخدمة المخزنية "فإنّي جنّت للاصطنبول في سفارة السلطان [محمد الثالث] رحمه الله، ولم يكن عندي إذن بالسفر للحج، ولما يسر الله أسبابنا بالتأخير

¹ ينظر: الترجمانة الكبرى: ص 140.

² ينظر: المصدر السابق: ص 58.

³ ينظر: المصدر نفسه: ص 144.

⁴ ينظر: المصدر نفسه: ص 153-154.

⁵ ينظر: المصدر نفسه: ص 140.

^(*) البايات: مفرداها باي، وهو مصطلح عثماني تطور ليكون لقب لحاكم المنطقة.

⁶ ينظر: الترجمانة الكبرى: ص 152.

⁷ ينظر: المصدر السابق: ص 145.

⁸ ينظر: المصدر نفسه: ص 145.

⁹ ينظر: المصدر نفسه: ص 146.

¹⁰ ينظر: المصدر نفسه: ص 146.

¹¹ ينظر: المصدر نفسه: ص 155.

¹² المصدر نفسه: ص 165.

¹³ المصدر نفسه: ص 153.

من الخدمة السلطانية أردتُ أن أظهر بدني ما تعلق به من الأوساخ، والأدناس التي أثقلت كاهلنا بالقصد لحج بيت الله الحرام، وزيارة قبر نبيه عليه الصلاة والسلام، ونطلبه في غفران ما سلف منا من الآثام، ونقدم بين يدي نجوانا زيارة الأنبياء في طريقنا، وتربة الخليل والمسجد الأقصى¹.

يسجل الزيّاني في رحلته الثالثة مظاهر الاستعداد لموسم الحج في إسطنبول إذ في العشرين من رجب تُضرب "الخيام خارج مدينة الأسكدار في بسيط من الأرض"²، أما ركوب الزوارق فيكون "في الثاني والعشرين من رجب سنة ثمانية ومائتين وألف"³. وتمتزج في هذه الرحلة الجغرافيا والتاريخ مع السرد، بالإضافة إلى الاهتمام والعناية بذكر القبور، والأضرحة طوال الطريق، حيث أورد الزيّاني ذكر منازل الطريق إلى مكة، وتاريخها، فيبدأها بعنوان حمام القدرة⁴، ويُنهيها بدخوله باب السلام⁵، ويتخلل ذلك حضور بارز لأسماء القبور بتلك المنازل، إذ في دمشق على حد قوله جبل أسفله مقبرة، وفوقها: "قبر نبي الله ذي الكفل، ومحمد بن مالك النحوي صاحب الألفية، والربوة بين البساتين، وباب الفرديس، بداخله مسجد فيه رأس الحسين، يقال له مسجد الرأس"⁶.

يتعطل سفر الزيّاني من الإسكندرية إلى المغرب "بسبب الوباء الذي بأفريقية"⁷، فيُجدد النية بقرار إقامته في مصر "بنية العودة للحرمين الشريفين"⁸، وهذا الشق الثالث من الرحلة الثالثة، والذي تخللته نصوص كثيرة حول تاريخ المدن، وعمرانها، وأخبارها مثل: المنار وعمود السواري الذي بالإسكندرية⁹، وعجائب الدنيا أربعة¹⁰، وسبب إبطال المرأة¹¹، ويعقد مقارنة بين كيفية خروج ركب المغارب إلى الحج¹²، الذين ينقسمون إلى قسمين:

¹ الترجمانة الكبرى: ص168.

² المصدر السابق: ص173.

³ المصدر نفسه: ص174.

⁴ ينظر: المصدر نفسه: ص175.

⁵ ينظر: المصدر نفسه: ص188.

⁶ المصدر نفسه: ص182.

⁷ المصدر نفسه: ص195.

⁸ المصدر نفسه: ص196.

⁹ ينظر: المصدر نفسه: ص196.

¹⁰ ينظر: المصدر نفسه: ص197.

¹¹ ينظر: المصدر نفسه: ص198.

¹² ينظر: المصدر نفسه: ص213.

أهل القوة "الذين لهم شغف، ومحامل، وهوادج ينامون فيها بالليل على ظهور الإبل، يصحون بالنهار كأنهم مقيمون"¹، والفقراء "الذين لا إبل لهم، ولا أمتعة، يرافقون الوفد المصري بالماء المسبل في أوقات الليل، وعند الرحيل نهارًا مع ما ينالهم من أهل المروءة من التصدق بفضل الأطعمة"². ويعيد الكرة في الوقوف على منازل الطريق إلى مكة، والتي يبدأها بذكر منازل الحجرة³، وتنتهي عند باب السلام⁴ للمرة الثانية، ولكن هذه المرة يقدم خلال أربع عشرة صفحة، نظامًا من الوصف اعتمد فيه على ذكر المنزل، ووصفه، وتحديد الزمن المستغرق للوصول إليه، وقد زينه ببعض الأبيات المنظومة عن بعض تلك المنازل. ونلاحظ حضورًا كثيفًا للشخصيات الدينية في الشق الثالث من هذه الرحلة، مثل شخصية المعتزلي⁵ الذي دار بينه وبين جمع الفقهاء حوار عقائدي، والشيخ عبد الله اليمني⁶ الذي أخذ عنه خبر القاضي الذي أظهر العدل، فقتل بالمدينة⁷، ويكثر الزياني من الاقتباس في هذا الشق بالاعتماد على الكتب⁸ التي أخذها من العلماء، ككتاب (الذهب المسبوك في عدل عظماء الملوك)، الذي يقتبس منه ترجمة كسرى أنو شروان⁹.

ينتهي الحيز النصي للرحلة الثالثة في صفحة ثلاثمائة وإحدى وثمانين، والذي ابتدأ في صفحة مائة وأربعين، فعند تصفح هذه الصفحات يمكن الوقوف على كم التداخل بين مسار سرد الرحلة، وبين الأجناس، والأنواع الأدبية، والعلوم والمعارف، والتي سنتناولها بالبحث على التدرج.

¹ الترجمانة الكبرى: ص213.

² المصدر السابق: ص213.

³ ينظر: المصدر نفسه: ص217.

⁴ ينظر "المصدر نفسه: ص231.

⁵ ينظر: المصدر نفسه: ص231.

⁶ ينظر: المصدر نفسه: ص232.

⁷ ينظر: المصدر نفسه: ص232.

⁸ ينظر: المصدر نفسه: ص243.

⁹ ينظر: المصدر نفسه: ص233.

ب. السيرة الذاتية

يُعرف فيليب لوجان السيرة الذاتية بأنها "حكي استعادي نثري يقوم به شخص واقعي عن وجوده الخاص، وذلك عندما يركز على حياته الفردية، وعلى تاريخ شخصيته، بصفة خاصة"¹، وما يميز المؤلف في السيرة الذاتية أنه يأخذ "وضعية السارد، حيث يتطابق السارد والشخصية الرئيسية"². وهذا متحقق في الترجمانة الكبرى، فالزَيَّاني الرَّحالة هو الشخصية الرئيسية، وهو السارد في الآن نفسه.

ولأنّ بنية النصّ الرحلي تلتحم مع بنية السيرة الذاتية، فكلاهما حكي نثري، يتطرقان لحياة الزَيَّاني، وتاريخ شخصيته، والترجمانة الكبرى تحقق أيضًا قيد الحكي الاستعادي في قوله: "وإنّي لما رَمْتُ بي الأقدار، وجلتُ في الأفطار، وشاهدتُ كثيرًا من الأمصار..."³.

السارد في النصّ الرحلي مكون من ثلاثة مستويات "المؤلف الكاتب، والمتكلم الحاكي أو السارد، والشخصية المركزية، الفاعل أو الممارس لإنتاج الحدث"⁴. وما يميز المؤلف أنه المرجعية التي تعلن عن "رصيدا الثقافي، ومعرفتها العلمية، وقدرتها التعليمية"⁵، ويمكن التعبير عنه على حد قول عبد الرحيم مودن "بالأنا المعرفي"⁶ الذي يعتمد "لأسلوب الفقيه استطرادًا وتخريجًا، وحواشي، وشواهد شعرية ونثرية"⁷، أما المستوى الثاني المتمثل بالأنا النصي الذي هو السارد المتكلم بضمير المفرد أو الجمع، المكون "من تفاعلات التجربة الشخصية مع المرئي"⁸، "فهو يرصد المرئي بأسلوب الحاكي المستند إلى تحويل المرئيات إلى محكي قائم على تقديم الغريب والعجيب، واستحضار مرويَّات الذاكرة، وحكايات السابقين"⁹. وفي

¹ لوجان، فيليب: السيرة الذاتية، الميثاق والتاريخ الأدبي، ترجمة وتقديم: عمر حلي، بيروت، ط1، المركز الثقافي العربي، 1994، ص22.

² ينظر: المرجع السابق: ص23.

³ الترجمانة الكبرى: ص52.

⁴ مودن، عبد الرحيم: أدبية الرحلة، ص30.

⁵ المرجع السابق: ص31.

⁶ المرجع نفسه: ص31.

⁷ المرجع نفسه: ص32.

⁸ المرجع نفسه: ص32.

⁹ المرجع نفسه: ص32.

المستوى الثالث تأتي الشخصية التي "تعكس الرحلة، أثناء الانتقال، وإنتاج الفعل"¹، والشخصية المركزية في النص الرحلي "شخصية فكرية تمارس الارتحال عبر جدها مع العالم المرئي بمكوناته الإنسانية وغير الإنسانية"²، ومن ثمّ يظهر الجانب المعرفي عبر مسارين من التمثيل، أحدهما في الأحداث التي تحدثها الشخصية المركزية، والآخر فيما ينسجه السارد باعتباره "رجال يكتب"³ مستعيناً بالمؤلف بصفته "كاتب يرحل"⁴.

الترجمة الكبرى في طياتها العديد من الفقرات التي يمكن عدّها أجزاءً من سيرة الزيّاني الذاتية، من حيث إنّها سرد أحداث، ووقائع يحكي فيها المؤلف عن حياته الشخصية، وأفكاره وأحاسيسه، إلا أننا وجدنا في النكبات السبع التي أوردتها الزيّاني صلةً وثيقةً، ذلك أنّها تُمثّل سرّاً شخصياً لأبرز الوقائع التي وقعت معه بين عامي 1169هـ، و1233هـ، والتي سيتضح أنّ كثيراً منها، كان له تأثير مفصلي في بناء شخصية الزيّاني.

النكبة الأولى، وقعت للزيّاني في رحلته الأولى إلى الحج مع والديه، وهو ابن ثلاثة وعشرين عاماً، ذلك أنّهم لما ركبوا البحر في الطريق إلى الحجاز، نصّح بعض الرفاق والد الزيّاني أن "يسافر في بحر القلزم [البحر الأحمر] مع الركاب، لقلة المشقة وقرب المسافة، فباع له ما باع من تلك الأسباب، واشترى له ما ينفق بتلك الرحاب، واكترى الإبل لحمل تلك البضاعة"⁵، غير أنّ الرياح تجري بما لا تشتهي السفن "فتكسر المركب، وتلفت البضاعة، والأسباب، وعق الله الرقاب"⁶.

والأسى الذي خلفته هذه النكبة، يتعلق بالخيبة بعد الأمل، فالمركب تكسر، والبضاعة تلفت، والطريق إلى البيت الحرام المقصود للحج والمقام به تعسر، غير أنّ الانفراج في هذه النكبة كان سريعاً، لما أخرجت والدته الزيّاني "ثلاث مئة دينار مخرطة في حزامها، أعدتها لحادث الدهر إن ألم بها، لا علم لنا بصريحها، ولا

¹ مودن، عبد الرحيم: أدبية الرحلة، ص33.

² المرجع السابق: ص33.

³ المرجع نفسه: ص33.

⁴ المرجع نفسه: ص32.

⁵ الترجمانة الكبرى: ص58-59.

⁶ المصدر السابق: ص59.

إبهامها، فلما انقطعنا بالينبع أخرجتها لوالدي، وقالت: هذه كنت ادخرتها من خالص رزقي لولدي"¹. ومنها يقول الزيّاني: "أكثرنا لجدة ومكة، وحصلنا الحج وأتممنا العمرة"².

النكبة الثانية، حدثت لما أبعدده سلطان المغرب محمد الثالث عن بلاط الخدمة، وهو الذي قضى عشرة أعوام يتقلب في مناصبها الكتابية، ويبدل العزم والسعي الحثيث في سبيل بلوغ القمة، والحياسة على رضا السلطان. والزيّاني يذكر هذه النكبة بعد بيان اعتراض والده على الخدمة المخزنية، ونهيه عن العمل مع السلاطين، وردة فعل والد المؤلف تتم عن خوفٍ من فقدان ابنه الوحيد "فما لي سواك، ولا أستريح حتّى أراك، وبك أتعلل، وأزيل وحشتي ويحصل أنسي"³، وخبرة تعرف الكثير عمّا ستقول له الأمور في بلاط الخدمة، فأنشده قول أبي علي اليوسي:

لا تقربن مالكا ولا تلوذ به ولو تتل عنده عزّا وتمكّينا

يستخدمونك في لذات أنفسهم فيذهب العمر لا دنيا ولا ديناً⁴

إلا أنّ اندفاع الزيّاني وعناده غلباه ، فاتخذ قراره بالالتحاق بالخدمة المخزنية، لا سيّما بعد ما بلغه من التحاق رفيقه سعيد الجزولي بالخدمة، فيقول: "فلما بلغني خبره وما صار إليه حاله، شرهت نفسي للحاق بهم، وتعلقت همتي بخدمة السلطان"⁵؛ الذي سيورثه الألم والكمد، بفاجعة تجريده من جميع مناصبه، وطرده من بلاط الخدمة. وذلك عام 1182هـ⁶.

النكبة الثالثة، أوقعها به سلطان آخر، هو السلطان اليزيد بن محمد الثالث، بسبب اتصال الزيّاني والقبائل البربرية التي كان اليزيد يريد استعمالها في القيام بثورته، فكان الزيّاني يفسد عليه عمله"⁷. فلما بُوع

¹ الترجمانة الكبرى: ص59.

² المصدر السابق: ص59.

³ المصدر نفسه: ص61.

⁴ المصدر نفسه: ص61.

⁵ المصدر نفسه: ص61.

⁶ ينظر: المصدر نفسه: ص62.

⁷ المصدر نفسه: ص24.

اليزيد، أوقع الزياني في السجن، فلم يشعر إلا وهو "في قبضته أسيرًا، وفي الغل الضيق الشديد العسير، وكل من الدور والأسباب محوز، وممنوع مما لا يجوز وما يجوز"¹.

وأعقبها النكبة الرابعة التي تتصل أيضًا بالسلطان اليزيد، ويصف الزياني آلام وأوجاع الغدر الذي لحقه بعد أن مُنح الأمان وأعيد لسلك الخدمة "وبعد شهور سرحني وردني لخدمته، ونظمني في سلك كتبتة، وبعد شهور وثب علي وثبة الانتقام، التي هي مسك الختام، فضربت بحضرته إلى أن غبت عن الوجود، وأخرج الكابوس(*) والملا شهود، وأقامت بسجن العرائش شهرًا، مع من كان فيه من الأسرى، ثم أمر بقدومي للرباط، وجلس لقتلي في نشاط، وانبساط، فعصمني الله منه"². فخبرة الزياني لم تسعفه في تقادي هذه النكبة، فالمفاجأة كانت مدوية، والفاجعة عظيمة، فما انتزع منه لم يكن مألًا أو منصبًا، بل كان شيئًا من كرامته التي أهينت بما تعرض له من ضربٍ وتهديدٍ بالقتل. فما أعتقه من ذلك إلا مقتل السلطان اليزيد "أثناء المعركة التي قامت بينه وبين أخيه هشام قرب مراكش"³.

النكبة الخامسة، أوصلت الزياني إلى مفترق طرق بين واجباته تجاه ولي أمره سلطان المغرب سليمان، ورغبته في الابتعاد عن المحيط السياسي، فإنه لما تمت مبايعة السلطان سليمان بن محمد، إثر مقتل أخيه اليزيد، يقول الزياني: "قلدني ولاية وجدة التي في حيز الإهمال، وأزعجني لها من غير إهمال، فاستعفيتة فلم يقبل كلامي، واسترحمته فلم يرحم ذمامي"⁴. فخرج الزياني إلى وجدة، مكرهاً على تلك الولاية، يطالع النحاس في طريقه، فأصابته بصيرته، حين باغت العرب الزياني ومن معه من العساكر، فهزموا ونهبوا وتركوا في حيز النكران⁵. حينها عزم الزياني على الرحيل عن المغرب، فلهزيمة نكراء، وتقليده ولاية وجدة المهمة، إهانة له، وإنقاصاً من قدره، وسعيًا في إبعاده عن البلاط، وهو الذي كان سفيرًا مقدمًا عند السلطان محمد الثالث.

النكبة السادسة، نالت من الزياني النصيب الأوفر من الأسى والقهر الذي دعاه للقنوط لولا إيمانه بقضاء الله خيره وشره، فإنه قد أقام بالجزائر بعد رحلته الثالثة إلى المشرق، فكتب السلطان سليمان إلى الزياني

¹ الترجمانة الكبرى: ص 139.

(*) الكابوس بالدارجة المغربية: المسدس.

² الترجمانة الكبرى: ص 139.

³ المصدر السابق: ص 24.

⁴ المصدر نفسه: ص 140.

⁵ ينظر: المصدر نفسه: ص 140.

يطلب عودته للمغرب¹، فامتثل لأمر السلطان، وسمع من السلطان ما يسره إذ سامحه، وأعفاه من الخدمة²، وما كان ذلك إلا أن تبدل الحال فأمره بالعودة لسكة الخدمة المخزنية، ويُعبر الزياني عن ذلك بقوله: " قلدني أمر الكتابة جبراً وقهراً، وشرفني بديوان رسائله سرّاً وجهراً، ثم نظماني في سلك حجابته ووزارته، ثم ألحقني بمنصب أهل إمارته، وتقلبْتُ في مناصب الدولة عدة أعوام، حتّى حصل الملل، وكثرة السّعاية من الأقبام، فنزلْتُ عن المناصب لرتبة النكبة"³. وهذه النكبة برغم فاجعتها، يتداركها الزياني على نفسه بعد أعوام طوال قضائها في الخدمة المخزنية، فيواسي نفسه بقوله: "هذه النكبة السادسة، كفارة للذنوب وتوبة"⁴، وفي رأيه أنّها سببٌ لطلب "الجلاء والغربة"⁵.

النكبة السابعة، كانت بموت ابنه "في منتصف رمضان، عام 1233هـ"⁶، ومن خلال ردة فعله على هذا الخبر تتكشف الحالة النفسية والفكرية التي وصل إليها الزياني في عمر الستة والثمانية عامًا⁷، فبرغم المصاب الجلل، ووصفه بالنكبة، يقول الزياني: "جعله لنا الله في ميزان القبول"⁸، هذه العبارة التي يعقبها بعدد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية تؤكد على ضرورة اللجوء إلى الله والتسليم بقضائه وقدره، فأورد قوله تعالى: "وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ"⁹، وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم: "إذا مات ولد العبد، قال الله لملائكته، قبضتم روح عبدي فيقولون: نعم، فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده، فيقولون: نعم، فيقول: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدك، واسترجع، فيقول: ابنوا لعبدي بيتاً في الجنة"¹⁰.

¹ ينظر: الترجمانة الكبرى: ص380.

² ينظر: المصدر السابق: ص381.

³ المصدر نفسه: ص382.

⁴ المصدر نفسه: ص382.

⁵ المصدر نفسه: ص382.

⁶ المصدر نفسه: ص542.

⁷ ينظر: المصدر نفسه: ص58.

⁸ المصدر نفسه: ص542.

⁹ القرآن الكريم: سورة البقرة، آية 155.

¹⁰ الترجمانة الكبرى: ص543.

ت. التراجم

يحضر نسق الترجمة في نصّ الرحلة عند الزيّاني، عبر مسارات مختلفة من الترجمة للغير، فقد زخرت الترجمة بزيارات الزيّاني للقبور، والترجمة لأعلامها، ففي رحلته الثالثة إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، ينزل بقرية سيدي الغازي التي سميت على "اسم رجل من الصالحين مدفون بها اسمه جعفر ولقبه البطل الغازي، مدفون في قلعة مشرفة على القرية بنى ضريحه علاء الدين السلجوقي"¹. ومن القبور التي ترجم لأصحابها ما أورده في "التعريف بالأخضري صاحب السلم...، وهو سيدي عبد الرحمن الأخضري، صاحب المنظومة في المنطق المسماة بالسلم المرونق، وله منظومة في السلوك تشابه المباحث الأصلية، وله مقدمة في الفقه يتعاطاها أهل تلك البلاد"².

واستعان أيضًا بالنقل عن كتب التراجم، ومثال ذلك ما نقله عن ابن خلكان في ترجمة أحمد الرفاعي "قال ابن خلكان: الشيخ أحمد بن الحسن الرفاعي كان فقيهاً شافعيًا، ينسب إلى رفاة بكسر الراء، انضم إليه خلق وأحسنوا الاعتقاد به، صاروا طائفة، وأصله من العرب، وقال القاضي حسن بن باديس في شرحه (الأنسية لشرح قصيدته السنية) المسمات النفهات: أنه منسوب لجده رفاة، وهو من أولاد جعفر الصادق، شريف حسني، وتوفي الرفاعي بقرية أم عبيدة بفتح العين وكسر الباء"³. وكذلك يأخذ عن ابن عساكر "قال في (دوحة الناشر): إنّ الشيخ أبا العباس سيدي أحمد زروق البرنسي، كان من أكابر العلماء والأولياء، أخذ عن الشيخ أبي عبد الله محمد الزيتوني"⁴، واستطرد خبر تصوفه على يد شيخه أبو عبد الله الزيتوني⁵.

وقد اهتم بترجمة عدد من الأسماء التي تدخل في نسب الرسول صلى الله عليه وسلم، وذلك في سياق ذكر "سلسلة أجداد أمير المؤمنين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم"⁶، بهدف "التبرك بهم في هذه الرحلة المباركة"⁷. فكان من جملة من ترجم لهم "عبد الله أبو النبي"⁸، فجاء على خبر ولادته، وما افتدى به عبد

¹ الترجمة الكبرى: ص175.

² المصدر السابق: ص150.

³ المصدر نفسه: ص185.

⁴ المصدر نفسه: ص368.

⁵ ينظر: المصدر نفسه: ص368-369.

⁶ المصدر نفسه: ص422.

⁷ المصدر نفسه: ص422.

⁸ المصدر نفسه: ص427.

المطلب ابنه عبد الله من الإبل في سبيل ما كان قد نذره من ذبح أحد أبنائه لو ولد له عشرة ذكور، وزواجه من آمنة بنت وهب¹. ثم يستطرد في بيان النسب والترجمة لكل من عبد المطلب²، وهاشم³. وإلى آخرهم من أجداد الرسول صلى الله عليه وسلم⁴، وصولاً "إلى أبي البشر آدم صلوات الله عليه"⁵، وينقل عن الديار بكري: "يقال سمي آدم لأنه خلق من الأرض، ولونها، لأنه كان في لون الأدمة وهو لون البر، وقيل لأن طينته مخلوطة من الماء والتراب من أدمت بين الشيتين إذا خلطتهما، هذا على تقدير كونه عربياً كاشتقاق يعقوب من العقب"⁶. وعن الكلبي أنه: "بلغنا أن آدم خُلق مختوناً، واثنى عشر من الأنبياء من بعده خلقوا مختونين آخرهم محمد صلى الله عليه وسلم"⁷.

ومما زخرت به الترجمانية ترجمته للعلماء الذين التقى بهم في رحلاته، ومن هؤلاء "الفقيه الليب الحسيب الأديب كمال الدين الشيخ محمد بن محمد الدمشقي المشهور بالغزي"⁸ الذي التقاه بدمشق، وممن اجتمع فيه أيضاً "الفقيه المحدث المؤرخ الأديب الشيخ سعد الدين الحنفي، حفيد الشيخ القدوة العمدة سيدي عبد الغني النابلسي، وسلك هذا الحفيد مسلك جده"⁹. أو من ربطته بهم علاقة قرابة، كترجمته في بداية الترجمانية لجده الذي كان فقيهاً أستاذاً عشرياً نساباً إخبارياً، لم يكن في وقته من يلحقه في النسب، وهو ممن عدهم الشيخ الحسن اليوسي من أشياخه"¹⁰.

وتسجل تراجم السلاطين حضوراً في نص الترجمانية، ومن ذلك ترجمته للطبيب أخو السلطان سليمان بن محمد الذي عزله "عن المراسي الثلاث، ووجهه لمدينة أنفا بتمسنة إلى أن عزله عنها، وبعثه لدارهم بفاس، ثم ولاه بعد ذلك مراكشة لما فتحها عام عشر ومائتين وألف، وبها توفي بالطاعون الذي عمّ المغرب عام ثلاثة

¹ ينظر: الترجمانية الكبرى: ص 427-430.

² ينظر: المصدر السابق: ص 430-431.

³ ينظر: المصدر نفسه: ص 431-432.

⁴ ينظر: المصدر نفسه: ص 433-451.

⁵ المصدر نفسه: ص 422.

⁶ المصدر نفسه: ص 451.

⁷ المصدر نفسه: ص 451.

⁸ المصدر نفسه: ص 277.

⁹ المصدر نفسه: ص 277.

¹⁰ المصدر نفسه: ص 58.

عشر ومائتين وألف، رحمه الله تعالى ورضي عنه، فقد كان من سادات العلويين جلاله وفضلاً، وشجاعة وكرماً وتحملاً، وتواضعاً وحسن خلق، وعقل، وحلم، وعلو همة، لم يكن في إخوته بعد أمير المؤمنين أحسن منه¹.

غير أنّ حضور التراجم لم يكن هدفاً تنبأه الزيّاني في تقديمه للترجمة، حين أعلن عن منهجه فيها ومصادره². وهذا يفسر حضورها في ثانيا لقاءاته بتلك الشخصيات التي ترجم لها، أو في زيارته للأضرحة والقبور، أو سعيًا في بيان سيرة بعض الشخصيات المهمة مثل ترجمته لوالد الرسول صلى الله عليه وسلم في سياق بيان نسبه عليه الصلاة والسلام، وأيضًا ترجمته لأخي السلطان سليمان بن محمد المسمى الطيب بعد وصول خبره للمؤلف.

ث. الحكاية

يوضح الزيّاني منهجه في بداية الترجمانة، في استجلاب أنواع السرد القصصي، فيقول: "وحليتها بحوادث ونوادر وحكايات جلبها المؤرخون الكبار، كالإمام ابن قتيبة، والمسعودي، والطبري، وابن عساكر، والذهبي، والبكري، الخ"³. ولتتضح أنواع السرد القصصي، يجب التعريف بها، فالقصص بالفتح، هي "الخبر المقصوص"⁴، الذي يستحيل قصصًا "بكسر القاف، جمع القصّة التي تكتب"⁵، واصطلاحًا "هي العمل الأدبي السردّي الذي يتركز حول موقف معيّن، وتدور أحداثه في زمانٍ ومكانٍ محدّدين، ويحتوي على شخصيات لها صلة بهذا الموقف، وتغذي الأخيلا المتعلقة به، وتؤثر في صورته المعكوسة داخل العمل"⁶. وعند الوقوف على مصطلح الحكاية، "نجد أنفسنا أمام مسألة محيرة، لأن هذه الكلمة جاءت في أغلب كتب اللغة والأخبار والحديث لتعني نقل حادثة معينة وروايتها كما هي بشكل يتضمن الدقة والضبط

¹ الترجمان الكبرى: ص382.

² المصدر السابق: ص53.

³ المصدر نفسه: ص53.

⁴ لسان العرب: مجلد7، نشر أدب الحوزة، ص74.

⁵ المصدر السابق: مجلد7، ص74.

⁶ الداية، علياء: الوعي الجمالي، في السرد القصصي، ط1، دار الحوار، اللاذقية، 2012، ص22.

في نقلها مع عدم التوسع في الخبر¹. والحكاية لا يشترط فيها الكتابة كما القصة، لأنها قد "تروى مشافهة"². ويمكن تعريفها بأنها "لون من ألوان القصص. تعتمد على عناصر هذا النوع الأدبي الرئيسية، من سردٍ وتشويق وإمتاع وإفادة"³.

أما النادرة فيعرفها محمد رجب النجار بأنها "أقصوصة مرحة، تتكون من وحدة سردية مستقلة بذاتها، ومن ثم فهي تتسم بالإيجاز"⁴. "وتدور غالباً حول الحياة اليومية، وهي إنسانية الشخوص والأحداث في معظم الأحيان، وتغلب على هذه الحكايات المفارقات التي يستحدثها الغباء أو البلادة أو الخدمة، وقد يكون موضوعاً ماحجاً، وهي خالية من التعقيد"⁵.

والحدث، مصطلح يمكن إدخاله "ضمن معجم القصة والحكاية، بوصفه من مستلزماتها أو أحد عناصرها"⁶؛ ولعلّ الحادثة ما هي إلا قصة ذات حدث واحد، تصور قصة موجزة لحدث ما، فالحدث يقوم بالشخصيات التي تمارس الأفعال، فيمكن اعتبار الحادثة بأنها القصة التي يتقلد فيها الحدث المركزية لا الشخصيات التي عادة ما تكون هي المركز التي تدور حوله الأحداث في القصة والحكاية.

وما يلفت الانتباه في الترجمانة الكبرى الحكايات التسع التي أوردها الزباني معنونة دون غيرها بلفظ حكاية، غير أنّ هناك تبايناً بين العناوين. وبالنظر إلى الجدول أدناه يمكن تتبع هذه الحكايات التسع داخل الترجمانة الكبرى.

رقم	عنوان الحكاية	موضوعها	السياق الذي جاءت فيه	الصفحة
1	حكاية عجيبة ذكرها في سبط ابن الفارض	زهد ابن الفارض	الحديث عن القدرة على حفظ الشعر	101

¹ الخطيب، بشرى محمد علي: القصة والحكاية في الشعر العربي، في صدر الإسلام والعصر الأموي، ط1، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1990، ص22.

² مجموعة مؤلفين: معجم السرديات، ص148.

³ يعقوب، إميل، ميشال عاصي: المعجم المفصل في اللغة والأدب، ج1، ص583.

⁴ النجار، محمد رجب: النثر العربي القديم، من الشفاهية إلى الكتابية، فنونه، مدارسه، أعلامه، ط1، دار الكتاب الجامعي، بيروت، 1996، ص269.

⁵ خليفة، علي محمد السيد: فن النادرة عند الجاحظ، ص40-41.

⁶ الخطيب، بشرى محمد علي: القصة والحكاية في الشعر العربي، في صدر الإسلام والعصر الأموي، ص38.

2	حكاية مستملحة وقعت في زمن مولانا سليمان	رجل زاهد اسمه مولاي عمر	جاءت مباشرة بعد حكاية ابن الفارض، في سياق الحديث عن الزهد	102
3	حكاية للمقري بمصر	عن الفقيه المقري	الحديث عن الحسد	106
4	حكاية إبراهيم الدميّاطي	عن الزاهد الذي لقيه الدميّاطي	يحكي الزيّاني حكاية سمعها من الدميّاطي لما كان معهم في الحج	192
5	حكاية الخصيب وجوده	عن الخصيب بعد فقدانه لمنصبه	أثناء وصفه لمناطق مصر	203
6	حكاية مستملحة على حمار القاضي	الزيّاني مع حمار القاضي	في رحلته الثالثة تحديداً في جدة	256
7	حكاية عجيبة	عن رجل يقال إنّه ذهب إلى الجنة وعاد	في رحلته الثالثة تحديداً في القدس	268
8	حكاية عجيبة	الطفل الذي نجى من الغرق	في سياق الحديث عن الأنهار وعجائبها	312
9	حكاية	عن طاسة الفقير	في سياق الحديث عن الآبار وعجائبها	327

العجائبي وفق ما يعرفه تودوروف "هو التردّد الذي يُحسه كائن لا يعرف غير القوانين الطبيعية، فيما هو يواجه حدثاً فوق طبيعي حسب الظاهر"¹، وأهمية العجائبي تأتي من أصوله الثقافية المتنوعة التي "ترصده عنصرًا وتقنية وطريقة للتعبير عن غرابة مقلقة"²، ويكسب أهميته أيضًا "من خلال تواصله العميق مع القضايا والأسئلة التي تبتغيها معرفة الإنسان"³. أي أنّ العجائبي يقوم على الحيرة والدهشة؛ "فحصول

¹ تودوروف، تزفتان: مدخل إلى الأدب العجائبي، ترجمة: الصديق بوعلام، تقديم: محمد بريدة، ط1، دار الكلام، الرباط، 1993، ص18.

² حليفي، شعيب: شعرية الرواية الفانتاستيكية، ط1، دار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، 2009، ص23.

³ المرجع السابق: ص24.

هذه الحيرة أو العجز عن معرفة كيفية وقوع الفعل العجيب، هو الذي يولد، ويحدد العجائبي، كما تقدمه لنا مختلف الحكايات أو الأخبار التي تزخر بها كتب العجائب العربية¹، إذن يمكن تعريف الحكاية العجيبة، بأنها " سرد قصصي يروي أحداثاً ووقائع حافلة بالمبالغة يصعب تصديقها"².

وبالعودة للحكايات التي أفرد الزباني لها عناوين تميزها من غيرها، ثلاث وصفها بالعجيبة، الأولى تحكي قصة ابن الفارض مع السلطان الملك الكامل الذي "كان يميل إلى فن الأدب، فتذكروا يوماً أصعب القوافي، فقال السلطان: من أصعبها الياء الساكنة...، وأنا أحفظ منها خمسين بيتاً"³، فقال القاضي شرف الدين: "أنا أحفظ منها مائة وخمسين بيتاً، قصيدة واحدة...، فأنشد قصيدة الشيخ ابن الفارض اليائية، التي مطلعها:

سائق الأظعان يطوي البيد طي منعماً عرج على كثنان طي"⁴

فلما سمعها السلطان، طلب من القاضي شرف الدين أن يذهب إلى ابن الفارض ويعطيه هدية جزاءً على هذه القصيدة العظيمة، ويدعوه للحضور عند السلطان، فقال القاضي: "يعفيني مولانا السلطان من هذه، فإنني لا أستطيع أن أخطبه فيه، وإن خاطبته لأجل مولانا السلطان فإنه لا يأخذ الذهب، ولا يحضر، ولا أقدر بعد ذلك أن أدخل عليه حياءً منه"⁵، غير أنه ذهب مضطراً، وهنا يأتي الحدث العجيب الذي سيضفي على الحكاية عجائبيتها، ذلك أن القاضي ترك الذهب عند من صحبه معه، وتوجه لمقابلة ابن الفارض "فوجده واقفاً بالباب ينتظره، فابتداه بالكلام، وقال: يا شرف الدين، مالك ولذكري في مجلس السلطان، رد الذهب إليه، ولا ترجع تجيئني إلى تمام سنة"⁶. وينسب هذا الحدث العجائبي إلى كرامات الأولياء، فابن الفارض من الشعراء المتصوفة. وعلى غرار ذكر زهد الصالحين، يضيف الزباني حكاية مستملحة وقعت في زمن السلطان سليمان⁷،

¹ يقطين، سعيد: السرد العربي، مفاهيم وتجليات، ص233.

² فتحي، إبراهيم: معجم المصطلحات الأدبية، ص143.

³ الترجمانة الكبرى: ص101.

⁴ المصدر السابق: ص101.

⁵ المصدر نفسه: ص102.

⁶ المصدر نفسه: ص102.

⁷ ينظر: المصدر نفسه: ص102.

فبيدأها بقوله: "مثل هذا"¹، أيّ مثل خبر هذا الزاهد ابن الفارض، خبر "زاهد متعبد ناسك شريف اسمه مولاي عمر، ولا يقبل شيئاً مما يعطيه الناس"²، فلما بلغ خبر ورعه وتقواه وزهده للسلطان سليمان "وجه ولده لزيارته ومعه صلة كبيرة، ولما اجتمع به بمسجد الأندلس، دعا له بخير وترك الصلة وخرج من المسجد كأنه يريد قضاء حاجة فلم يعد إليه"³، ونعته لهذه الحكاية بالمستملحة، ربّما يدل على أنّ الزيّاني استملح هذه الحكاية لما فيها من تأكيد الاستغراب من زهد هؤلاء الصالحين، يصل بهم إلى الهروب من عطايا السلاطين، برغم ما يبذله السلاطين في سبيل التقرب منهم، وما يطلبونه من تبرك على أيدي هؤلاء الصالحين. فمن ذا الذي يرفض كل هذا، بل ويعجل في الفرار فرعاً ووجلاً.

والحكاية الثانية التي وصفها بأنّها (عجيبة)، ذكرها في سياق وصف المسجد الأقصى، عند نزوله بببيت المقدس، إذ يحكى أنّ رجلاً من أصحاب الخليفة عمر بن الخطاب أتى جب سليمان في داخل المسجد الأقصى ليستقي الماء، "فخرتْ دلوه في الجب فنزل لها يستخرجها، فبينما هو في الجب إذ أتاه ملكان فأخذا بعاتقه، فذهبا به حتى أدخلاه الجنة، فجعلا يسييران به فيها، فكان كلما مرا به على شجرة لها ثمار يمد يده إلى ثمرها فيؤخّره الملكان، حتى مرا به على شجرة ذات أفنان فمد يده فأخذ ورقة واحدة، فقال الملكان: لو ملكت يدك، لسرنا بك إلى يوم القيامة"⁴، فلما خرج من الجب، أخبر عمر بن الخطاب، فاستدعى الخليفة كعب الأحبار، فسأله: "هل تجد في علمك أن رجلاً من أمة محمد صلى الله عليه وسلم يدخل الجنة ثم يخرج منها؟ فقال: نعم، هو شريك بن خمعاشة النميري"⁵. فأمره أن ينظر أيعرفه، فقال كعب الأحبار: "هو ذا، فقل لكعب صف لنا الورقة، قال: نعم، كانت مثل الكف العظيمة أشبه شيء بورق الدراقين (يعني الخوخ)"⁶، وعجائبية هذه الحكاية تظهر في أكثر من حدث، ابتداءً من الملكين اللذين أخذوا الرجل إلى الجنة، وما جرى له في الجنة، ثم كيف أنّ كعب الأحبار عرف الرجل باسمه، وعرف صفة الورقة دون أن يراها.

¹ الترجمانة الكبرى: ص102.

² المصدر السابق: ص102.

³ المصدر نفسه: ص102.

⁴ المصدر نفسه: ص268.

⁵ المصدر نفسه: ص269.

⁶ المصدر نفسه: ص269.

أما الحكاية الثالثة التي وُصفت بالعجيبة، فقد جاءت في سياق أخبار الأنهار، فنهر الرس¹ الذي بأذربيجان، "شديد الجري، وبأرضه حجارة بعضها ظاهرة وبعضها مغطى بالماء"²، غير أنه كما يصفه الزباني "مبارك كثيراً ما ينجو غريقه"³، ليحكي الزباني على لسان ديسم بن إبراهيم صاحب أذربيجان حكاية عجيبة⁴، أن امرأة أسقطت بالخطأ طفلها في النهر، غير أنه نجى بأعجوبة إذ "انقلب الطفل من يدها إلى الماء، فما وصل إلى الماء إلا بعد زمان، لبعد ما بين ظهر القنطرة ووجه الماء، ثم غاص الطفل وطفأ على وجه الماء، وسلم من تلك الحجارة...، وجرى مع الماء⁵، فما كان إلا أن "أرسل الله عقاباً منها، فانقض على الطفل، ورفع به قماطه وخرج به إلى الصحراء"⁶، فما كان من ديسم بن إبراهيم إلا أن صاح بأصحابهم، وهم بدورهم صاحوا على العقاب، "وترك الطفل، فوجدوه سالماً موقى، فردوه إلى أمه وهو ساكت"⁷. ويفهم من هذه الحكاية أنها دُكرت استدلالاً على خبر أن هذا النهر مبارك ولا يغرق فيه الكثير، وكثيراً ما ينجو غريقه، فهي من الحكايات العجيبة التي تثير الدهشة والتعجب.

غير أن حكاية عجيبة أخرى، لم يصف لها الزباني في عنوانها لفظ عجيبة، وهي ما جاءت في قسم الآبار وعجائبها، ونصّها "حكى أن طاسة لفقير وقعت في بئر زمزم وعليها منقوش اسم الفقير، فرجع الفقير مع الركب المصري إلى القاهرة، فجاء إلى البئر المعظمة [في القاهرة عند الركن المخلق(*)] ليتوضأ منها للتبرك، فطلعت الطاسة بعينها في المستقى، وشهد له جماعة من الحجاج أنهم شاهدوا وقوعها في بئر زمزم"⁸.

¹ ينظر: الترجمانة الكبرى: ص311.

² المصدر السابق: ص311.

³ المصدر نفسه: ص311.

⁴ ينظر: المصدر نفسه: ص312.

⁵ المصدر نفسه: ص312.

⁶ المصدر نفسه: ص312.

⁷ المصدر نفسه: ص312.

(*) موقعها، ينظر: ابن الوردي، سراج الدين: خريدة العجائب وفريدة الغرائب، تحرير: حماة الله ولد السالم، دار الكتب العلمية، بيروت، 2014، ص166.

⁸ الترجمانة الكبرى: ص 327.

من الحكايات التي ينطبق عليها تعريف النادرة، الحكاية التي عنونها الزياني بحكاية مستملحة على حمار القاضي¹، فهي مرحلة، وقد حدثت مع المؤلف نفسه، ذلك أنّ الزياني لما نزل مدينة جدة، خاطب واليها بخطاب والي السويس، الذي كان فيه طلب بإكرام ومساعدة الزياني في سفره، فكان قد طلب من الإبل " خمسة عشر، وبغلة، وفرنسا"²، غير أنهم لم يجدوا للزياني بغلة، فقال والي: " هذا فرسي وحمار القاضي فخذ أيهما شئت"³، فأجابه الزياني مازحاً إيّاه: "الحمار الذي هو للقاضي"⁴. فضحك والي، وكان صاحب القاضي حاضراً، فازداد ضحك والي، فأضاف الزياني: " قل له إنما اخترت حمارك لأحج عليه واعتمر لعل الله أن يغفر له بسبب هذا الحمار وما يلحقه من تعب السفر"⁵، فما كان من والي إلا أن قال: "يا سيدي إنما أخذته منه لمكة فقط ويرجع إليه حماره"⁶، فزاد الزياني في المزاح فقال: "ومن لي بحمار قاضي آخر في مكة، وأين أجد قاضيًا عاصيًا مثل قاضيكم الذي تخلف عن الحج وأراد أن يمنع الحمار أيضًا"⁷، وزاد بإنشاده أبياتاً على لسان الحمار:

أراد القاضي حجاً وعمرة	ويقضي أركاناً على القاضي واجبه
فقال استرح واعلف ودعني فما أنا	بمستطيع ولو سار الناس قاطبة
ولست مفارقاً لبيتي وجدي	وأترك منصبني لمن أتى طالبه
فلا آتي مكة وقدسا وطيبة	ولا أبتغي حجاً ولا أنا راغبه
فمن شاء فليذهب فلست بذهاب	ومن شاء فليغضب فلست أغاضبه
فواعجبا من قاضي جدة عاطل	من الحج ويقضي الحمار وحاربه
فشاق الحمار واستغاث وجاءنا	وقال خذوني إنني لست صاحبه

¹ ينظر: الترجمانة الكبرى: ص256.

² المصدر السابق: ص255-256.

³ المصدر نفسه: ص256.

⁴ المصدر نفسه: ص256.

⁵ المصدر نفسه: ص256.

⁶ المصدر نفسه: ص256.

⁷ المصدر نفسه: ص256.

"فقال الوالي سألتك بالله يا سيدي (إلا ما) أخذت فرسي معك إلى مكة ورد عليه الحمار"¹. فقال الزيّاني: "إنما أداعب القاضي وأمازحه ولا أترك حمارة يحج جبراً عليه"². وقد عدّها المؤلف حكاية مستملحة، ربما نظراً لما وجده فيها من ظرافة، وخاصة أنّه قد أضحك الوالي حتى "غشي على الرجل من كثرة الضحك"³، ومما زاد استحباب هذه الحكاية لنفس المؤلف، إعجاب الوالي الذي كان "أديباً لطيفاً مشاركاً"⁴ بأسلوب الزيّاني في إنتاج النكتة. فمؤشرات النادرة تظهر في هذه الحكاية، فإنّ موضوعها "مضحك ومُلهٍ، وداخل في باب المزاح والطّيب"⁵، والطّيب بمعنى الهزل والفكاهة⁶، ولعلّها أقرب للنادرة الحارة التي يقصدها الجاحظ، "تلك النادرة التي تضحك من يسمعها أو يقرأها بشدة، فهي شديدة الإضحاك"⁷. والزيّاني قد أكد في مقدمته عن نية تحليلية الترجمانة بالنوادر، تحقيقاً للظرافة التي تضيفها على متن الرحلات بغية تخفيف "مؤونة الكتاب على القارئ، وليزيد ذلك في نشاط المستمع"⁸.

ج. الرسائل

ظهرت الرسائل قديماً فكانوا "يطلقون لفظ رسالة على ما ينشئه الكاتب في نسق فني جميل في غرض من الأغراض، يوجّهه إلى شخص آخر"⁹، وأيضاً يطلقونها أحياناً "على القصائد والمقطوعات الشعرية التي ينظمها الشاعر على شكل خطاب موجه إلى صديق أو غيره في أيّ موضوع"¹⁰.

¹ الترجمانة الكبرى: ص256.

² المصدر السابق: ص256.

³ المصدر نفسه: ص256.

⁴ المصدر نفسه: ص256.

⁵ خليفة، علي محمد السيد: فن النادرة عند الجاحظ، ص43.

⁶ ينظر: المرجع السابق: هامش ص43.

⁷ المرجع نفسه: ص42.

⁸ المرجع نفسه: ص38.

⁹ القيسي، فايز عبد النبي فلاح: أدب الرسائل في الأندلس، في القرن الخامس الهجري، ط1، دار البشير، عمان، 1989، ص78.

¹⁰ المرجع السابق: ص79.

والمكتوب من الألفاظ التي صارت مرادفة في المعنى الاصطلاحي للفظ الرسالة؛ فكلاهما يشير إلى "النص المكتوب الذي يبعث به الكاتب إلى غيره في أي موضوع"¹، ومما يعزّز ذلك ماورد في الترجمانة الكبرى "وكنّت وجهتّ معهم مكتوبًا لمحبتنا الأكرم، والمجاهد الأعظم، المتأدّب بآداب الحريري، الوكيل الحاج علي الجيزري"²، وأيضًا لما عزم مراسلة صاحب المرسى قال: "فظهر لنا أن نكتب لصاحب المرسى رجب بن عياد"³، وفي موضع آخر يستخدم الزيّاني لفظ الرسالة فيقول: "وأنشأت فيه رسالة"⁴، وأيضًا "ولما وجهتّ له الجزء الذي وجه لي من منظومته، كتبته له معه هذه الرسالة"⁵، وهذا يؤكد أنّهما من باب الألفاظ المترادفة⁶.

والرسائل في التصنيف الأدبي⁷، ثلاثة أنواع: "الرسائل الديوانية أو الإنشائية أو السلطانية. والرسائل الإخوانية أو الشخصية. والرسائل الأدبية"⁸. والرسائل الديوانية "هي المكاتبات الرسمية الصادرة عن دواوين الدولة أو الواردة إليها"⁹، وتعد أعظم أنواع الرسائل، بل أخطرهما، نظرًا لأنها تعالج مسائل حساسة في الدولة، لا ينبغي إلا للأشخاص المعنيين بالاطلاع عليها، وتتناول هذه الرسائل "شؤون الإدارة والتنظيم الداخلي الذي يتعلق بالحياة العامة، وشؤون الرعية"¹⁰. أما الرسائل الإخوانية و "هي ضرب من الرسائل الذاتية المتبادلة بين الإخوان، ومن هنا سميت بالإخوانية أو الإخوانيات"¹¹، موضوعات هذا النوع من الرسائل تقوم على "تصور عواطف الكتاب وانفعالاتهم ومشاعرهم الخاصة"¹² ومن هذه المواضيع التهاني، والتعازي، والعتاب والشكوى، والاعتذار وغيرها، وقد عدّها أبو العباس القلقشندي مؤلف (صبح الأعشى) سبعة عشر نوعًا: وهي التهاني، والتعازي، التهادي والملاطفة، والشفاعة، والتشوق، والاستزارة، واختطاب المودّة، وفي خطبة النساء، وفي

¹ القيسي، فايز عبد النبي فلاح: أدب الرسائل في الأندلس، في القرن الخامس الهجري: ص 80.

² الترجمانة الكبرى: ص 363.

³ المصدر السابق: ص 363.

⁴ المصدر نفسه: ص 375.

⁵ المصدر نفسه : ص 552.

⁶ ينظر: القيسي، فايز عبد النبي فلاح: أدب الرسائل في الأندلس، في القرن الخامس الهجري، ص 81.

⁷ ينظر: النّجار، محمّد رجب: النثر العربي القديم، ص 137.

⁸ المرجع السابق: ص 138.

⁹ المرجع نفسه: ص 139.

¹⁰ القيسي، فايز عبد النبي فلاح: أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري، ص 111.

¹¹ النّجار، محمّد رجب: النثر العربي القديم، ص 156.

¹² القيسي، فايز عبد النبي فلاح: أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري، ص 100.

الاستعطاف والاعتذار، والشكوى، واستماعة الحوائج، والشكر، والعتاب، وفي العيادة والسؤال عن حال المريض، والذم، والأخبار، والمداعة¹.

والرسائل الأدبية أو المقالة "هي الرسائل التي يبدعها الكتّاب والأدباء إلى غيرهم، لكنها ليست وقفاً على المرسل إليه، بل هي مشاع للجمهور باعتبارها إبداعاً أدبياً محضاً في المقام الأول، فيه تتجلى أدبية الأديب الكاتب، ورؤيته للعالم"². ومن هذه الرسائل (رسالة التبريع والتدوير) للجاحظ³، و(الرسالة الهزلية) لابن زيدون⁴، و(رسالة حي بن يقظان) لابن طفيل⁵، وغيرها الكثير، وقد تعددت مواضيعها، فمنها الفكاهية، والجدلية، والسياسية، والاجتماعية، والجدلية، والدينية⁶.

ويمكن تقسيم الرسائل التي وردت في الترجمانة بحسب موضوعاتها إلى قسمين وهي: الرسائل الإخوانية، والرسائل الجدلية. ويستثنى من هذا التقسيم ثلاث رسائل الأولى، رسالة السلطان محمد الثالث التي وجهها لابنه علي، والثانية، والثالثة أرسلهما السلطان سليمان بن محمد لأبي القاسم الزيّاني.

جمع الزيّاني في نهاية الترجمانة الكبرى إحدى وعشرين رسالةً بنصّها، بين مراسلات دارت بينه وبين بعض علماء عصره كالفقيه الأديب حمدون بن الحاج، أو الرسائل التي وصلته فيما يتعلق بمؤلفاته التي ذاع صيتها آنذاك وخاصة كتابه الأشهر (الترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب) الذي لا يزال حبيس المخطوطات حتى الآن، و(البستان الظريف في دولة أولاد مولاي الشريف)، لم يخرج منه إلا قسم واحد تحت عنوانه الأول البستان الظريف⁷. الذي تناول فيه الزيّاني تاريخ الدولة العلوية من النشأة إلى نهاية عهد السلطان

¹ ينظر: القيسي، فايز عبد النبي فلاح: أدب الرسائل في الأندلس، في القرن الخامس الهجري، ص5-225.

² النّجار، محمّد رجب: النثر العربي القديم، من الشفاهية إلى الكتابية، فنونه، مدارسه، أعلامه، ص165.

³ ينظر: الجاحظ: التبريع والتدوير، المملكة المتحدة، مؤسسة هنداي، 2019.

⁴ ينظر: المصري، جمال الدين بن نباتة، سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، 1964.

⁵ ينظر: ابن طفيل: حي بن يقظان، قدم له وعلق عليه وشرحه: علي بو ملحم، ط1، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 1993.

⁶ ينظر: النّجار، محمّد رجب: النثر العربي القديم، ص171-214.

⁷ ينظر: الزيّاني، أبو القاسم: البستان الظريف، في دولة أولاد مولاي الشريف، القسم الأول: من النشأة إلى نهاية عهد سيدي محمد بن عبد الله، دراسة وتحقيق: الأستاذ رشيد الزاوية، ط1، مركز الدراسات والبحوث العلوية، 1992، (الكتاب موضوع رسالة جامعية لنيل دبلوم الدراسات العليا بكلية الآداب، جامعة سيدي محمد بن عبد الله).

محمد الثالث. وكذلك مؤلفه (الترجمة الكبرى في أخبار المعمور برًا وبحرا)، الذي اشتهر بأنه يضم رحلات الزياني إلى الدولة العثمانية وبلاد المشرق، وما احتواه من أخبار الأقاليم والبحار والبراري.

ويمكن تقسيم هذه الرسائل إلى قسمين: الأول امتازت فيه الرسائل بأنها كُتبت من المرسل، ثم جاء الجواب من المرسل إليه، والثاني كانت الرسائل التي لم يُورد عليها جواب، والتي غالبًا ما كان موضوعها تهنية الزياني على تأليفاته التي ذاع صيتها آنذاك.

يضع الزياني عنوانًا لهذا الباب بعنوان الزياني وآراء معاصريه¹، ويتحدث عن حادثة اجتماعه بالمسجد بالفقيه سليمان الحوات، الذي قال له مداعبًا: " أنت كتمت عنا خبر تأليفك في هذه الدولة العلوية، ولم تخرجه للمجال، وخفت عليه من صولة الرجال"². فأجابه الزياني: أنه "مشهور معلوم، وليس بمقتصر على هذه الدولة، بل جامع لكل من له صولة أو دولة"³، فلما افترقا وجه له كراريس البستان الظريف كاملة، وبعضًا من كراريس الترجمان المعرب، وأرفق معهم رسالة، يطلب فيها من الفقيه سليمان الحوات، يطلب منهم قراءتها وتزويده بالملاحظات التي من شأنها التقويم والإصلاح "تطلب منكم الاختبار، والنظر بعين الاعتبار، فإن وقفت على خطأ أو خلل أو غلط، أو شيء من محل سقط، نبه عليه وأنت مأجور، وسعيك مشكور، فالمؤمن مرآة أخيه"⁴، ويبين منهجه ومصادره في التأليف، فأخبار الدولة العلوية قبل السلطان محمد الثالث استقاها من "تقايد غير مجموعة، وأحاديث أسانيد غير مرفوعة، للسادات القادريين، والفاسيين، والبكريين، فالدرك عليهم"⁵، وأما أخبار الدولة بعد تولي السلطان محمد الثالث الخلافة إلى عهد السلطان سليمان بن محمد، "فبالمشاهدة والعيان، والتقلب في خدمتها بالبيان"⁶، وكتب الزياني هذه الرسالة عام 1230هـ⁷، وجاء جواب سليمان الحوات من نفس العام، ممتدحًا ما ألفه الزياني في الكراريس التي وصلتته، فقال: " وقلت حين جلوسي لسمره، ومشاهدة شمسه وقمره، هذا البيت:

¹ ينظر: الترجمانة الكبرى: ص544.

² المصدر السابق: ص545.

³ المصدر نفسه: ص545.

⁴ المصدر نفسه: ص546.

⁵ المصدر نفسه: ص546.

⁶ المصدر نفسه: ص546.

⁷ ينظر: المصدر نفسه: ص546.

فبات ضجيعي لم أنم شغفًا به وظل أنيسي معجبًا بنوادره¹

ومن العلماء الذين تبادل معهم الزياني الرسائل، الفقيه الأديب حمدون بن الحاج، فإنه لما شاع خبر الترجمان، وشاهد حمدون بن الحاج من ينسخه، طلب من الزياني نسخة كاملة أو بعضه ليطلع عليه، ولأن حمدون بن الحاج بجانب كونه فقيهاً كان شاعراً فذاً في المغرب آنذاك، أرفق الزياني مع كراريس الترجمان، و(ألفية السلوك)، رسالة يوضح فيها سبب تأليفه ألفية السلوك في وفيات الملوك التي حاول فيها المؤرخ الزياني تتبع مناهج الأدباء في التأليف، فيقول معتذراً لمن له باع في الأدب: " أن يجول مثلي في ميدان فرسان أهل الأدب، غير أن الولع بهذا الفن، حملني على اتباع آثار من كتب فيه وصنف"²، و أنه لما رأى "نظم ابن الخطيب في (رقم الحل ونظم الدول)"³، سعى الزياني إلى نظم أسماء ملوك الدولة العلوية "في أبيات تكون لمن حفظها حرزاً، وبركةً وفوزاً، من جدهم القادم من الينبوع مولاي الحسن الشريف، وحفيده مولاي علي الشريف، وثالثهم جد الملوك مولاي الشريف، إلى ملك وقتنا مولاي سليمان"⁴، ثم إنه أراد أن يزيد على ما نظمه ابن الخطيب بأن يجعل "رموزاً للولاية والوفاة"⁵، لما في رأيه من إهمال "لتاريخ وفاة الملوك...، فالمطالع له كساح في بحر أو تائه في فلات، لعدم تاريخ الولاية والوفاة"⁶. وزاد على ذلك فشرح رموزها، وفي ختامها يطلب من حمدون بن الحاج الحصول على نسخة من منظومته المشهورة في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم.

وأجاب حمدون بن الحاج الزياني، بإرسال الجزء الأول من منظومته، وأرفقها بجواب على رسالة أبو القاسم الأولى، "طالعت ما وصلنا من تاريخ الترجمان، وحقه أن يسمى بهجة الزمان"⁷، وأما (ألفية السلوك في وفيات الملوك)، فلقد قرأت منها ما قرأت، وأعجبتني ما نظمت ونثرت، ولا يعيبها أن تبدل كلمة بأخرى"⁸، وزاد على ذلك بقوله في مدح تأليف الزياني:

¹ الترجمانة الكبرى: ص 547.

² المصدر السابق: ص 549.

³ المصدر نفسه: ص 549.

⁴ المصدر نفسه: ص 419.

⁵ المصدر نفسه: ص 420.

⁶ المصدر نفسه: ص 549.

⁷ المصدر نفسه: ص 551.

⁸ المصدر نفسه: ص 551.

هَـذِي أبا قاسِمٍ عُقودٌ إِنْتَظَمَتْ وَجَوْهَرُ الحُسْنِ فِيهَا غَيْرُ مُنْقَسَمٍ
تَضَمَّنَتْ ما بَتَارِيخٍ أَتَيْتَ بِهِ يَرْمِي بِمَوْجٍ مِنَ الأَخْبَارِ مُلْتَظِمٍ
أَظْهَرْتَ ما كانَ فِيْمِنْ فَاتٍ مُخْتَفِيًّا ظُهِورَ نارِ القِرَى لَيْلًا على عَلمٍ¹

لكن الزياني الذي ظهرت ملكته النقدية في غير موضع من هذه الترجمانة، كاعتراضه على ابن خلدون في وصف البربر بالأوصاف الحميدة²، ونقد ابن بطوطة³ وما أورده في رحلته من أخبار. يضمن رسالته الثانية لحمدون بن الحاج تعليقاً نقدياً على منظومته إذ يقول: "تقسم أنك لو (وجدت في دهرك من عليك يشير بتبديل كلمات منها، لكدت من السرور تطير)، فليس بها ما يبذل ولا يعاب، إلا خلوها من التراجم والفصول والأبواب، وذلك من قريب المآخذ، سهل الوصول، لمن يصنع الرماح والنصول، ومثلك أيها النبيه لا يحتاج للتنبيه"⁴.

حصد (الترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب) إعجاب العديد من العلماء والفقهاء، والأدباء، فانهالت على الزياني رسائل المدح والتهنئة على هذا التأليف، فهذا الفقيه الأديب محمد بن عامر التادلي يقول: "وأبقيت هذا التأليف على أدباء العصر ديناً"⁵، وأحمد زروق الجعفري يمتدحه بأبيات:

هَنِيئًا هَنِيئًا أبا القاسم فروضك ذو زهر باسم
جمعت علوم منضدة فلله درك من ناظم
وفي ذمة الله سبحانه علاك فما لك من هاضم⁶

والفقيه عبد الودود الأندلسي يقول في رسالته عن الترجمان المعرب: "مصنفه أبهر به الأولين والآخرين"⁷، ولما طالعه الفقيه القاضي العباس بن أحمد بن التاوادي بن سودة، كتب "أنحفتنا به من مطالعة

¹ الترجمانة الكبرى: ص551.

² ينظر: المصدر السابق: ص74-75.

³ ينظر: المصدر نفسه: ص581-582.

⁴ المصدر نفسه: ص552.

⁵ المصدر نفسه: ص553.

⁶ المصدر نفسه: ص557.

⁷ المصدر نفسه: ص557.

أول تأليفكم الترجمان، الذي جمع أخبار ملوك الزمان، ونؤكد على سيادتكم في الاتحاف بما تيسر من تأليف البستان، إذ هو ثاني الجنتين¹.

وأرسل بعض العلماء رسائل العتب للزيّاني، لما وقع نظرهم على الترجمان المعرب عند غيرهم، كما حصل مع الفقيه الأديب محمد بن أحمد بناني الذي عتب على الزيّاني، توجيهه نسخة لرفيقه حمدون بن الحاج من تأليفه المشتهر بالترجمان المعرب، كتب: "وبعد فلقد بلغني، أنك وجهت لمن كان معنا من تأليفكم (الترجمان) ومن الآخر الذي هو (البستان)، وقدرت بذلك قدره، ونوهت بمطالعة... وجعلتني في حيز الإهمال، ودفعنتني عن منصب الكمال"². وكتب الفقيه الأديب محمد بن منصور الشفشاوني معاتباً: "وبعد فلم لم تعرجوا علينا بحال، ولم نبق لكم على بال، وجعلتمونا في حيز الإهمال، وحططتمونا عن رتبة الكمال، ووجهتم تأليفكم للقريب والبعيد، والسفيه والرشيذ"³، وزاد في معاتبته فقال: "وكأنك لم تعرف مقامي، في حركتي ومقامي، وكأنك لم تجزم بمشاركتي، في النحو والفقه والحديث، وبأن لي فهمًا يميز بين الطيب والخبيث"⁴، وكان عتبه شديدًا إذ "طالعه من جملة الطلبة، وكان آنذاك مريضًا، وراءه عند الفقيه السيد حمدون بن الحاج"⁵.

والبعض لما أعجب بما أنتج الزيّاني، أرسلوا إليه يطلبونه بضرورة "نسخ هذا الكتاب الجامع، والديوان الشامل المانع، وتتنظر لنا كتبه من كتبت لكم فيه، أو غيرهم ممن يحسن ما رسمتم فيه، ليسلم من التحريف والنقص، والتصحيح... فنوجه للطلبة الإقامة، وبعض الأجرة ليكون هذا الأجر على يدك تتميمًا لهذه الصدقة الجارية، التي يبقى ذكرها وأجرها"⁶، وكان ممن كتب يطلب استنساخ (البستان الظريف) بعد الانتهاء من نسخ (الترجمان المعرب)، الفقيه الأديب محمد الصادق بن ريسون⁷.

¹ الترجمانة الكبرى: ص 564.

² المصدر السابق: ص 567.

³ المصدر نفسه: ص 567.

⁴ المصدر نفسه: ص 567.

⁵ المصدر نفسه: ص 567.

⁶ المصدر نفسه: ص 566.

⁷ المصدر نفسه: ص 569.

الرسائل الجدلية نوع من الرسائل يشترط فيه وجود جواب للرسالة "تحت إطار الحوار الجدلي الكتابي"¹، الذي كان له حضورٌ بارز في الترجمانة الكبرى، حيث ظهر في مكتوب مطالب علماء العرب لآل عثمان 1151هـ/1738م، إذ كتب مجموعة من فقهاء العرب مكتوباً يعترضون فيه على ما آل إليه حال العرب تحت حكم العجم الذين "استبدوا دونهم وأنزلوهم عن مراتبهم، بل وأهانوهم، وحقروهم"²، برغم ما بذله العرب في سبيل تأليف القلوب وجبر الخواطر من تولية العجم "المناصب الدينية والدينية كالقضاء، والفتوى، والتدريس، والحسبة، والإراثة، والإمامة، والخطابة، والنقابة، والحجابه، والوزارة، والإمارة"³، "حتى أن منصب الخلافة الشرعي جعلوا لهم مثله، وهو منصب السلطنة الذي يعادل الخلافة بل هو أعظم منها، وتحت حكمه العرب والعجم"⁴. ولمّا بلغ المكتوب لوزير الدولة العثمانية، الذي هو شيخ الإسلام ومفتيها، جمع إليه القضاة والفقهاء، ليكتبوا جواباً على رسالة فقهاء العرب، وكان الجواب على شقين، الأول وافقوا فيه فقهاء العرب من مخالطة ملوك العرب للأعاجم وتقاسم المناصب السلطانية والشرعية معهم، إذ ذلك من المشهور عن عدلهم وكرمهم، وهو أمرٌ لا ريبة فيه ولا شك. أما الثاني من الجواب، فاعتراض على مطلب تقديم العرب على العجم في المناصب السلطانية والشرعية، ووجه اعتراضهم أن وجود الأعاجم في هذه المناصب يعود للعرب الذين "هدموا حدود الشريعة، وقدموا للمناصب من لا يخاف الله من العرب والعجم، وجاروا في الأحكام، واستحلوا الحرام"⁵، وأن الأعاجم نالوها بما لهم من علو الهمة والباع في العلم فبهم "تدارك الله هذا الدين المحمدي... من الكردية والسلجوقية، والخوارزمية، والعثمانية"⁶، ويختمون جوابهم، برفض مطالب فقهاء العرب، "فلا تحدثوا أنفسكم بالتقديم لهذه المراتب، فإن ولايتكم لها هي ابتداء المفاسد، فاقنعوا بما ترزقونه في الملازمة والتدريس، وما تنتفعون به من الكتابة والصحبة لكل رئيس"⁷.

¹ النّجار، محمّد رجب: النثر العربي القديم، من الشفاهية إلى الكتابية، فنونه، مدارسه، أعلامه، ص176.

² الترجمانة الكبرى: ص361.

³ المصدر السابق: ص361.

⁴ المصدر نفسه: ص361.

⁵ المصدر نفسه: ص362.

⁶ المصدر نفسه: ص362.

⁷ المصدر نفسه: ص362.

ولعلّ أبرز الرسائل الجدلية تظهر في رسالة محمد بن عبد الوهاب إلى علماء تونس والمغرب، وما كان من جواب قاضي تونس أبو الحفص بن مفتيها أبي الفضل قاسم المحجوب الحسني¹، فدعوة محمد بن عبد الوهاب بدأت بالانتشار على يدي آل سعود، بعد أن خذله "أمير الغينة عثمان بن حمد بن معمر"²، فانتقل للدرعية وهناك "تلقاه أميرها محمد بن سعود بالإكرام، وقبل دعوته وأزره كما أزره من بعد ابنه عبد العزيز، ثم سعود بن عبد العزيز، وقاتلوا من خالفوه"³، وانتشرت دعوته حتّى وصلت إلى بلاد المغرب الأقصى، وفي رسالة محمد بن عبد الوهاب التي أوردها أيضًا المؤرخ التونسي أبو الضياف في كتابه (إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان)⁴، يدعو إلى منع زيارة القبور، وإلى وجوب "هدم القباب المبنية على القبور لأنّها أسست على معصية الرسول صلى الله عليه وسلم"⁵، ومنع التوسّل بهم، فإله تعالى على حد قوله: "أخبر أن من جعل بينه وبين الله وسائط بوسم الشفاعة فقد عبدّهم وأشرك به"⁶، ويستدل بالشواهد القرآنية "وإذا كانت الشفاعة كلها لله كما قال الله تعالى: (قل لله الشفاعة جميعاً)، (من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه)، وقال تعالى: (يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولا)، وهو سبحانه لا يرضى إلا التوحيد كما قال تعالى: (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى)، فالشفاعة حق، ولا تطلب إلا من الله"⁷، ويستشهد بأحاديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم "أنّه قال: (لا تقوم الساعة حتّى يلحق حي من أمّتي بالمشرّكين وحتّى تعبد أقوام من أمّتي الأوثان)"⁸، وبعد بيان الحجج والأدلة التي يستند إليها في دعوته، يقرر أنّ "من لم يجب الدعوة بالحجة والبيان، دعوانه بالسيف، والسنان، كما قال تعالى: (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد)"⁹.

¹ الترجمانة الكبرى: ص 396.

² كحالة، عمر رضا: معجم المؤلفين، تراجم مصنّفي الكتب العربية، ج 3، ط 1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1993، ص 473

³ المرجع السابق: ص 473.

⁴ ينظر: أبو الضياف، أحمد: إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، تحقيق: لجنة من وزارة الشؤون الثقافية، المجلد 2، ج 3، ط 1، الدار العربية للكتاب، 1999، ص 60-63.

⁵ الترجمانة الكبرى: ص 395.

⁶ المصدر السابق: ص 395.

⁷ المصدر نفسه: ص 395.

⁸ المصدر نفسه: ص 395.

⁹ المصدر نفسه: ص 396.

وصلت هذه الرسالة إلى المغرب وتونس، فأجاب عليها في المغرب الفقيه حمدون بن الحاج، وقد اعترض الزياتي على ما أجاب به ابن الحاج على رسالة محمد عبد الوهاب "فضمن الجواب عنها في قصيدة مدحه فيها، ولم يتعرض لبدعته وذمه والرد عليه"¹. ثم يورد أبو القاسم رسالة قاضي تونس أبي حفص في ست صفحات²، بسط فيها حججاً، تعارض حجج محمد بن عبد الوهاب، فاعترض أبو حفص على تكفير محمد بن عبد الوهاب لمن تشفع وتوسل بقبور الأنبياء والصالحين، والأولياء، إذ المسلمون معتصمون بالشهادة حتى يقولوا غير ذلك ويستشهد بحديث الرسول "عليه السلام: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، إذا قالوها عصموا من دمائهم، وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله)"³، ثم يحكم "بأن التوسل بالمخلوق مشروع، ووارد في السنة القويمة ليس بمحظور ولا ممنوع"⁴، ويستدل على ذلك بما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب، إذا ما لقي أويس القرني⁵، أن يطلب منه الاستغفار له، وقد فعل. ومن جملة استدلالاته ما وقع في عام الرمادة، من استسقاء عمر بن الخطاب والتوسل بالعباس عم رسول الله، "فأخذ عمر رضي الله عنه بضبعيه، وأشخصه قائماً بين يديه، وقال: اللهم إنا نتقرب إليك بعم نبيك، فإنك تقول وقولك الحق (وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحاً) فحفظتهما لصالح أبيهما، فاحفظ أمة نبيك في عمه"⁶، وينكر عليه إنكاره لأنواع الشفاعة، وكرامات الأولياء، والانتفاع بدعائهم. ويعترض على ما أورده محمد بن عبد الوهاب من عدم مخالفة رأيه للمسلمين، بل "وقد أجمع عليه السلف الصالح من صاحبة والتابعين والأئمة الأربعة وغيرهم"⁷، ويضيف القاضي محتجاً بأراء الأئمة والعلماء في مسألة البناء على القبور "لو قاضيئ الأئمة، واستهديت هادة الأمة، الذين ولجوا من الشريعة لججها...، لأخبروك أن محل الزجر ومطلع ذلك الفجر، في البناء في مقابر المسلمين المهداة لدفن عامتهم، لا على التعيين لما فيه من التحجير على بقية المستحقين، ونيش عظام السابقين"⁸، وأن فيما يُبنى على القبور من قباب ومساجد ومقامات

¹ الترجمانة الكبرى: ص 396.

² ينظر: المصدر السابق: ص 397-402.

³ المصدر نفسه: ص 397.

⁴ المصدر نفسه: ص 398.

⁵ ينظر: المصدر نفسه: ص 398-399.

⁶ المصدر نفسه: ص 398-399.

⁷ المصدر نفسه: ص 395.

⁸ المصدر نفسه: ص 401.

في أماكن خاصة، لا حرج فيها، ثم يطرح تساؤلاً فقهياً، وهو "هل يجوز بعد الوقوع هدم ما بنى على الوجه الممنوع؟ وهل هذا التخريب محظور أو مشروع؟"¹، ويستدرك عليه أن العلماء في هذه المسألة على خلاف "وأنه من معالم الأنظار"²، وهم في ذلك على فريقين: فريق "يقول بإبقائه على حاله، رعيًا في إتلاف ماله، وأن له شبهة في الجملة تحميه"³، وفريق آخر "شدد النكير، وأبى إلا الهدم والتغيير"⁴، ويختم رسالته مستكراً "ككيف تقدم هذا الإقدام، وتخوض مزلق الإقدام، وتطلق العنان وتحمل السنان؟"⁵، والزّياني قد كشف عن موقفه من هذه الدعوة مسبقاً، وأكدّه فيما عَقَّب على رسالة قاضي تونس، "نقول في جوابه إنما الأعمال بالخواتيم قال تعالى: (إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً)، (وأن الله يمهل الظالم حتى يأخذه، فإذا أخذه لم يفلته)"⁶، وعلى إثر انهزام حملة الدولة السعودية الأولى ضد العثمانيين يقول الزّياني: "فانظر يا ممروق إلى عاقبة أمرك، وقطع أصلك وفرعك، وطردك من البلاد شريداً، وعن حرم الله ورسوله طريداً وحيداً، وعن مسقط رأسك بعيداً، وسيوف أهل السنة لم تبق من أهل بدعتكم والذا ولا وليداً"⁷.

ويختم خبر رسالة محمد بن عبد الوهاب بعقد مقارنة بين جواب قاضي تونس مادحاً، وجواب حمدون بن الحاج الذي لم يرد نصّه مستكراً، "فانظر...، ما بين هذا الجواب، وبين جواب المادح للكاذب، الحائد عن نهج الصواب، كما بين السماء والثرى، وما بين رومة والحري، وما بين الحلال والحرام، وما بين أهل الفضل واللائم"⁸.

أورد الزّياني في الترجمانة الكبرى ثلاث رسائل من تلك التي كتبها سلاطين المغرب، الأولى كتبها السلطان محمد الثالث، ينصح فيها ابنه وخليفته الأمير علي، بعدما بلغه اهتمام ابنه وانشغاله بكتب الأدب والتاريخ، وفيها يقول: "إن كتب التاريخ والأدب هي آخر ما يُقرأ، فإن انشغلت بها، أتلفت دينك، وقراءاتك، ووقع لك ما وقع لي، فقد شغلت نفسي بها أيام الشباب وتركت القرآن والتفسير والحديث حتى حصلت الندامة، فإياك

¹ الترجمانة الكبرى: ص402.

² المصدر السابق: ص402.

³ المصدر نفسه: ص402.

⁴ المصدر نفسه: ص402.

⁵ المصدر نفسه: ص402.

⁶ المصدر نفسه: ص402.

⁷ المصدر نفسه: ص402.

⁸ المصدر نفسه: ص402.

ثم إِيَّاكَ أَنْ تعمل عملي"¹، وأما الرسالة الثانية، فلم يورد الزياني إلا جملة من فصولها، وكان قد بعث بها السلطان سليمان إلى الزياني عندما كان مقيمًا في الجزائر، إثر خروجه من المغرب في رحلته الثالثة، يطلب فيها من الزياني العودة إلى المغرب: "كيف بك سمحت في بلدك، وأهلك، وولدك، وإني أعلم أنك فررت من الخدمة السلطانية، وأعرف ذلك من قديم، فأني عاهدت الله ورسوله لا أكلفك بخدمة، ولا كتابة، ولا أقدك عملاً، فأنتك بمنزلة والدنا...، ولك أمان الله، ورسوله الذي جئت من حرمه، والسلام"²، أما الثالثة فكتبها السلطان سليمان بعد بلوغه خبر كتاب (الترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب)، و(البستان الطريف في دولة أولاد مولاي الشريف)، فكتب مادحًا "محبنا وكاتب والدنا الفقيه الأديب، اللوذعي الأريب، السيد أبو القاسم متع الله بك ومتعك، فلقد أحسنت فيما جمعت، وأوجرت فيما ألفت"³.

وفي الجدول أدناه الرسائل التي تداخلت في بناء الترجمة مرتبةً على حسب ورودها في نص الترجمة، مع بيان موضوعها والمرسل والمرسل إليه.

الرسالة	المرسل	المرسل إليه	موضوعها	الصفحة
نصيحة السلطان لابنه وخليفته بمدينة فاس	السلطان محمد الثالث	ابنه علي بن محمد الثالث	يستصح ابنه لاهتمامه بكتب التاريخ والأدب	64
مطالب فقهاء العرب لآل عثمان 1151هـ/ 1738م	مجموعة من فقهاء العرب	وزير وشيخ الإسلام بالدولة العثمانية	يعترضون على تزايد أعداد العجم في المناصب الدينية والدنيوية بعد ما ملكوا المناصب السلطانية	361
جواب قضاة وأعيان العلماء بالدولة العثمانية	وزير وشيخ الإسلام بالدولة العثمانية	مجموعة من فقهاء العرب	جواب على اعتراض فقهاء العرب	361-362

¹ الترجمة الكبرى: ص 64.

² المصدر السابق: ص 380.

³ المصدر نفسه: ص 547.

				برعاية شيخ الإسلام
379-375	يعدد فيها الزياني فضائل السلطان حسن باشا	حسن باشا	أبو القاسم الزياني	رسالة مدح
380	يطلب منه العودة للوطن، والأهل، والولد، إثر خروجه من المغرب في لرحلته الثالثة	أبو القاسم الزياني	السلطان سليمان بن محمد	رسالة من السلطان
394-396	الدعوة إلى ترك التبرك والتوسل بالأضرحة والقبور والمزارات، وتكفير من يقوم بهذه الممارسات لأنها شرك بالله	علماء تونس والمغرب	محمد بن عبد الوهاب	رسالة دينية (دعوة)
397-402	يرد على دعوة وحجج محمد بن عبد الوهاب، وأنّ التبرك والتوسل بال مخلوق مشروع وليس بمحظور وممنوع	محمد بن عبد الوهاب	قاضي تونس أبو حفص عمر بن قاسم المحجوب	جواب قاضي تونس على دعوة محمد بن عبد الوهاب
545-546	يطلب النصح والتوجيه والملاحظات على تأليفه الترجمان المعرب والبستان الطريف ويوضح منهجه فيهما ومصادره.	سليمان الحوات	أبو القاسم الزياني	رسالة إخوانية
547	يمدح مؤلفات الزياني	أبو القاسم الزياني	سليمان الحوات	رسالة إخوانية
547	يمدح تأليفات الزياني	أبو القاسم الزياني	السلطان سليمان بن محمد	رسالة من السلطان
549-550	يتعذر الزياني من تضمين مؤلفه بشعره الذي يعد ركيكاً مقارنة بما يكتبه أهل الشعر بعدما اطلع عليه حمدون بن الحاج	حمدون بن الحاج	أبو القاسم الزياني	رسالة إخوانية
551-552	يمدح تأليف الزياني	أبو القاسم الزياني	حمدون بن الحاج	رسالة إخوانية
552	يمدح الزياني منظومة لابن الحاج ويضمنها بعض النقد الأدبي	حمدون بن الحاج	أبو القاسم الزياني	رسالة إخوانية

رسالة إخوانية	محمد بن عامر المعداني التادلي	أبو القاسم الزياتي	يمتدح تأليف الزياتي	553
رسالة إخوانية	محمد بن هنو اليازغي	أبو القاسم الزياتي	يمتدح تأليف الزياتي	554
رسالة إخوانية	أبو بكر بن إدريس المنجرة	أبو القاسم الزياتي	يمتدح تأليف الزياتي	556-555
رسالة إخوانية	أحمد زروق	أبو القاسم الزياتي	يمتدح تأليف الزياتي	557-556
رسالة إخوانية	عبد الودود الأندلسي	أبو القاسم الزياتي	يمتدح تأليف الزياتي	559-557
رسالة إخوانية	أحمد بن أبي نافع	أبو القاسم الزياتي	يمتدح تأليف الزياتي	561-559
رسالة إخوانية	العربي بن محمد الدمناتي	أبو القاسم الزياتي	يمتدح تأليف الزياتي	563-561
رسالة إخوانية	عبد الواحد بن أحمد بن التاودي بن سودة	أبو القاسم الزياتي	يمتدح الزياتي بقصيدة	563
رسالة إخوانية	العباس بن أحمد بن التاودي بن سودة	أبو القاسم الزياتي	يمتدح تأليف الزياتي	564
رسالة إخوانية	إدريس بن عبد الله الودغيري	أبو القاسم الزياتي	يمتدح الزياتي بقصيدة	565-564
رسالة إخوانية	العربي بن الهاشمي الزهرهوني العزوزي	أبو القاسم الزياتي	يمتدح الزياتي بقصيدة	565
رسالة إخوانية	محمد بن الصادق	أبو القاسم الزياتي	يطلب نسخ الترجمان المعرب	566-565
رسالة إخوانية	محمد بن أحمد بناني	أبو القاسم الزياتي	يعاتب الزياتي على عدم توجيه الترجمان المعرب إليه، بعدما بلغه أن رفيقه حمدون بن الحاج قد اطلع عليه	567-566
رسالة إخوانية	محمد بن منصور الشفشاوني	أبو القاسم الزياتي	يعاتب الزياتي على عدم توجيه الكتاب إليه، إذ رآه عند الفقيه حمدون بن الحاج	567
رسالة إخوانية	محمد بن الصادق	أبو القاسم الزياتي	يطلب استنساخ البستان الطريف بعد الانتهاء من نسخ الترجمان المعرب	569-
رسالة إخوانية	أحمد بن شقور	أبو القاسم الزياتي	يمتدح تأليف الزياتي	577-575

ح. الخطبة

يرى بعض الدارسين أنّ الخطابة من أقدم الفنون الأدبية، فالناس يحتاجون إلى الخطيب في عديد المناسبات الاجتماعية، والسياسية، والدينية، التي تدعو الخطيب إلى مناشدة العزائم، والعقول، والعواطف، في محاولة لاستثارة الجموع، ودفعهم نحو الهدف والغاية المنشودة من الخطبة. ويمكن تعريفها بأنها "الكلام المنثور، أو المسجوع، أو المزدوج، أو المرسل الذي يقصد به التأثير والإقناع"¹.

ومكونات الخطبة، أو ما يُسمى بالعناصر الاتصالية² هي: المرسل، والمرسل إليه، والرسالة أيّ الخطبة، والقناة وهي القناة السمعية، ثم البصرية على اعتبار "الأصل في تذوق الخطبة أن تُسمع لحظة إلقائها، لا تُقرأ، برغم إمكانية ذلك في عصر الثقافة الكتابية"³، والشفرة المتمثلة باللغة المكوّنة لنصّ الخطبة، وأخيرًا المرجعية التي تُكشف عبر السياقات المكونة للخطبة⁴.

وثق الزيّاني في الترجمانة، خطبة السلطان سليمان التي تعدّ من أهم الخطب في تاريخ المغرب، وسياقها التاريخي يعود لظهور طوائف انحرفت عن تعاليم الدين الإسلامي بالمغرب، منها الطائفة التيجينية، التي ظهرت على يد أحمد بن تجين، الذي عُرف بتلمسان أنّه رجل متعلق "بأهل البطالة الذين يدبرون الفضة ويدلسونها، ويبحثون بزعمهم عن صنعة الإكسير"⁵، فلما علم به الباي محمد بن عثمان "ضربه وسجنه ونفاه عن تلمسان"⁶، فتقلب في البلاد طريدًا، إلى "أن بلغ قرية أبي سمغون"⁷، وفيها تمثل بالصلاح والزهد، غير أنّ أخباره بلغت إلى باي وهران، "فكتب لأهل قرية بوصمغون بالوعيد أن يطردوهم من بلادهم، فلما بلغه ذلك خاف على نفسه، ففر للمغرب"⁸، ونزل بمدينة فاس، ومعه جماعته من عياله وتلاميذه، فكتب للسلطان، "وزعم أنه من أهل المعقول والمنقول"⁹، فاجتمع به وأرى فيه من الزهد والنقشف، فظن فيه الصلاح والخير كما وصف له

¹ نووي، الحاج عين الحق: مدخل في علم الخطابة، مكتبة رادجا، جيمبر، إندونيسيا، فبراير 2017، ص9.

² ينظر: النّجار، محمّد رجب: النثر العربي القديم، من الشفاهية إلى الكتابية، فنونه، مدارسه، أعلامه، ص67.

³ المرجع السابق: ص67.

⁴ ينظر: المرجع نفسه: ص67-68.

⁵ الترجمانة الكبرى: ص460.

⁶ المصدر السابق: ص460.

⁷ المصدر نفسه: ص460.

⁸ المصدر نفسه: ص461.

⁹ المصدر نفسه: ص461.

الرسول، فلما استقر به الحال، واجتمع حوله من تأثر بخطاباته، اغتر إلى أن صار يقول: " أن طريقته أفضل الطرق كلها على الإطلاق...، وأن تلاميذه تلاميذ رسول الله صلى الله عليه وسلم"¹، فهو يرى الرسول يقظة لا منامًا، بل وصل به الحال أن يقول على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم: "يا أحمد اعلم أن كل من يبغضك أو يشتمك أو ينسب لك ما يسوءك، فإنه لا يموت على ملة الإسلام"². فصار يدعو إلى طريقته، التي يسميها الطريقة المحمدية "وكل طرق المشايخ تدخل عليها طريقتي وتبطلها، ولا يخاف من ترك طريقة غيري لطريقتي في الدنيا ولا آخرة، ومن تعمد وأدخل طريقة أخرى على طريقتي حل به الهلاك في الدنيا والآخرة"³.

ويصف الزيناني الممارسات التي ظهرت بالمغرب، فهناك "بضريح مولانا إدريس، يجتمع فيه النفيس والخسيس، ومن ينضاف لهم من الرعاع، لحضور السماع الخارج عن السنن الشرعي، والمهيع المرعي، بالرقص والتصفيق، وآلة الطرب"⁴. ونتيجة لهذه الممارسات صارت الزوايا والأضرحة "مأوى لأهل الجرائم وأصحاب الجنایات وسفك الدماء"⁵، فالأضرحة عرفت منذ عهد أن من يدخلها فهو في مأمن فلا يتمكن منه أحد بمن فيهم السلطان، خاصة لما "يتعصب عليهم أهل الزوايا"⁶.

ولما ظهر عدد من المبتدعين بالمغرب غير أحمد بن تجين، ووصل خبرهم إلى السلطان سليمان بن محمد، "فكتب خطبة من إنشائه وبلاغته لخطباء المساجد يخطبون بها في الجمع"⁷. يحذر فيها من ممارسات أهل البدع، وبدأ خطبته بما هو متعارف عليه في الخطب الدينية على عهد الإسلام، من حمد الله وتمجيده "الحمد لله الذي تعبدناه بالسمع والطاعة"⁸، "أحمده حمداً ينتج اعتماد العبد على ربه وانقطاعه، وأشكره شكرًا يقصر عنه لسان البراعة، واستمد معونته بلسان المذلة والضراعة"⁹، "وأصلي على مولانا محمد رسوله المخصوص بمقام الشفاعة، على العموم والإشاعة، والرضى عن آله وصحبه الذين اقتدوا بهديه بحسب

¹ الترجمانة الكبرى: ص462.

² المصدر السابق: ص462.

³ المصدر نفسه: ص462.

⁴ المصدر نفسه: ص463.

⁵ المصدر نفسه: ص465.

⁶ المصدر نفسه: ص465.

⁷ المصدر نفسه: ص466.

⁸ المصدر نفسه: ص466.

⁹ المصدر نفسه: ص466.

الاستطاعة"¹، ومقدمة الخطبة، المفتاح الذي يهيئ الأذهان، يتميز في خطبة السلطان سليمان أنه لا يكشف فقط عن قيمتها في من هو صاحبها عندما يعلن الخطيب أنها خطبة سلطان المغرب، بل إنّ براعة الاستهلال تظهر جلية من خلال ابتدائه بضرورة انصياح المسلم لأوامر الله تعالى، وسنة رسوله، ومن العبارات التي تؤكد على هذا المعنى قوله: "تعبدناه بالسمع والطاعة، وأمرنا بالمحافظة على السنة والجماعة، وحفظ ملة نبيه الكريم، من الإضاعة إلى قيام الساعة، وجعل التأسّي به أنفع الوسائل النافعة"²، ومن أبلغ العبارات التي جاءت في مقدمة الخطبة قوله: "أحمدته حمداً ينتج اعتماد العبد على ربه وانقطاعه، وأشكره شكرًا يقصر عنه لسان البراعة، واستمد معونته بلسان المذلة والضراعة"³، فهاتان العبارتان تخاطبان الجانب العاطفي من المسلم، وتؤكدان على موضوع الخطبة، أي أنّ الانصياح لا يكون إلا لله، فحلاوة الإيمان لا تذاق إلا بهذا النوع من التذلل، ذلك أنّ الهالة الثقافية التي تحيط بالزوايا والأضرحة، تربط دائماً بين الإيمان والانصياح والخضوع لشيخ هذه الزوايا وأسماء الأضرحة، غير أنّ الانصياح الحقيقي يجب يكون لله، فتمجيده وتعظيمه لن يقود إلا للصالح الحقيقي الذي يخالف ما أتى به بعض من أفسد في دين الإسلام بحجة أنه من أولياء الله.

جسم الخطبة، يبدأ بعد عبارة (أما بعد)، وفيه يوجه الخطيب كلامه مباشرة للرعية "أيها الناس شرح الله لقبول النصيحة صدوركم، وأصلح بعنايته أموركم، واستعمل فيما يرضيه أمركم ومأمورك"⁴، وفي تقديمه لأمركم على مأمورك، بعد قوله: استعمل فيما يرضيه - أي الله - التفاتة إلى أهمية مخاطبة عواطف الرعية، فإنّ الانصياح لله وأوامره يبدأ بالسلطان نفسه الذي هو القائم بأمر رعيته، وفي هذا تهيئة لما سيأتي من قرارات سيتخذها السلطان في معالجة ما انتشر من ممارسات خاطئة في الأضرحة والزوايا.

والخطبة الدينية غالباً ما توشّح بالأدلة النقلية، والشواهد القرآنية، فالقرآن كلام الله، المحفوظ عن التحريف والتزييف، مما يجعله أشدّ تأثيراً في أنفس المستمعين، ومن هذه الشواهد التي ساقها السلطان تأكيداً على اتباع أوامر الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، قوله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم"⁵، وبالعودة إلى نصّ خطبة السلطان سليمان في غير مصدر، يُلاحظ أنّ الشواهد القرآنية وردت

¹ الترجمانة الكبرى: ص 466.

² المصدر السابق: ص 466.

³ المصدر نفسه: ص 466.

⁴ المصدر نفسه: ص 467.

⁵ المصدر نفسه: ص 467.

بغير اختصار كما هو في نص الخطبة في (الترجمانة الكبرى)، ومثال ذلك استشهاده بآية "الذين إن مكنّاهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهّوا عن المنكر"¹، أما نسخة الترجمانة " (الذين إن مكنّاهم في الأرض أقاموا الصلاة) الآية"²، والتنبيه على هذا الاختلاف، يأتي من باب ضبط دلالة الاستدلال بالشواهد القرآنية. فإنّ الشواهد القرآنية الكثيرة كما وردت في النسخة الأصلية من الخطبة تؤكد على اتخاذ القرآن الكريم المصدر الأول لجميع الأدلة المنقولة التي أوردها السلطان في خطبته، ولما في قلوب المستمعين عمومًا من تعظيم لكتاب الله عزّ وجل.

ومن الأدلة النقلية استدلاله بالأحاديث النبوية، ومن ذلك حديث رواه العرياض بن سارية " قال: وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة ذرفت لها العيون، ووجلّت منها القلوب، فقام إليه رجل فقال: يا رسول الله كأن هذه موعظة مودع، فما تعهد إلينا، فقال: أوصنا، قال: أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة لمن وليكم وأن كان عبدًا حبشيًّا فإنه من يعيش من بعدي فسيروا اختلافًا كثيرًا فعليكم بسنتي"³. وهذا الاستشهاد يؤكد على واقع الحال الذي عاشه المغرب آنذاك من التقرب "لله بغناء وشطح"⁴، و "الرايات، والاجتماع للبيات، وحضور النساء والأحداث...، والتصفيق والرقص، وغير ذلك من أوصاف الرذائل والنقص"⁵

وتتزين الخطبة الدينية بالأدلة الخطابية التي تهدف إلى إثارة الانفعالات لدى المستمعين، ومنها قوله: "فأنشدكم الله عباد الله هل فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم لحمزة عمه سيد الشهداء موسمًا؟ وهل فعل سيد هذه الأمة أبو بكر لسيد الإرسال صلوات الله عليه وعلى جميع الصحابة والآل موسمًا؟"⁶، وأيضًا قوله: "ولأنّ سوء الأدب مع الله يفتح الشدائد، ويسدّ طريق الفوائد، والأدب مع الله ثلاثة:

(1) حفظ الحرمة بالاستسلام والاتباع.

(2) رعاية السنة من غير اختلال ولا ابتداع.

¹ العلوي، السلطان سليمان: خطبة السلطان المقدس مولانا سليمان العلوي رحمه الله في الانتصار للسنة ومحاربة بدع الطوائف الضالة، تقديم: د. محمد تقي الدين الحسيني الهاللي، الرباط، مكتبة ومطبعة الساحل، ص 10.

² الترجمانة الكبرى: ص 467.

³ المصدر السابق: ص 469.

⁴ المصدر نفسه: ص 468.

⁵ المصدر نفسه: ص 469.

⁶ المصدر نفسه: ص 467.

(3) مراعاتها في الضيق والاتساع، لا ما يفعله اليوم هؤلاء الفقراء، فكل ذلك كذب على الله وافتراء، (قل إن كنتم تحبون الله: الآية)¹.

ويختم السلطان سليمان الخطبة ملخصاً جوهر دعواه لاتباع أوامر الله تعالى، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ببيان عاقبة المخالفين والمبتدعين "وها نحن عباد الله أرشدناكم وحذرناكم وأنذرناكم، فمن ذهب بعد لهذه المواسم، أو أحدث بدعة في شريعة نبيه أبي القاسم، فقد سعى في هلاك نفسه، وجر الوبال عليه وعلى أبناء جنسه، وتله الشيطان للجبين، وخسر الدنيا والآخرة....، انتهى"².

ثم يورد الزيّاني نصّ خطبة ثانية من "إنشاء القاضي عياض رحمه الله، جلبها أبو عبد الله بن الخطيب في (الإحاطة)"³، وموضوعها في دعوة المسلم للالتفات للآخرة، وعدم الانشغال بالدنيا، "أيها السامع قد أيقظك صدى القدر من سنة الهوى وسكراته، وأوعظك كتاب الله بزواجه، وعظاته، فتأمل حدوده، وتدبر محكم آياته (واتل ما أوحى إليك من كتاب ربك، لا مبدل لكلماته، ولن تجد من دونه ملتحدا)... الخ"⁴، وإيراد الزيّاني لهذه الخطبة، لم يكن لشيء سوى المقارنة وإبراز قيمة خطبة السلطان سليمان في ما يسميه "بالخطب المقتبسة من كتاب الله"⁵.

خ. الشعر

إنّ حضور الشعر في بناء الترجمانة الكبرى يُعدّ حضوراً ثقافياً ضرورياً، فإنّ أهميته لا تعود فقط لتاريخ الشعر في الحضارة العربية عموماً، بلّ لأن الوسط الثقافي الذي تربى فيه الزيّاني عدّ الشعر من أهم الآداب التي تزيد المرء بلاغة في لغته، مع التنبيه سلفاً على أن أشعاره التي دَوَّنَها هي في الغالب ذات مستوى متواضع من الناحية الفنية، وقد شابها غير قليل من الركاكة والخلل، وربما لعب التصحيف دوراً في ذلك أيضاً. وهي في المجمل تنتمي إلى أواخر العصر العثماني الذي انحدر فيه الشعر في مختلف أرجاء الوطن العربي، شكلاً

¹ الترجمانة الكبرى: ص 469.

² المصدر السابق: ص 469-470.

³ المصدر نفسه: ص 470.

⁴ المصدر نفسه: ص 470.

⁵ المصدر نفسه: ص 471.

ومضمونًا. ولمّا كان الشّعر من الاستشهادات الّتي يذهب لها الناس في حواراتهم، كان ذلك ما ذهب إليه السلطان محمّد الثالث في وعظ ابنه، حين أنشده بيتًا للشيخ رضوان الجنوي:

قد رشّحوك لأمرٍ لو فطنت له فأربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل¹

انشغل الزيّاني بالاستشهاد بالشعر في عدد من السيّاقات منها ما ارتبط بالمواضيع الدينية، ومثال ذلك ما أورده عن موضوع الحسد لما اجتمع مع محمد بن عثمان في بيت كمال الدين باشا، بعدما أحس منه الحسد على ما بلغه من تلخيص كتاب كمال الدين باشا، وما ناله من ثناء واستحسان، ومن جملة ما أنشده ما قاله الكميّ:

إن يحسدوني فإنني غير لائمهم قبلي من الناس أهل الفضل قد حُسدوا
فدَامَ لي ولهم ما بي وما بهم ومات أكثرنا غيظًا بما يجدوا
أنا الذي يجدوني في صدورهم لا أرتقي صدرًا منها ولا أرد²

ومن المواضيع الّتي تناولها أيضًا حوادث الدهر، وقد أنشده الفقيه أبو القاسم المحتالي أبياتًا يقول فيها:

يا ليت شعري هل الأقدار تُلحِقُني بالسابقين وهل تشتدُّ رغباءُ
وهل أنادم سعد الدين مُرتقياً مَراقِي السعدِ أو هم أجلاءُ
مولاي فَضلكُ مَبذولٌ بلا سببٍ كُن لي فذلك لي عزٌّ وإغناءُ
وما أبالي إذا ما كُنت يا أملي لي النصيرَ ومن في الكونِ أعداءُ³

ولما وقعت به النكبة السادسة، بعزل السلطان سليمان له من الخدمة المخزنية، قال: ويكفي في مدح الصبر آية سورة السجدة، ومن أحسن ما قيل في الصبر قول بعضهم:

¹ الترجمانة الكبرى: ص 64.

² المصدر السابق: ص 108.

³ المصدر نفسه: ص 154.

صَبْرْتُ عَلَى الْأَقْدَارِ صَبْرًا أَصَابَنِي إِلَى أَنْ يَنَادِيَ الصَّبْرُ لَا صَبْرَ لِلصَّبْرِ¹
وفي هذا السياق يذكّر الزّيّاني قصيدتين، الأولى لأثير الدين المغربي جمع فيها بين الحكم الدنيوية والدينية يقول فيها:

دَعُ عَنْكَ مَا كَانَ فِي زَمَنِ الصَّبَا وَادْكُرْ ذُنُوبَكَ وَابْكُهَا يَا مَذْنَب
وَادْكُرْ مَنَاقِشَةَ الْحِسَابِ فَإِنَّهُ لَا بُدَّ يُحْصَى مَا جَنَيْتَ وَيُكْتَبُ²
والقصيدة الثانية لأبي الفتح البستي التي مطلعها:

زِيَادَةُ الْمَرْءِ فِي دُنْيَاهُ نُقْصَانُ وَرِبْحُهُ غَيْرُ مُحْضٍ الْخَيْرِ خَسْرَانُ
وَكُلَّ وَجْدَانٍ حَظٌّ لَا ثَبَاتَ لَهُ فَإِنْ مَعْنَاهُ فِي التَّحْقِيقِ فَقْدَانُ
يَا عَامرًا لَخَرَابِ الدَّهْرِ مُجْتَهِدًا بِاللَّهِ هَلْ لَخَرَابِ الدَّهْرِ عِمْرَانُ³

وأخذت المدن نصيبها من الشعر، فقد أورد الزّيّاني ما اشتهر من الشعر عن المدن التي نزل بها في رحلاته، فقال بعضهم في مدينة طرابلس بتونس:

إِنْ طَرَابِلُسُ لَهَا بِهِجَةٌ كَجَنَةِ الْفَرْدُوسِ أَوْ عَدْنِ
الْبَحْرِ يَأْتِيهَا بِمَا فِيهَا وَالْبَرِّ بِالْغُلْمَانِ وَالْمَعْدِنِ⁴

وفي مدينة دمشق قال شرف الدين أبي عنيق :

دَمَشْقُ بِنَا شَوْقٍ إِلَيْكَ مُبْرَح وَإِنْ لَجَّ وَاشَّ أَوْ أَلَحَّ عَدُولُ
بِلَادِهَا الْحَصْبَاءُ دُرٌّ وَتَرْبَاهَا عَبِيرٌ وَأَنْفَاسُ الشَّمَالِ شَمُولُ

¹ الترجمانة الكبرى: ص382.

² المصدر السابق: ص384.

³ المصدر نفسه: ص403.

⁴ المصدر نفسه: ص163.

تسلسل منها ماؤها وهو مطلق وصح نسيم الروض وهو عليل¹

وجاء أنّ مدينة حلب بناها العمالقة، وسميت بحلب، لما نزلها سيدنا إبراهيم عليه السلام فكان له غم يحلبها ف قيل: "حلب إبراهيم، فسميت بذلك وفيها قال الخالدي:

وخرقاء قد تاهت على من يرومها بمرقبها العالي وجانبها الصعب

يجر عليها الجو سحب غمامه ويؤليسها عقد بأنجمها الشهب

إذا ما سرى بدر بدت من خلاله كما لاحت العذراء من خلل الحجب²

اهتم الزيّاني بالمواعظ، وكان الشعر من الأدوات التي يستخدمها المؤلف في وعظ نفسه، وغيره، ومنه ما تذكره بينه وبين نفسه، لما أعجب بمظهر رجل في تلمسان، فاعتقد فيه النبوغ والصدارة في الدين والعلوم، فلما عرف من أمره، تدارك على نفسه، وعاتبها بما ذكره من "قصيدة أبي سعيد عثمان التي منها:

فما ينفع الفتیان حُسْنُ وُجُوهِهِمْ إذا كانتِ الأفعالُ غيرَ حِسانِ

فلا تجعلِ الحُسْنَ الدليلَ على الفتى فما كُلّ مصقولِ الحديدِ يمانِ³

وقال الزيّاني نفسه في هذا الرجل المغتر بجماله أبياتاً مطلعها:

يا من تكبر فوق ما يناسبه وظن أنْ خَدَمَتْهُ الشمسُ والقمرُ

وتاه عجباً وظن ببشاشته وازور من قسوة تخاله الحجرُ

أنْ غرّك المنصبُ المُخْصِبُ روضته وبحسن بهجته علينا تقتخرُ⁴

¹ الترجمانة الكبرى: ص181.

² المصدر السابق: ص183.

³ المصدر نفسه: ص142.

⁴ المصدر نفسه: ص143.

اتخذ الزيّاني طريق العزلة، بعدما تعرض لعدد من النكبات في حياته السياسية والعملية، أفقدته الثقة بالآخرين، فلما بلغ به هذا الحال، كتب عن مراقبة الناس، فوجد أنّ فيها ضلالتين، الأولى تظهر في استشهاده بحكاية لقمان مع ابنه¹، ذلك أنّ رضى الناس غاية لا تدرك، ومن الشواهد الشعرية التي أوردها:

الناس داءٌ دفينٌ لا دواءَ لهم تحير العقل فيهم وهو منذهل
إن كنت منبسّطاً سمّوك مسخرة أو كنت منقبضاً قالوا به ثقل
وإن تحبهم قالوا به طمع وإن تجنبهم قالوا به ملل²

والثانية أنّها تورث النفاق، فالقلب القلق بسبب تتبع أخبار الناس ومراقبتهم، يحق عليه قول الشاعر:

من راقب الناس لم يظفر بحاجته وفاز بالطيبات الفاتك اللهج³

والحل في نظر الزيّاني يكون بالعزلة، وقبول الوحدة، فأنشد أبياتاً يردّ فيها على من أنكروا عليه ما آل إليه أمره:

أنستُ بوحدي ولزمتُ بيتي فدام الأُنسُ لي ونما السرور
وأدبني الزمانُ فما أبالي هجرتُ فلا أزار ولا أزور⁴

كما اشتهر شعر المراسلات، بين أوساط العلماء والمتقنين، فكانوا يتبادلون الأبيات والقصائد، ومنه ما أرسله الشيخ إسماعيل العباسي إلى أبي القاسم الزيّاني مع (تاريخ الخطط) للمقريزي:

أتحفتني بملوك الغرب أجمعهم فاقبل آية مضرنا بإجماع⁵

وأثناء استعداد الزيّاني لمغادرة دمشق أرسل بطاقة للشيخ الغزي، يطلب منه ترجمة الشيخ أرسلان، بعدما قد وعده الشيخ بذلك، فأجابه الشيخ الغزي بأبيات قال فيها:

يا واحد الفضل وفرد النهى وأكمل الناس مقامًا وحوال

¹ ينظر: الترجمانة الكبرى: ص 410.

² المصدر السابق: ص 410.

³ المصدر نفسه: ص 410.

⁴ المصدر نفسه: ص 411.

⁵ المصدر نفسه: ص 195.

شيدت في التاريخ مرتبة قد قصرت عنها فحول الرجال¹
فأجابه المؤلف هو أيضًا بأبيات:

وأنتم أهل لكل الذي ذكرتُم دون بقاء احتمال
وحزنتُم علمًا ومكرمة لله أنت يا فصيح المقال²

وقد تعددت المواضيع التي نظم فيها الزياني الشعر، وأن كان يتصف شعره بالضعف الذي يعترف به في غير موضع، منها قوله: "وأنشدت...، على أي لست من أهل هذا الفن"³، ومن نظمه عن السفر في البحر:

لو كل من ركب البحر اغتنى ونجا لم يبق في البر للإنسان من سفر
أو كل راكبه أصابه غرق فلا ترى طول الدهر من خبر⁴
وفي طريق الحج يقول:

في بركة الحج ترى نخلًا زها لكن عجب
زبرجدًا يحكي وما تخالاه إلا ذهب⁵

وقد استمر الزياني في نظم الأبيات كلما نزل بمنزلة من منازل رحلته إلى البيت الحرام⁶. ويروي أنه لما نزل بقلعة تيكلي، وحاول التواصل مع صاحب المرسى رجب بن عياد، فلم يجبه، كتب قصيدة في الكرنتينة - أي الجمرك - يقول فيها:

من كان يسعى لخلق الله في الضرر ويظهر الخير والإحسان بالكذب
ومن يكن يفعل السوء عادته يُعامل الناس كابن عياد رجب

¹ الترجمانة الكبرى: ص278.

² المصدر السابق: ص278.

³ المصدر نفسه: ص364.

⁴ المصدر نفسه: ص216.

⁵ المصدر نفسه: ص217.

⁶ ينظر: المصدر نفسه: ص216-230.

ذاك الذي قد طغى واخترع البدعا بَشْرُهُ بِأَلْهَمِ وَالْإِدْبَارِ وَالْكَرْبِ¹

والعلاقة التي جمعتُ الزَيَّاني، بسلاطين المغرب، من خلال عمله في الخدمة المخزنية، جعلتُ لهم
حيزاً من نظم الزَيَّاني، ومن ذلك المنظومة التي كتبها في نسب العائلة العلوية، والتي مطلعها:

الشمس من مشرق تسعى لمغربنا والبدر يتبعها بالغرب يكتمل
وأهل بيت رسول الله منشأهم بطيبة فأتوا للغرب في حلل²
وأعقبها بمدح نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم:

تبارك من أبدى جمال محمد بغرة عبد الله في كل مشهد
وكان له في شيبة الحمد بهجة به في الدياجي شيبة الحمد يهتد
على هاشم لاحت طوالع نوره وعبد مناف ومع قصي المجد³
ومما جاء في شعر الرثاء ما أورده الزَيَّاني من رثاء آمنة بنت وهبة لزوجها عبد الله بن عبد المطلب:

عفا جانب البطحاء من آل هاشم وجاور لحدا خارجا في المغانم
دعته المنايا دعوة فأجابها وما نزلت في الناس مثل ابن هاشم⁴

¹ الترجمانة الكبرى: ص364.

² المصدر السابق: ص419.

³ المصدر نفسه: ص422.

⁴ المصدر نفسه: ص430.

المبحث الثاني: المعارف والعلوم في الترجمانة الكبرى

لا ينحصر التداخل في الترجمانة الكبرى، على الأجناس والأنواع الأدبية، بل يمتد ذلك ليطال المعارف والعلوم، كالجغرافيا، والتاريخ، والأنساب، والفقه، والعقيدة، والتصوف، والنقد، لذا وجب تسليط الضوء على الفكر الموسوعي لأبي القاسم الزياتي، "بوصفه مؤلفاً عالمياً تقيّد بعلوم عصره، متأثراً بالمناخ الثقافي في العصر العلوي"¹. والعالم في عصر الزياتي، لم يتعدّ ما سار عليه العلماء في الثقافة الإسلامية، فالعالم عادة يُطلق على من يحيط "بجميع فنون العلم، بقدر الطاقة البشرية، وقد يكون له بعضها كالفقه، والنحو، والكلام مثلاً...، فيقال متكلم وفقهه، ونحوي، وجرى اصطلاح المتأخرين فيمن جمع الفنون المختلفة، أن يقال علّامة، مبالغة في الوصف"².

أ. الجغرافيا

بنية الجغرافيا في الترجمانة تقوم على المزوجة بين المشاهدة والمعاينة كمصدر مصاحب للرحلة، وبين النقل والأخذ من كتب الجغرافيا، والتاريخ، والرحلات. وأول مظاهر حضور الجغرافيا في الترجمانة، ما أورده الزياتي في قوله: " فلا بدّ من تقديم خبر حد مغربنا ومدنه، ومن عمره، ومن بنى به قبل دخول البربر له، وبعد دخولهم، وبعد ظهور الإسلام"³. ذلك أنّ وصف حدود المغرب يعني بالضرورة معاينة الزياتي لكثير من هذه الأراضي، غير أنّه قد اعتمد أيضاً في الوقت ذاته على النقل عن الحكماء، والمؤرخين⁴. ومن وصفه لحد المغرب " وما قابل مراكش خلف جبل درن، إقليم درعة على واديها الأعظم، عليه قصور وقرى، وحصون لا عدد لها، والنخيل والبساتين، والمزارع مسيرة خمسة مراحل"⁵، وعن أول ما بناه البربر في المغرب قال: "مدينة سلا، قيل أنّ الاسكندر لما دخل المغرب بناها، وبنى مدينة شالة مقابلة لها، وقيل أنّ الذي بناهما أفريقش بعد دخول الصعب ذي القرنين بمدة كثيرة، وهو الذي دخل المغرب بالبربر محل سلا، فقال: سلا الفرس، وأمر أن يبنى في محل نزله حصن، فبنى وعمره البربر، وسماه سلا

¹ مسعود، أيوب: تداخل الأجناس في أدب الرحلة، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2020، ص163
² اليوسي، أبي المواهب الحسن: القانون في أحكام العلم، وأحكام العالم، وأحكام المتعلم، تحقيق: حميد حماني، ط1، مطبعة شالة الرباط، 1998، ص326.
³ الترجمانة الكبرى: ص65.
⁴ ينظر: المصدر السابق: ص66.
⁵ المصدر نفسه، ص67.

الفرس"¹. فالجغرافيا عند الزياني تختلط بالتأريخ للمكان، وهو ما سلكه الجغرافيون من قبله، خاصة أولئك الذين يُسميهم شاكر خصباك بالجغرافيين البلدانيين، والتي "كانت جغرافيتهم جغرافية نفعية"²، بحيث اهتمت "بوصف المدن وصفاً دقيقاً مفصلاً قدر الإمكان مع نبذة عن تأريخها ومن بناها ومن سكنها، وأهم الآثار فيها"³.

ومن النقاط التي وقفت عليها الجغرافيا الظواهر الطبيعية، و"التركيز بصورة أخص على مجاري المياه (الأنهار، والنهيرات)، والبحار والبحيرات"⁴، وذلك مما لم يغفل عنه الزياني، بل استفاض بالحديث عن المسطحات المائية، فأفرد ثمان صفحات معنونة بقوله: "البحر المحيط الذي منه مادة البحار"⁵، وهو هنا يُسمي المحيطات بأسماء غير التي نعرف اليوم، فالمحيط الأطلسي "الذي في المغرب على ساحل بلاد الأندلس يُسمى بالمظلم"⁶. و "سُمي بذلك لكثرة أهواله وصعوبته"⁷. وكذلك المحيط الهندي يعطيه اسم "بحر الهند"⁸. والأنهار أوردها في سبع صفحات، عرض فيها لأشهر الأنهار⁹، وعددها أربعة وعشرون نهراً، ويأخذ عن بطليموس صاحب (كتاب الجغرافيا) " أن بهذا الربع المسكون مائتي نهر طوال، منها خمسون فرسخاً إلى ألف فرسخ، فمنها ما يجري من المشرق إلى المغرب، ومنها ما يجري بالعكس"¹⁰. ويحضر في هذا القسم عدداً من المصادر التي اعتمدها الزياني، وهي (المسالك والممالك)¹¹، و(تحفة الغرائب)¹²،

¹ الترجمانة الكبرى: ص78.

² خصباك، شاكر: الجغرافيا عند العرب، ص48.

³ المرجع السابق: ص48-49.

⁴ المصدر نفسه: ص49.

⁵ الترجمانة الكبرى: ص291.

⁶ المصدر السابق، ص292.

⁷ المصدر نفسه: ص295.

⁸ المصدر نفسه: ص296.

⁹ المصدر نفسه: ص309.

¹⁰ المصدر نفسه: ص309.

¹¹ ينظر: المصدر نفسه: ص310. جاء في الترجمانة: قال صاحب المسالك والممالك المشرقية، ولا ندري لأي من الكتب التي أخرجت بهذا الاسم في المشرق يُحيل.

¹² ينظر: المصدر نفسه: ص310.

وأحياناً كان يذكر اسم المؤلف مثل: قال الاصطخري¹ ، وقال القزويني². أما العيون، فعددها كان خمس عشرة عيناً، ذكرها في أربع صفحات، وقد غلب على كثيرٍ منها الأخبار العجائبية مثل وصفه لعين: "ابلانستان: عند قرية بين جرجان واسفرائن"³، و "عين شير كيران: وهي من قرى مراغة فيها عينان تفوران بماء أحدهما بارد عذب والآخر حار ملح، بينهما مقدار ذراع"⁴. والآبار أوردها في ثماني صفحات، وقد أجرى عليها ما أجراه على العيون، من التركيز على الجانب العجائبي دون الوصف. ومن التضاريس الجغرافية التي امتزجت بالأخبار العجائبية، الجبال التي بسطها في أربع عشرة صفحة، جاء فيها على ذكر أربعين جبلاً، إلا أن الوصف الجغرافي لا ينفك حضوره عن وصف مواقع الجبال من البلدان، "فجبل سرنديب، جبل عالٍ بأعلى الصين في بحر الهند"⁵، وتارة يزيد فيصف تقاسيمه "فجبل النر على ثلاثة مراحل من قزوين، وهو جبل شامخ لا تخلو قلته من الثلج صيفاً أو شتاءً"⁶، أو في ذكر ما يحويه من معادن "فجبل جوشي، غربي حلب، فيه معدن النحاس الأحمر"⁷.

وتحضر نظرية الأقاليم السبعة في الترجمانة الكبرى في غير موضع، فقد اهتم الزباني برسم حدود البلدان التي أتى على ذكرها سواء نزل فيها أو دعت الحاجة والغاية إلى تدوينها، والأقاليم السبعة نظرية جغرافية أخذها العرب من كتب الجغرافيا التي نُقلت عن اليونانية وأبرزها (كتاب مارينوس)، و(جغرافيا بطليموس)⁸، وهي تهدف إلى تقسيم "كل ما كان من الأرض معموراً، ويسمى كل قسم منها إقليمًا"⁹، وهي سبعة أقاليم¹⁰، والزباني يوضح أنه تعين توضيح محل البلدان التي وقف عليها "أين هي من هذه الأقاليم

¹ ينظر: الترجمانة الكبرى: ص310.

² ينظر: المصدر السابق: ص312.

³ ينظر: المصدر نفسه: ص316.

⁴ المصدر نفسه: ص317.

⁵ المصدر نفسه: ص329.

⁶ المصدر نفسه: ص329.

⁷ المصدر نفسه: ص330.

⁸ ينظر: المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين: التنبيه والإشراف، راجعه وصححه: عبد الله إسماعيل الصاوي، دار الصاوي، القاهرة، 1938م، ص30-31.

⁹ المصدر السابق: ص29.

¹⁰ ينظر: الترجمانة الكبرى: ص288-291.

السبعة، وفي أي جزء من الأقاليم، الأول، أو الثاني إلى تمام السابع¹، ويستدرك "لأن الأقاليم متداخلة بعضها ببعض، وتتخللها البحار...، فجعلت لها قسمة أخرى على أسماء الأراضين وحدودها، ونبتت على كل أرض أين هي من الأقاليم وجزئها من الأقاليم السبعة"². ومثال على ذلك أنه في حديثه عن الإقليم الأول، يحدد أولاً حدود الإقليم نفسه، "فهو الموالي لخط الاستواء من بحر المغرب إلى بحر الزنج والهند"³، وهو على عشرة أجزاء، أربعة أجزاء منه أراضي "الزنج والسند والهنود والصينيون"⁴، "وفي قطعة من نصف الجزء الخامس اليمن وأرضه ومدنه"⁵، وبقيّة الجزء الخامس ونصف "في البحر وجزره"⁶.

ويزيد في القسم الأخير من الترجمة أربعة وعشرين صفحة، سماها بالجامعة⁷، ذكر فيها جميع البلدان والمدن التي ذكرت على مدار الترجمة؛ "حتى لا يجهل المطالع لها بلدًا أراد من الأقاليم كلها إلا ما خرب منها وأباده الدهر، وألحق بها ما لم يكن مذكورًا عند من سبق وحدث بعده كما هو معلوم في الدول"⁸. وابتدأ الجامعة "بمدن المغرب الأقصى من وادي نون إلى وجدة التي هي حد المغرب"⁹. ورتبها على حروف المعجم "حرف الهمزة من مدن المغرب: مدينة أزمو بدكالة، ثم مدينة آسفي بدكالة، ثم مدينة أغمات وريكة، ثم مدينة أغمات نفيس بينهما مرحلة بدير مراكش، ثم مدينة أدكي بوادي نون هي باب السودان..."¹⁰.

¹ الترجمة الكبرى: ص 288.

² ينظر: المصدر السابق: ص 288.

³ المصدر نفسه: ص 288.

⁴ المصدر نفسه: ص 289.

⁵ المصدر نفسه: ص 289.

⁶ المصدر نفسه: ص 289.

⁷ ينظر: المصدر نفسه: ص 475-498.

⁸ المصدر نفسه: ص 475.

⁹ المصدر نفسه: ص 475.

¹⁰ المصدر نفسه: ص 476.

ب. التاريخ

يبدأ الزياني الترجمانة بقوله: "قال الإمام ابن حجر: ... في أفضلية علم التاريخ والنسب، حيث قسمه إلى واجب، ومسنون، ومندوب، وفاضل"¹، و "لا خفاء أن معرفة الأنساب والتاريخ من الأمور المطلوبة، والدخائر المجلوبة"². ولهذا "لا نُبالغ إذ قلنا إنَّ الزياني يُظهر في رحلاته شخصيّة العالم المعرفية بوصفه مؤرخاً"³، ويؤكد ذلك عند إشارته في ترجمته لنسب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الشروط التي ينبغي أن تتوافر في المؤرخ نقلاً عن تقي الدين السبكي "الرأي أن لا يُقبل مدح أو ذم من المؤرخ إلا بشروط:

1. أن يكون صادقاً
2. وأن يعتمد اللفظ دون المعنى
3. وأن يكون عارفاً من يترجمه علماً، ودينياً، وغيرهما حتّى يُصور في ترجمته حاله بلا نقص، ولا زيادة"⁴.

تتخلل بنية النص الرحلي عند الزياني الكثير من الاستطرادات التاريخية، التي يبدأها بنسب البربر نقلاً عن ابن خلدون: "البربر جيل كبير عظيم، لهم شعوب وقبائل أكثر من أن تحصى، وتفرع من البربر الأولى البتر، والمصامدة، البرانس، وصنهاجة، وكثامة، وأوربة، ولواتة، وزناتة"⁵، وتاريخهم في المغرب⁶. ويقتطع مسار سرد الرحلة الثانية ليحيل إلى تاريخ الأندلس، والحروب التي وقعت بها⁷، فيقول: "أول من غزاها من ملوك الأجناس الاسكندر اليوناني لما غلب أجناس الروم"⁸، ومرة أخرى يقتطع السرد، ليشير إلى تاريخ آل عثمان⁹. وذلك كثير في الترجمانة.

¹ الترجمانة الكبرى: ص49.

² المصدر السابق: ص49.

³ مسعود، أيوب: تداخل الأجناس في أدب الرحلة، ص144.

⁴ الترجمانة الكبرى: ص424.

⁵ المصدر السابق: ص69.

⁶ ينظر: المصدر نفسه: ص77-81.

⁷ ينظر: المصدر نفسه: ص92.

⁸ المصدر نفسه: ص91.

⁹ ينظر: المصدر نفسه: ص127.

والزّياني في الترجمانة لا يغفل عن التأريخ لعصره الذي شهد تقلبات سياسية عديدة، فعلى الصعيد الإقليمي ظهرت دعوة محمد بن عبد الوهاب التي اصطدمت بالخلافة العثمانية ونفوذها في المنطقة، التي بدأت تفقد قواها، فينقل عن الأغا علي المهندي: "من عرفته مات [السلطان عبد الحميد الأول]، ومن طلع تائه في فلات، وما بقي إلا الوزير يوسف باشا في حيز الإهمال"¹. فوقع فيها "من النقص في كلّ الأحوال، وما هي فيه من الأهوال، في المقام والترحال"²، إلا أنها سجلت انتصاراً ضد الدولة السعودية الأولى عام 1233هـ إذ "عسكر الأمير أحمد بن علي صاحب مصر والحجاز هزموا القائل بأمر الوهبية، وقبض باليد، وأتوا به أسيراً لمصر"³.

ويقيد الزّياني في الترجمانة مرويّات تاريخية عجائبية عن الأحجار، وخواصّها، ومنافعها⁴، أوردها في خمس صفحات، كان يذكر فيها اسم الحجر، وما له من خواص ومنافع، مثل: "الحجر البنفسجي: إذ حك فخرج محكه بيضاء، فكل من حملة زال عنه الهم، والغم، والحزن، وإن خرج محكه مسوداً، من حملة لم تتجح مقاصده"⁵، وكذلك في خمس صفحات شرح منافع الأحجار الصلبة ذوات الجواهر⁶، ما عدا اللؤلؤ الذي أورد فيه شرحاً لكيفية تكونه⁷، ويعقب هذه الفصول، بفصل في ذكر حيوانات النعم⁸، في ثلاث صفحات، يبين فيها الخواص العلاجية لبعض أجزاء الحيوان، مثل الدودة التي في دماغ الجاموس "إذا علقّت على أحد لا ينام ما دامت عليه"⁹.

وقد برز النقد في المنهج التاريخي الذي اعتمده الزّياني في النقل عن العلماء، فمن ذلك اعتراض المؤلف على ابن خلدون¹⁰، "قال كاتبه أبو القاسم بن أحمد الزّياني، ما وصف به ابن خلدون هذا الجبل البربري من الأوصاف الحميدة، والمناقب السنية العديدة، معلومة للعرب الكرام في الجاهلية والإسلام، ولما

¹ الترجمانة الكبرى: ص 167.

² المصدر السابق: ص 168.

³ المصدر نفسه: ص 402-403.

⁴ ينظر: المصدر نفسه: ص 341-345.

⁵ المصدر نفسه: ص 341.

⁶ ينظر: المصدر نفسه: ص 346-350.

⁷ ينظر: المصدر نفسه: ص 346-347.

⁸ ينظر: المصدر نفسه: ص 351-353.

⁹ المصدر نفسه: ص 352.

¹⁰ ينظر: المصدر نفسه: ص 74.

سألت أحوالهم، وخالف فعلهم مقالهم، حلى بها الله هذا الجنس البربري قبل أن يخون ويفتري"¹، ويؤكد على كلامه بتوضيح سبب حركة السلطان سليمان على البربر سنة 1234هـ². وكذلك نقد ابن بطوطة³، وأخباره التي جاء فيها "أن ملك الهند صاهره، وقلده القضاء بمدينة العظمى"⁴، فقد أنكر عليه علماء عصره "واستغربوا أخباره، واستبعدوها"⁵.

ويبرز اهتمام الزياني المؤرخ بالتاريخ عبر سلسلة من اللقاءات تمخض عنها تلخيص كتاب (تأليف الروح في أخبار آل عثمان) الذي ألفه كمال الدين باشا⁶، وإطلاعه على ترجمة كسرى في تأليف (الذهب المسبوك في عدل عظماء الملوك) عند اجتماعه بالشيخ عبد الله اليمني بالمدينة المنورة⁷، ووقوفه على عدد من الكتب الغريبة في التاريخ بمكة المكرمة⁸، ويشير إلى اقتراح السلطان سليمان جمع تأليف (الترجمان المعرب، عن دول المشرق والمغرب)^(*)⁹، والذي أخرجه للناس ولقي رواجاً كبيراً بين أوساط العلماء¹⁰، وقد تلقى رسالة من السلطان سليمان يبارك له صنيعة¹¹، وكذلك مؤلف (البستان الطريف)¹².

¹ الترجمانة الكبرى: ص74.

² ينظر: المصدر السابق: ص75.

³ ينظر: المصدر نفسه: ص581.

⁴ المصدر نفسه: ص582.

⁵ المصدر نفسه: ص581.

⁶ ينظر: المصدر نفسه: ص103-110.

⁷ ينظر: المصدر نفسه: ص232.

⁸ ينظر: المصدر نفسه: ص243.

^(*) الكتاب لا يزال مخطوطة.

⁹ ينظر: الترجمانة الكبرى: ص139.

¹⁰ ينظر: المصدر السابق: رسائل معاصري الزياني ص544-576.

¹¹ ينظر: المصدر نفسه: ص547.

¹² ينظر: المصدر نفسه: ص413. وينظر: الزياني: أبو القاسم: البستان الطريف، في دولة أولاد مولاي الشريف، القسم الأول: تحقيق: رشيد الزاوية، رسالة جامعية لنيل دبلوم الدراسات العليا، وزارة الشؤون الثقافية، المملكة المغربية.

ت. الأنساب

يعود اهتمام الزياني بعلم الأنساب إلى فترة مبكرة من حياته، ويذكر أنه طالع في صغره دفترًا لجده، كان فيه "نسبه إلى قبيلة زيان، ومنه للجد مالو الصنهاجي، ومن مالو رفعه إلى اليسع الذي أسلم على ما في تاريخ سليمان بن سابق المظماطي نسابة البربر"¹، وقد اختلط التاريخ بالأنساب في الترجمانة، ومن ذلك ذكر سلسلة أجداد أمير المؤمنين [السلطان سليمان] إلى مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم²، ويعلل هذا الاستطراد "فلا بدّ من ذكر أجداده تبرّكًا بهم في هذه الرحلة"³، ويستدل بقصيدة أبي عبد الله محمد بن مسعود القرطبي المسماة (معراج المناقب)⁴، واعتمد في ترجمته لنسب الرسول صلى الله عليه وسلم على عدد من أئمة النسب المشهورين، مثل: عبد الله بن الزبير، وعن العلماء المشهورين: مثل ابن حزم، وابن خلدون، وابن الخطيب السلمي، وغيرهم من المؤرخين⁵. وتستغرق ترجمة أجداد الرسول صلى الله عليه وسلم ثماني وعشرين صفحة، تحدث فيها عن جد رسول الله عبد المطلب، وخبر زواج أمه آمنة بنت وهب من أبيه عبد الله بن عبد المطلب، وبيان سبب تسمية جده هاشم، إلى نبي الله إسماعيل⁶، ثم نبي الله إبراهيم عليه السلام، واختتانه، ووفاته، صعودًا إلى سيدنا آدم أبو البشر⁷.

ترجم الزياني في نهاية الترجمانة أيضًا لنفسه حيث قال: "التعريف بصاحب هذه الرحلة، وعمود نسبه، وهو أبو القاسم بن أحمد بن علي، بن إبراهيم... بن صنهاج، ذكره سابور بن سليمان المظماطي التادلي في تاريخه"⁸، ويستطرد في نسبة صنهاجة إلى نبي الله نوح عليه السلام، فيما قاله جده: "أن السبب الحامل على رسم هذا العمود إلى صنهاج، ثم إلى نوح عليه السلام، ما رأيته من بعض طلبة الوقت الذين عرفنا أصولهم، وفروعهم... يرفعون نسبهم إلى القيسية من مضر، وهم من صميم قبائل البربر"⁹.

¹ الترجمانة الكبرى: ص58.

² ينظر: المصدر السابق: ص422.

³ المصدر نفسه: ص422.

⁴ المصدر نفسه: ص422.

⁵ ينظر: المصدر نفسه: ص423-424.

⁶ ينظر: المصدر نفسه: ص429-440.

⁷ ينظر: المصدر نفسه: ص443-454.

⁸ المصدر نفسه: ص548.

⁹ المصدر نفسه: ص548.

ث. العلوم الشرعية

يمتزج في بنية الترجمانة مع التاريخ، والأنساب، مباحث العلوم الشرعية، كالفقه، والعقيدة، فالفقهاء للترجمة يجد أنّ الاستطرادات التي تتصل بالعلوم الشرعية تجري مجرى الاستشهادات الشرعية، والمرويات التاريخية، فالبينة الاجتماعية التي نشأ فيها الزياني أكسبته ارتباطاً وثيقاً بتلك المباحث، وخاصة أنّها من العلوم التي انبرى لأخذها الطلبة في عصره¹، واهتم بها سلاطين الدولة العلوية، كالسلطان محمد الثالث²، وابنه السلطان سليمان من بعده.

تظهر استدراقات الزياني الفقيه العالم في عدد من المواقف، كما في موقفه من الكاتب محمد بن عثمان الذي أراد أن يرمي المؤلف بالخطأ واللعن، لما اجتمعوا في بيت كمال الدين باشا، فما كان من جواب الزياني إلا أن أورد له "ما قاله ابن القويقع لابن النحاس، حيث أراد تخطئته بمحضر جمع غير من الناس: لا تتكلم إلا فيما تعلم، ودع عنك ما لا تعلم"³، ثم استطرد في ذكر أخبار العلماء المحسودين وما وقع لهم من الأذى، أمثال أبي الفضل ابن النحوي⁴، وأورد حكاية المقرئ الذي تعرض للأذى من أهل مصر لما "برز عليهم في العلوم، أنكروه ونسبوه إلى الأهواء وكتبوا عليه رسماً بذلك"⁵.

كما يُقدم الزياني فكره العقائدي، ومذهبه الفقهي في عدد من المواقف، منها معارضته لدعوة محمد بن عبد الوهاب⁶، وتأنيده لرد قاضي تونس عليه⁷، وهو ما عكسه في مواقفه من التبرك بالقبور، والأضرحة، والدعاء عندها، ومن ذلك قوله في زيارته لقبور آل البيت في المدينة المنورة "تبركنا بتربة سيدنا الحسن، وزين العابدين، والسيدة فاطمة، وجعفر الصادق، وأمّهات المؤمنين، عائشة، وحفصة، وميمونة، وجويرية، ومحمد الباقر"⁸. وفي زيارته لضريح أبي أيوب الأنصاري، يقول: "تبركنا بمقامه، وتربته المباركة"⁹، ومن

¹ ينظر: الترجمانة الكبرى: ص 56-57.

² ينظر: المصدر السابق: ص 63.

³ المصدر نفسه: ص 104 .

⁴ ينظر: المصدر نفسه: ص 106.

⁵ المصدر نفسه: ص 106.

⁶ ينظر: المصدر نفسه: ص 394-396.

⁷ ينظر: المصدر نفسه: ص 397-402.

⁸ المصدر نفسه: ص 186-187.

⁹ المصدر نفسه: ص 100.

صور جواز التبرك بالأحياء عنده، ما عبر عنه الزيّاني عند لقائه بالشيخ إسماعيل العباسي "فأخبرته أنني لم آت إلا لزيارته والتبرك به"¹. وأيضًا عند اجتماعه بالشيخ جعفر الهندي " بقصد زيارته، والتبرك به"²، وفي جواز سجود الشكر عنده [!] ما أورد من استعماله في تحية السلطان عبد الحميد الأول، التحية التي يستعملها في تحية سلاطين المغرب إذ يقول: "استعملتُ أنا التحية كعادتنا مع سلطاننا إذا وقفنا أمامه نقبل الأرض، وذلك يعد من سجود الشكر"³.

ومن الأخبار التي أوردتها في بعض المسائل العقائدية ما جاء في واقعة المعتزلي الذي ألقى سؤاله في مجلس من العلماء والزيّاني بينهم: "ما معنى الله؟"⁴ فأجابوه إلى أن ثبت "أنّه يريد البحث في إثبات الصفات"⁵، بيد أنّ الزيّاني تنبه لمذهبه المعتزلي، فلم يجبه بشيء، مما أثار حفيظته، فتوجه إليه يسأله: "وما لك أنت لم تتكلم بما ظهر لك فيما قلت وما قالوه"⁶، فأجابه الزيّاني الفقيه بنصّ ما أجاب به الشيخ أبو سالم العياشي لمعتزلي اجتمع به في المدينة المنورة⁷. وكذلك تضمينه لنقد ابن بطوطة حادثة ينقلها عن أحد طلبية السلطان محمد الثالث "أنّه كان يسرد عليه رحلة ابن بطوطة، وساق كلام ابن تيمية في الاستواء، والنزول، فنزل من محل جلوسه، وقال: كنزولي هذا، فقال له السلطان سيدي محمد: اطو ذلك الكتاب وبعه في السوق، وكلّ ثمنه لحماً، هذا رجل كذاب من أهل التجسيم كمن نقل عنه"⁸.

وإثر ظهور عدد من الطوائف في المغرب على قرار الطائفة التيجنية⁹، يسرد الزيّاني عدد من الأدلة على حرمة الرقص والغناء في المواسم، وعند الأضرحة، منها إنكار ابن مسعود ما بلغ عن قوم اجتمعوا في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم يكبرون ويسبحون¹⁰، وجواب الإمام المازني عندما سئل "عن الرقص

¹ الترجمانة الكبرى: ص 194.

² المصدر السابق: ص 262.

³ المصدر نفسه: ص 125.

⁴ المصدر نفسه: ص 231.

⁵ المصدر نفسه: ص 231.

⁶ المصدر نفسه: ص 231.

⁷ ينظر: المصدر نفسه: ص 232.

⁸ المصدر نفسه: ص 582.

⁹ ينظر: المصدر نفسه: ص 460.

¹⁰ ينظر: المصدر نفسه: ص 463.

على الطار، والشبابية، فقال: هذا لا يجوز في الدين"¹، وذلك هو "مذهب مالك، وأبو حنيفة، والشافعي، وأحمد بن حنبل"²، وعن ما انتشر من لجوء أهل الجنايات بالأضرحة والمزارات، والزوايا، فيقول: "ورد في الحديث الشريف النهي عن إيوائهم، ولو لجأوا لحرم مكة، والمدينة...، قال مالك والشافعي: ويجوز إقامة الحد مطلقاً في الحرم، لأنّ العاصي فيه، هتك حرمة نفسه، فأبطل ما جعل الله له من الأمن"³.

ولم يغفل الزيّاني عن مذهب النصارى في الاعتقاد فيقول: "رجوعاً لخبر ما وعدنا به من خبر مذاهب أهل التثليث، والرّد عليهم، وتكذيبهم، وبيان ما بدلوا في إنجيلهم، وما حرفوه، وما زادوا من عند أنفسهم"⁴، وجاء رد الزيّاني مقسماً على تسعة فصول: فصل في بيان فساد كتاب الأناجيل، وهم: متى، ولوقا، وماركوس، ويوحنا⁵، وفصل في أصلهم، وفرقهم⁶، وفصل في قواعد دين النصرانية⁷، وفصل في شرعهم الباطل، واعتقادهم العاطل⁸، وفصل في بيان أن عيسى ليس بإله⁹، وفصل في اختلاف الأربعة الذين كتبوا الأناجيل¹⁰، فصل فيما نسبوا إلى عيسى من الكذب¹¹، وفصل فيما يعيبه النصارى على المسلمين، والرّد عليها¹²، وفصل في إثبات رسالة مولانا محمد صلى الله عليه وسلم¹³. ويستمر الزيّاني بعدها في تناول عدد من المواضيع المتفرقة المتصلة بالمسائل العقائدية، كأصول الفرق التي تفرق عليها المسلمون في الاعتقاد¹⁴.

¹ الترجمانة الكبرى: ص464.

² المصدر السابق: ص464.

³ المصدر نفسه: ص465.

⁴ المصدر نفسه: ص498.

⁵ ينظر: المصدر نفسه: ص498-500.

⁶ ينظر: المصدر نفسه: ص501-502.

⁷ ينظر: المصدر نفسه: ص502-509.

⁸ ينظر: المصدر نفسه: ص509.

⁹ ينظر: المصدر نفسه: ص510-513.

¹⁰ ينظر: المصدر نفسه: ص513-515.

¹¹ ينظر: المصدر نفسه: ص516-518.

¹² ينظر: المصدر نفسه: ص519-521.

¹³ ينظر: المصدر نفسه: ص521-524.

¹⁴ ينظر: المصدر نفسه: ص532.

نخلص في هذا الفصل إلى أنّ شخصية الزيّاني المتأثرة بالمناخ الثقافي في عصره، المتصل بالتراث الثقافي الإسلامي اتصالاً وثيقاً بالنظر إلى تعليمه، وأساتذته¹، ومنهاجه، ومصادره²، ودوافع تأليفه³، تتعكس في إنتاجه لمؤلف يتسم بالموسوعية، سعى فيه لإبراز الفكر الموسوعي "بوصفه رصيذاً لغويّاً وثقافياً"⁴. مما أنتج لنا نصّاً رحليّاً امتزجت فيه مشارب الزيّاني الأدبية، والكتابية، والثقافية، وانفعالاته التي ترسم شخصيته، وأفكاره، واعتقاداته، بصورة تعكس الانفتاح الذي ارتبط بنصوص الرحلات.

¹ ينظر: الترجمانة الكبرى: ص56.

² ينظر: المصدر السابق: ص53.

³ ينظر: المصدر نفسه: ص55.

⁴ مسعود، أيوب: تداخل الأجناس في أدب الرحلة، ص216.

الفصل الرابع:

جماليات الوصف في الترجمانة الكبرى

المبحث الأول: الوصف في الترجمانة الكبرى

أ. المكان في الرحلة

1. مكان الانطلاق

2. أمكنة العبور

3. المكان الغاية

ب. المكان خارج الرحلة

ت. الشخصيات في الرحلة

1. الرحلة الأولى 1169هـ

2. الرحلة الثانية 1200هـ

3. الرحلة الثالثة 1206هـ

ث. الشخصيات خارج الرحلة

ج. الزمان في الترجمانة الكبرى

المبحث الثاني: وظائف الوصف في الترجمانة الكبرى

أ. الوظيفة التصويرية

ب. الوظيفة الإخبارية

ت. الوظيفة السردية

ث. الوظيفة التعبيرية

ج. الوظيفة الأيديولوجية

ح. الوظيفة الجمالية

المبحث الثالث: العلاقة بين تداخل الأجناس وجماليات الوصف في الترجمانة الكبرى

1. تعدد الأصوات (الرواة)

2. خصوصية الوصف في كلّ جنس

3. ثنائية الواقع والمتخيل

4. الفكر الموسوعي

المبحث الأول: الوصف في الترجمانة الكبرى

الوصف من السمات الأساسية للنص الرحلي، فأن كان السرد هو حركة الأحداث داخل الزمكان في مسار الرحلة، فالوصف هو الالتفاتة التي تعين وتشاهد الأمكنة، والأشياء، والأشخاص، والوصف يلتقط التفاصيل، والانفعالات، بل يتجاوز رصد الأمكنة، والأزمنة والآخر، إلى تقديم صورة عن الأنا من خلال الأساليب الوصفية، والمواضيع المطروقة، والالتفاتات النقدية، والذائقة الشعرية، والآراء العلمية، والفقهية، والاعتقادات الدينية للمؤلف الرحال.

في هذا الفصل سنتناول خصوصية الوصف في الترجمانة الكبرى لأبي القاسم الزباني؛ وقد وجدنا في المبحث الأول ضرورة فصل المكان والشخصيات في الرحلات الثلاث عن المكان والشخصيات خارجها، نظراً لتفاوت قيمة الأمكنة والشخصيات في مسار كل رحلة، مما يؤثر في المساحة الوصفية التي تشغلها، وطبيعة تقديمها بصوت الراوي (المؤلف الرحال)، واعتبار الأمكنة والشخصيات خارج مسار الرحلات ذات خصوصية مختلفة، تكتسب قيمتها من خلال كشفها عن الحالة الفكرية، والمعرفية، وطبيعة الانفعالات التي يتعرض لها المؤلف أثناء كتابته، واستجابه لها. أما الزمان في الترجمانة الكبرى، فإن علاقته بالوصف تختلف بالنظر إلى أسلوب الزباني الذي جمع فيه بين عقلية المؤرخ، وذائقة الأديب، وقصديته في تدوين رحلاته الثلاث التي تؤثر فيها بنية السفر ومحطاته، وما يصاحبه من مؤثرات أثناء التدوين المتزامن مع الارتحال، والتدوين اللاحق له. كذلك سنخصص في المبحث الثاني حيزاً للوصف باعتباره أداة مؤثرة تقوم بوظائف مختلفة تقدم المعارف والمشاهد عبر أشكال متنوعة، وهي الوظيفة التصويرية، والإخبارية، والسردية، والتعبيرية، والأيدولوجية، والجمالية. ونختتم بالمبحث الثالث الذي يسلط الضوء على العلاقة بين تداخل الأجناس والأنواع الأدبية، والمعارف والعلوم وجماليات الوصف في الترجمانة الكبرى، وكيف أثرت هذه العلاقة في إبراز قيمة الوصف في الترجمانة الكبرى.

أ. المكان في الرحلة

تتأسس الرحلة، بمفهومها القائم، على الحركة والانتقال، وخلال سفر الرحالة يمر بثلاث مراحل هي: مكان الانطلاق الذي تتكون فيه المقاصد، مروراً بأمكنة العبور التي يخوض الرحالة غمارها، ويتجشم صعابها، بغية الوصول إلى المحطة الأخيرة المتمثلة بالمكان الغاية الذي إليه شُدَّت الرحال.

يتجلى الوصف في الترجمانة الكبرى في أوضح صورته من خلال حركته القائمة بالسرد عبر هذه المحطات الثلاث، فكان لزاماً بحثها على الترتيب، فالوصف إن كان يرسم المشاهد والصور والأحداث عبر تقنياته، فإن اللوحة الكبرى وهي الرحلة لا يمكن تصورها إلا عبر مكوناتها من مشاهد وصور وأحداث على الترتيب. ومن هنا تتجلى واحدة من أهم مظاهر الوصف في النص الرحلي.

1. مكان الانطلاق

إن الحركة التي هي جوهر الارتحال، تنطلق من الغاية التي يقصدها الرحال في نيته للسفر، وهذه الغاية يكون وراءها دافعٌ يتحيز في مكان الانطلاق، فيأخذ حيزاً وجودياً عند بدء الرحلة. ورحلات الزياني عند قراءتها بوصفها نصاً تتزاحم فيه أشكال مختلفة من الأجناس والأنواع الأدبية والمعارف والعلوم، وينهض تصورٌ حول مكان الانطلاق يستمد بناءه من اعتبار هذه الرحلات جزءاً لا يتجزأ من سيرة الزياني الذاتية، إذ يُلحظ أنَّ هناك نوعاً من النمو والتطور في الدوافع الناهضة بالارتحال، فالرحلة الأولى تقوم بدافع الأب الذي سئم المقام بالمغرب لتبدل أحواله، والرحلة الثانية تُحقق أمر سلطان المغرب محمد الثالث، بتقليد الزياني عدداً من المهام في الرحلة السفارية إلى إسطنبول، أما الأخيرة فإن الزياني يؤكد في غير موضع أنها رحلة شخصية ذاتية، فعند وجوده في تونس أشار عليه القائم بأعمال باشا الجزائر هناك بملاقة أمير البلد حمود باشا، غير أنه رفض، معللاً ذلك بقوله: "أما هذه فلا، وما لي وله، وما أقول له؟ فيما مضى كنت سفيراً من سلطان المغرب إلى سلطان المشرق، ولما دخلنا بلاده بعث لنا الخيل وأقسم علينا أن نكون في ضيافته، ونستريح ببلاده إلى أن

نقضي أغراضنا، والآن سفير من؟ وكيف أقول؟ أنا فلان الذي كنت عندك وقت كذا، لا أفعل هذا ولا أرتكبه"¹، ويصر على تحديد دافع هذه الرحلة بأنه دافع ذاتي وشخصي، "إنما أنا رجل حاج، أريد السفر في البحر"².

ومن هنا تظهر العلاقة بين مكان الانطلاق والدافع الذي يؤسس لفعل الارتحال، وعليه فإننا سنبحث الدوافع وراء الرحلات الثلاث لأبي القاسم الزياني فيما يلي:

أ. دافع الأب: أدت الأوضاع السياسية سنة 1169هـ في عهد السلطان عبد الله بن إسماعيل إثر اندلاع "أحداث العدوان من آيت إدراسن على جروان والأودايا"³، إلى اضطرابات أثارت قلق المجتمع المغربي، ووالد الزياني كان ممن تأثروا بهذه الأحداث، فقد "سئم المغرب والمقام به، لتبدل أحواله عما كان يعهد، ففر بدينه وهياً الأسباب"⁴. وهذه العبارة تصف المغرب من خلال مقارنته بحاله على العهد الذي اعتاد عليه، وتحيل إلى استقراء تاريخ المكان، فهذا التبدل جعل من والد الزياني يعزم كما يقول ابنه في ترجمانته: "وعزم والدي رحمه الله على الرحلة الحجازية بكليته، بقصد الحج والمجاورة بالحرم الشريف، فباع دارين كانتا له بفاس"⁵، ولا دافع للزياني في هذه الرحلة سوى إرضاء والده فيقول: "وأنا مساعده على شأنه، ومتصرفه عن مراده وإذنه، وكان رحمه الله يحبني إذ لم يبق له من أولاده غيري، وكنت أسعى في خاطره ورضاه بكل ما يرضاه، وأسعى في خاطر والدتي على طيشي وجدي"⁶.

ب. دافع السلطان: الرحلة الثانية، رحلة سفارية بامتياز، وقد أوضح الزياني الأسباب وراء هذه الرحلة؛ فكان السبب الأول "أن أمير المؤمنين كان كثيراً ما يوجه الهدايا للصلطنبول، للسلطان مصطفى بن أحمد العثماني، ولأخيه بعده السلطان عبد الحميد بن أحمد"⁷، والسببان الثاني والثالث؛ تحسلاً لما علم السلطان محمد الثالث بخبر الذين أخذوا أربعة عشر ألف ريال من

¹ الترجمة الكبرى: 165.

² المصدر السابق: ص 165.

³ حركات، إبراهيم: المغرب عبر التاريخ: ص 82.

⁴ الترجمة الكبرى: ص 58.

⁵ المصدر السابق: ص 57.

⁶ المصدر نفسه: ص 58.

⁷ المصدر نفسه: ص 82.

مال الأسرى الذي كان قد أرسله إلى مالطة وقدره مائتان وأربعة وسبعون ألف ريال غير أن الكفار كما يسميهم الزياني رفضوا الفدية، فأمر سلطان المغرب بتوجيه المال للسلطان عبد الحميد الأول لأنه نواه في سبيل الله، فحدث أن بعثة السلطان محمد الثالث أخذت أربعة عشر ألف ريال من المال عندما طالبهم أهل الدولة، ولم يكن وزير البحر حسن باشا حاضراً حينها، فلما التقوا به بعدها سلموه رسالة سلطان المغرب من غير هدية، فقرأ في الرسالة أن المال المرسل للسلطان عبد الحميد الأول هو مائتان وأربعة وسبعون ألف ريال، والذي وصله مائتان وستون ألف ريال، فاستفسر عن المتبقي من المال، فأجابه أحدهم أن المال دفع للوزير، ولا كلام لنا معك، فأمر بطردهم من إسطنبول، فخافوا من ردة فعل سلطان المغرب الذي قلدهم أمانة مال الأسرى، فاتجهوا للمشرق هرباً، ولم يعودوا للمغرب، وكتب لسلطان المغرب أن سفراءك لم يدفعوا إلا مائتين وستين ألفاً¹. وقد أرسل سلطان المغرب لأبي القاسم الزياني يخبره عن مهامه في سفارته لإسطنبول "اخترتك لتشتفي غليلي في أمرين: أحدهما أن تقبض أولئك الظلمة الذين سرقوا من مال الله، والثاني تسفه هذا الباشدور الذي كذب علي، وتعرفهم أنه لا يصلح للسفارة بين الملوك، ويلزمه ما يلزم أصحابي الذين سرقوا من مال الله"². وخبر الباشدور هذا، أن الوزير حسن باشا وجه كاتبه إسماعيل أفندي [الباشدور] برسالة وهدية، وعذر عن أهل الجزائر الذين كانوا على طرفي نقيض مع سلطان المغرب، ومحتوى هذه الرسالة أن الدولة العثمانية تطلب من سلطان المغرب أن يعرض عن أفعال أهل الجزائر الذميمة وجهلهم، غير أن الكاتب عبد الكريم العوني التطواني لما اجتمع بالباشدور قال الأخير إنه يملك ثلاث رسائل لكل من سلطان المغرب وباشا الجزائر وباشا تونس، فاعتقد أن السلطان عبد الحميد الأول كتب لسلطان المغرب بولاية تونس والجزائر، فنقل للسلطان محمد الثالث أن السلطان عبد الحميد أعطاه الجزائر وتونس³.

لا يعتني الزياني في هذه الرحلة أيضاً بوصف مكان الانطلاق، فلا يحضر الوصف إلا في أجزاء بسيطة من وصف مشهد حضور الباشدور لاحتفالات سلطان المغرب في يوم العيد،

¹ ينظر: الترجمة الكبرى: ص83.

² المصدر السابق: ص86-87.

³ ينظر: المصدر نفسه: 83-84.

ومن العبارات الوصفية الموظفة في تصوير مشهد ذلك الاحتفال "اهتزت الأرض والجبال"¹ بفعل إطلاق البارود من المدافع، ومن طقوس يوم الجمعة التقاء السلطان بالعلماء والفقهاء بمسجد السنة، والجلوس بالمحراب وبه حصل اللقاء الأول بين الباشدور والسلطان الذي لما وقعت الرسالة بين يديه وقرأها لم يجد فيها غير التماس العذر لأهل الجزائر والاستيلاء بهم وبأهل تونس، فأمر بإعادته إلى محله، وركب هو إلى قصره، وفي عصر ذلك اليوم طلب السلطان حضور الباشدور إلى خيمة قد نصبت خارج باب قصره للاستقبال أكثر حول مضمون ما جاء في حال أهل الجزائر معه، فلما سمع منه "أن معي كُتُبًا من السلطان لهم، أتوجه بها إليهم ولأهل تونس أن يتأدبوا معك كما يتأدبوا مع السلطان عبد الحميد، وينفذوا أمرك فيما تبعث لهم عليه"²، فأعرض السلطان عنه وأمر بإخراجه، وبعد ثلاث لما بلغ تطوان، كتب القائمون على ركب الحج المتوجه إلى إسطنبول بهدية إلى الأشراف، أن لا يرسل الباشدور معهم لما سمعوا منه من "سب وطعن في جانب الدولة"³. حينها لم يجد أكفأ من أبي القاسم الزياني ليرافق الباشدور، وعدم السماح له بإمرار الرسائل التي معه إلى باشا الجزائر وتونس⁴. فالزياني ليس إلا رسولاً وسفيراً تدفعه وتحركه أهداف السلطان محمد الثالث في هذه الرحلة السفارية.

ت. دافع الذات: تنطلق شرارة الرحلة الثالثة من ولاية وجدة التي يصفها بأنها "في حيز الإهمال"⁵، وقد تولاهم مكرهاً كما يُخبر "وأزعجني لها من غير إهمال، فاستعفيت فلم يقبل كلامي، واسترحمته فلم يرحم ذمامي"⁶. ولما نزل بها والياً عليها، هجم عليها العرب ف وقعت الحرب التي انهزم فيها والي الجديد ومن معه من العسكر، ونهب العرب كل ما وقعت عليه أيديهم، ومن هنا قرر الزياني هذه المرة "الرحلة عن المغرب..."، وهي الرحلة الثالثة، والنكبة الخامسة⁷.

¹ الترجمة الكبرى: ص 85.

² المصدر السابق: ص 85.

³ المصدر نفسه: ص 86.

⁴ ينظر: المصدر نفسه: ص 84-86.

⁵ المصدر نفسه: ص 140.

⁶ المصدر نفسه: ص 140.

⁷ المصدر نفسه: ص 140.

2. أمكنة العبور:

أ. الرحلة الأولى:

➤ طريق الذهاب: يشير بعض الأصحاب على والد الزياني بالسفر عبر بحر القلزم لوصفه "بقلة المشقة وقرب المسافة"¹ مقارنة مع طريق السفر براً، مما دفعه للأخذ بالمشورة، فلما نزلوا بمدينة السويس المعروفة "بماوى المراكب"²، اشترى صاحبهم بالسفر مركباً، بيد أنه تكسر وخسروا بضاعتهم بينما كانوا مقبلين على مرسى ينبع، ويصف هذه الحادثة "بالنكبة الأولى إحدى النكب السبع"³ ويعد هذا من الوصف غير المباشر للبحر الذي وإن كان قليل المشقة ويختصر المسافة إلا أنه يحمل في طياته الكثير من المفاجآت التي قد لا تسر راكبيه.

وكثرة الوصف بالمقارنة قد يرجع إلى ما تبعته بنية السفر من المقارنة بين ما هو قائم الآن، وما كان، فالمقارنة هي التي دفعت والد الزياني للارتحال، وهي ذاتها التي ستَحمله على قرار العودة، فإنه لما رأى " ما نواه من المجاورة بذلك المزار يحتاج إلى ذات اليد واليسار، تعين الرجوع للمغرب"⁴. ومن لطيف العبارات التي أوردها الزياني في هذا السياق "وقدّمتنا الحقيقة على المجاز"⁵، فإن حضور الصور في الذهن ليس كمعاينتها ومعايشتها، فالوصف المتأصل في الأذهان عن جمالية وسكينة المقام بجوار بيت الله ومسجد رسوله، مقارنةً بالحال المضطربة التي تعيشها المغرب، والوضع المادي الذي أصبحو عليه، أثار تلك الرغبة التي يقودها التخيل بوصفه جزءاً لا ينفصل عن معالجة الأذهان للمواضيع.

➤ طريق العودة: الحاجة للوفرة المالية إذن شرط لتحقيق المجاورة، لذلك كانت العودة للمغرب الخيار المناسب، ويوظف الزياني هذه المرة الوصف بالتدرج لطريق العودة الذي تعطلوا به عدة مرات "فوجدنا المراكب معطلة للحرب التي بين الإفرنسييس والإصـبـنيول مع

¹ الترجمة الكبرى: ص 58.

² المصدر السابق: ص 59.

³ المصدر نفسه: ص 59.

⁴ المصدر نفسه: ص 59.

⁵ المصدر نفسه: ص 59.

الإنجليز¹، التي دفعتهم للإقامة بمدينة اسمها القزنة لمدة أربعة أشهر، وللمرة الثانية يتعطل طريق العودة بسبب كون "الإفرنسييس محاصرًا بجبل طارق"² من الإنجليز. وينفج هذا التعطيل بوقوع الصلح بينهم، "أقلعتُ مراكب الإفرنسييس من جبل طارق"³، وبالتالي أصبح طريق العودة سالكًا إلى فاس.

ب. الرحلة الثانية:

➤ **طريق الذهاب:** يمتد طريق الذهاب من الصورة التي وُجه الزياني إليها بأمر من السلطان محمد الثالث، مرورًا بمرسى مالقة، ويبدأ وصف مدينة مالقة بذكر أنها من مدن الأندلس، وحسان المغرب⁴، وبالتدرج يصفها بعين الجغرافي ففي إقليمها مدينة غرناطة، وبقرتها مدينة البيرة، ومدينة المرية، وبجوارها قرطاجنة⁵، ومنها "يحمل التين والزبيب إلى أقاليم الأرض، حتى للهند والصين"⁶ وفكر المؤرخ فهي "مدينة حصينة قديمة من بناء الروم"⁷، وفتحها المسلمون "عام ثلاثة وتسعين من الهجرة، عمروها، وحصنوا أسوارها، وشيدوا مساجدها، وغرسوا بها الحدائق، واستداروها بها من كل وجه، حتّى إنهم يقولون إن مسيرة حدائقها يوم للمسافر"⁸.

يليه في طريق الذهاب مرسى تونس الذي نزلوا به مضطرين بعد تكسر أحد صواري المركب في البحر، وبعد إصلاح المركب وصلوا إلى جزر بر الترك، غير أنّ البحر ألجأهم مرة أخرى إلى مرسى الشيشمة بعدما آيسوا من النجاة، ودخلوا بعده في المرسى، ومنها وجههم واليه إلى مرسى إسطنبول.

¹ الترجمة الكبرى: ص 60.

² المصدر السابق: ص 60.

³ المصدر نفسه: ص 60.

⁴ ينظر: المصدر نفسه: ص 87.

⁵ ينظر: المصدر نفسه: ص 87.

⁶ المصدر نفسه: ص 87.

⁷ المصدر نفسه: ص 87.

⁸ المصدر نفسه: ص 87.

➤ **طريق العودة:** ينطلق الزياني في طريق عودته من إسطنبول بالمركب عابراً إلى مرسيلية التي دار حول دخولها خلاف؛ إذ رفض الزياني دخولها معللاً ذلك بأن "السلطان أمرني أن لا أدخل بلاد الروم فلا حاجة لي بدخولها"¹، فاشتد الخلاف وصولاً إلى العراق والتشابك بالأيدي بين الزياني ورئيس المركب، ولحل مشكلة الحصول على الماء اقترح الزياني النزول بجزيرة برطماعون، فكان لهم ذلك، ومنها ركبوا البحر إلى طنجة.

ت. الرحلة الثالثة:

➤ **طريق الذهاب:** تمتاز هذه الرحلة خاصة في طريق الذهاب بدقة وصف منازل السفر، وتوظيفه لوحدة قياس الزمن في وصف المدة التي أخذها التنقل بين محطات الرحلة، وليتضح التصوير الوصفي لطريق الذهاب سيتم تتبع الوصف انطلاقاً من أول أمكنة العبور، وهي جبل بني بزنانن الذي قطعه المؤلف من ناحية البحر، ثم نزل بمدينة وهران فوقف على "قصة وهران وأبراجها ومدافعها ومخازنها"² ورافقه في ذلك الكاتب الكبير لباي وهران بأمر منه. فمدينة تلمسان التي وصفها مستعيناً بالتاريخ كمصدر يرسم فيه صورة المدينة "هذه تلمسان قاعدة من قواعد المغرب الأوسط، قديمة أزلية البناء"³، وبلغة قبائل زناتة اسمها أجدير، بزعم أنها مدينة الجدار المذكور في قصة موسى عليه السلام⁴، وبعد سنة ونصف من إقامته فيها فراراً من الوباء ينتقل إلى الجزائر "مدينة أزلية لها سبعة أبواب، ولها سور حصين، ومحيط به خندق ممتلئ بالماء خلف سورها"⁵، ومن أسمائها أرض الصحراء، وينتقل الزياني من وصفها المباشر بالتدرج لوصف طبيعة البيئة الدينية فيها إذ يقول: "وبها طائفة من الرافضة الإباضية مع أهل السنة، ولهم مسجد مخصوص بهم لصلاتهم"⁶، وبين هاتين

¹ الترجمة الكبرى: ص 129.

² المصدر السابق: ص 140.

³ المصدر نفسه: ص 145.

⁴ ينظر: المصدر نفسه: ص 145.

⁵ المصدر نفسه: ص 149.

⁶ المصدر نفسه: ص 149.

الطائفتين تقع بعض الحروب لأن الإباضية "لهم عصبية على أهل السنة"¹. وفي نطاق الوصف الجغرافي يقول: "وبالقرب منها في غربها مدينة بسكرة...، وهي من أحسن المدن لكثرة مرافقها، وخصبها، وتوسطها بين التل والصحراء، وبها مساجد معتبرة البناء"² وفي شرقيها ضريح "عقبة بن نافع"³، "وعلى مرحلة منه زاوية ضريح العلامة الصالح في زاويته المشهورة به وهو سيدي عبد الرحمان الأخضرى"⁴، ومن الأضرحة بتلك الناحية "قبر نبي الله خالد بن سنان العبسي"⁵ وقد اختلف حول صحة نسبة الضريح لخالد بن سنان⁶.

وبعد أربعة وعشرين يوماً اتجه إلى مدينة قسنطينة "وكان الفصل شتاء"⁷، ويصف المدن التي مرّ بها في الطريق إلى قسنطينة "فكله خراب غير مدينة بجاية، وقد أُسست على عهد الروم"⁸. ومن القسنطينة بلغ تونس "على عشرة أيام"⁹، وفي وصف تونس يهتم الزيّاني بالجانب الجغرافي أيضاً فيحدد أنّها من "إقليم أفريقية"¹⁰، ومدينة تونس أسست "في خلافة معاوية...، وعمروها قريباً من قرطاجنة"¹¹، وبنوها من "الرخام والمرمر"¹²، "وجعلوا بين مدينة تونس ومرسى البحر، ثلاثة أميال أو أربعة، خوفاً من الإفرنج"¹³.

ركب الزيّاني البحر "في أول يوم من جمادي عام 1208 هـ"¹⁴، متجهاً إلى إسطنبول، وكان البحر مضطرباً¹⁵. وفور لقائه ببعض الأصحاب العثمانيين بلغه ما آلت إليه أحوال الدولة

¹ الترجمة الكبرى: ص 149.

² المصدر السابق: ص 149.

³ المصدر نفسه: ص 149.

⁴ المصدر نفسه: ص 150.

⁵ المصدر نفسه: ص 150.

⁶ ينظر: المصدر نفسه: ص 150.

⁷ المصدر نفسه: ص 151.

⁸ المصدر نفسه: ص 163.

⁹ المصدر نفسه: ص 164.

¹⁰ المصدر نفسه: ص 165.

¹¹ المصدر نفسه: ص 166.

¹² المصدر نفسه: ص 166.

¹³ المصدر نفسه: ص 166.

¹⁴ المصدر نفسه: ص 167.

¹⁵ ينظر: المصدر نفسه: ص 167.

العثمانية التي يصفها " بالنقص في كل الأحوال، وما هي فيه من الأهوال، في المقام والترحال"¹.

ومن الأماكن العجيبة التي دار حولها الحوار بين الزيّاني وأمين الصّرة الذي يترأس موكب الحج في إسطنبول المغارة التي أثارت فضول أمين الصّرة، فيفتتح الحوار متسائلاً: "هل عندكم بأرض السوس مغارة يقصدها الحكماء ويقيمون بها بزادهم إلى أن يُفتح بها باب في ليلة من الليالي، فيدخلون من الباب الذي فُتح، فيجدون بيتاً فيه دفاتر فوق كراسي، فيأخذ كل واحد من الداخلين دفترًا ويقيّد منه ما شاء من حكمة وطب، وتدبير ذهب وفضة، وظلمسات وأسرار حروف وعلم كيميائ طول ليلتهم، وفي الصباح يخرجون من الباب، ومن أخذ معه دفترًا أو أزال ورقة من دفتر، لا يقدر على الخروج من الباب، وكل من يكتب شيئاً من أي صنعة أحب لا يمكن أن يبطل أو تفسد عمله فيما كتب"²، إلا أن أبا القاسم الزيّاني استنكر وصف هذه المغارة، فأتى بوصف آخر عجيب لوادي يُسمّى وادي العباد ونصّ رده: "هذا كذب محض وليس بالمغرب مغارة ولا كهف إلا مسألة أوليّة من حكمة الله، وقدرته المكتوبة بقلم القدرة شاهداها، وهي أنّ بالمغرب [جبلًا] [ممتدًا] من قرب الإسكندرية يشق برقة وأفريقية، والواسطة، والمغرب الأدنى والأقصى إلى وادي نول بساحل البحر المحيط الغربي، وبجبل فازاز، منه وادي يقال له وادي العباد، فيه أشجار عظام، وقشر تلك الأشجار، وقشر أغصانها وأوراقها مكتوب عليه بقلم القدرة: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله، ثم لا إله إلا الله، محمد رسول الله، ثم لا إله إلا الله، ثم لا إله إلا الله"³. ويتضح من هذا الوصف أنّ الأمكنة العجيب والأشياء الغريبة كانت من الأمور التي تُصدق بالسماع قبل المشاهدة والتحري في المعاينة، ومما يؤكد ذلك إحالته إلى ما "ذكر القاضي عياض"⁴ عما في "بعض جزر البحر، من ورد أحمر مكتوب عليه بقلم القدرة مثل هذا"⁵.

¹ الترجمة الكبرى: ص168.

²المصدر السابق: ص170.

³ المصدر نفسه: ص170.

⁴ المصدر نفسه: ص171.

⁵ المصدر نفسه: ص171.

ومما وصف به المجتمع في مدينة إسطنبول آنذاك أنهم قوم لا يركبون البغال "فكل الناس بها لا يركبون إلا الخيل"¹، بل إنها عندهم في غاية الرخص، وما وجد تلك البغلة عند ابن يحيى إلا أنها اشتريت "من بورصة على خمسة أيام من الاصلطبول"².

ينطلق الزياني مع ركب الحجاج من إسطنبول "في الثاني والعشرين من رجب سنة ثمانية ومائتين وألف"³، انطلاقاً من الخليج ركوباً في الزوارق بعد نزولهم بمدينة الأسكدار، وهي إحدى جهات مدينة إسطنبول⁴، وتمتاز هذه المرحلة بالدقة في وصف منازل السفر، حيث غني الزياني بذكر عدد الساعات التي استغرقته للوصول إلى كل منزل من منازل الطريق، بالإضافة إلى ذكر وصفها الجغرافي ومن ذلك قوله: "ومنها لمدينة يقال لها السكوت، على سبع ساعات وهي مدينة كبيرة بها أحد عشر مسجداً للخطبة، أقمنا بها وهي للبادية أميل وبخارجها حمام على عين حارة، وبها صهريج يغتسل به الناس مأؤه في غاية الحرارة، يسمونه حمام القدرة"⁵، ومن أهم المدن التي نزل بها مدينة دمشق، ويصف منها ضريح عبد الرحمن بن مرداس السلمي "فضريحه داخل مسجد الوادي بجانب المسجد الأموي، وأما جسده فهو بقرية يقال لها الزبدان بينها وبين دمشق ثمان ساعات"⁶.

واللافت في هذه الرحلة أيضاً أن مسار الذهاب سيبدأ من جديد بعد عودته من أداء فريضة الحج للمرة الأولى، ذلك أن الزياني يقول: "وأقمت بمصر سبعة أشهر، ونزلت للإسكندرية، فأقمت بها شهرين لقلة المراكب المتوجهة للغرب بسبب الوباء الذي بأفريقية، وحيث لم يتيسر لنا سفر للمغرب رجعت لمصر بنية العودة للحرمين الشريفين"⁷. وخلال هذه المرحلة وقف الزياني على وصف الإسكندرية القديمة على لسان غيره "قال واصفها: إنه لم ير مدينة أحسن منها، ولا أبدع منها صنعا، ولا أجمل رونقا، ولا أوسع مسالك، وأعلى مباني، ولا أجمل مراسم، ولا أوضح معالم"⁸، وينقل عنه أيضاً شعر يصفها:

¹ الترجمانة الكبرى: ص172.

² المصدر السابق: ص172.

³ المصدر نفسه: ص174.

⁴ ينظر: المصدر نفسه: ص175 (الهامش).

⁵ المصدر نفسه: ص175.

⁶ المصدر نفسه: ص181.

⁷ المصدر نفسه: ص196.

⁸ المصدر نفسه: ص196.

هي القصور البيض لا ما حدثوا عن أرام [إرم] وغيرها من البنا
تختطف الأبصار من لالائها واللّيل قد ألقى القناع الأدكنا¹
ويزيد في وصف معالمها "فوق منارها سرطان من الرخام، والمنار على أربعة أساطين من
الرخام وطوله ثلاثمائة ذراع، وحيطانها وأسوارها من رخام"²، ويضيف أنّ من عجائبها
"أسطوانة تستدير الدهر كله"³ ثم يعقد مقارنة وصفية بما كان فيها قديمًا من "مرآة كبيرة
صنعها الحكماء، يتطلع منها على القسطنطينية وبلاد الروم"⁴. وأنّ منار الإسكندرية هذه كما
"ذكر عن عبد الله بن عمرو بن عمرو بن العاصي، أنّه قال: عجائب الدنيا أربعة [منها] منار
الإسكندرية"⁵. ثم يعقد مقارنة وصفية أخرى بين الإسكندرية القديمة والإسكندرية الجديدة التي
أسست عام 500هـ⁶ فالأولى كان بها "المرآة التي كانت تحرق السفن التي تقصدها بالحرب
من حكام اليونان، وصيرها الإسكندر دار ملكه"⁷ وبمرور الوقت تهدمت الإسكندرية القديمة
و"بطل عمل المرآة في آخر دولة العبيديين"⁸، ونشأت الجديدة على يدي "الملك الناصر
يوسف بن أيوب"⁹ ووصفها أن "ليس لها سور إلا أنّ البحر محيط بها من ربعين، والربع
الثالث سور المدينة القديمة، والربع الرابع للفضاء، ويجلبون الماء من مطافي المدينة
القديمة"¹⁰، ذلك أنّ الجديدة بنيت في الغرب الشمالي للإسكندرية القديمة.
ومن المقارنات الوصفية التي عقدها مقارنته بين بناء المساجد في المشرق والمغرب، بعدما
شاهد مسجد السلطان حسن إذ يقول في وصفه: "هو مسجد لا ثاني له في مصر، ولا غيرها
من البلاد، في ضخامة البناء ونباهته، وارتفاعه، وإحكامه، واتساع حناياه، وطول أعمدته
الرخامية، وسعة أبوابه كأنها جبال منحوتة تصفق الرياح أيام الصيف بأبوابه كما تفعل في

¹ الترجمة الكبرى: ص 196.

² المصدر السابق: ص 196.

³ المصدر نفسه: ص 196.

⁴ المصدر نفسه: ص 196.

⁵ المصدر نفسه: ص 197.

⁶ ينظر: المصدر نفسه: ص 198.

⁷ المصدر نفسه: ص 198.

⁸ المصدر نفسه: ص 198.

⁹ المصدر نفسه: ص 198.

¹⁰ المصدر نفسه: ص 198.

شواهد الجبال، وفي أحد أبوابه سارية رخامية لطيفة، يقال إنَّها من إيوان كسرى، وفيها نقوش عجيبة يقال على صورتها، وضعت أبواب المسجد¹، ويضيف اقتباساً من المقرئ عن مسجد السلطان حسن الذي كان أيضاً مدرسة². وأما مساجد المغرب فأنت "لا تكاد ترى في مدائنه مسجداً عظيماً قد أحدث، بل ولا مهوداً قد جُدد، بل لو سقط شيء من أكبر مساجدهم فأحسن أحوالهم فيه إن كان مبنياً برخام، أن يُعاد بجص...، وإن كان مجصصاً أن يعاد بطين، بحيث تجد المسجد كأنه مرقعة فقير هندي من كل لون رقعة"³.

كما لم يغفل عن المزارات والمشاهد التي تشدُّ لها الرِّحال بمدينة القاهرة، فيصف الزِّياني قبور أهل البيت التي استحالت لمزارات، والمسماة "المشهد العظيم المحتوي على جماعة من أهل البيت رجالاً ونساءً، أشهرهم السيدة نفيسة الطاهرة، وإليها يُنسب المشهد وبها يُعرف"⁴، وبالقرب من السيدة نفيسة "مسجد وبيوت تسكن، قلما يخلو من زائرٍ وراغبٍ إلى الله في كشف كربهِ"⁵، وينقل من الوصف بالأفعال إلى الوصف الذي يتسم بالشعرية فيقول عن قبرها: "وقبرها معروف بإجابة الدعاء، فهو ترياق لنيل كلِّ مراد كقبر ابن عمها موسى الكاظم ببغداد"⁶. ويعود للوصف المباشر عند الحديث عن قبر الإمام الشافعي الذي "لا ينبغي لأحد دخل مصر أن يُهمل زيارته"⁷ على حد قوله، وهذا القبر "عليه بناء عظيم، ومسجد وخانات، وقوم من الفقراء يسكنون هناك"⁸.

خرج الزِّياني للحج من القاهرة بعد تأخره عن اللحاق بالركب المصري إلى مدينة السويس ثم ركب البحر إلى جدة، وهنا يوظف أبو القاسم الوصف بالفعل، ليصف هول ما أصابه في طريق البحر "وكنا قد وقعنا في محل قصير مهلك، على جزيرة تحت الماء لا تظهر أرضها ولا حجارتها، حث فيه مركبنا مع خمسة مراكب هلكوا في المحل ونجَّى الله مركبنا"⁹.

¹ الترجمة الكبرى: ص 211.

² ينظر: المصدر السابق: ص 212.

³ المصدر نفسه: ص 212.

⁴ المصدر نفسه: ص 205.

⁵ المصدر نفسه: ص 205.

⁶ المصدر نفسه: ص 205.

⁷ المصدر نفسه: ص 205.

⁸ المصدر نفسه: ص 205.

⁹ المصدر نفسه: ص 215.

يبدأ بعد دخوله جدة بوصف طريق الحجاز براً ويعنونه بقوله: "ذكر منازل الحجرة"¹، وعددها ما يقارب 46 منزلاً. اهتم بوصفها وصفاً جغرافياً كوصفه لمحله نزل به اسمه عجود "واسترحنا بالوصول إلى عجود عن مشقة الأسفار، فوصلنا إلى بندر عجود، وماؤه ملح أجاج غير مورود"²، واستخدم ألفاظاً متنوعة في وصف الزمن المستغرق في بلوغ تلك المنازل، مثل: "ثلاث ساعات مكملة"³، و "عدة درج هذه المرحلة البهيجة، سبع وثمانون درجة"⁴. وهو على هذا الأسلوب حتى وصل إلى مكة المكرمة ودخل البيت الحرام من باب السلام، فيقول: "لما بلغنا مكة المشرفة، ودخلنا البيت الحرام، واستعملنا طواف القدوم، والسعي بين الصفا والمروة، واكثرنا بيتاً نزلناه إلى أن توجهنا لإقامة مناسك الحج، ونزلنا منى، ثم المزدلفة، ثم عرفة، وعدنا للمشرع الحرام، وأقمنا بمنى"⁵. وبهذا ينتهي طريق الذهاب الذي بلغ فيه مكة المكرمة مرتين، وهذه الرحلة الثالثة رحلة شخصية ذاتية، مما يفسر تنوع الأمكنة التي نزلها فيها، إذ المحرك الأساسي فيها هو ذات أبو القاسم الزباني التي تلبسها الغضب من أحوالها في الخدمة مع الأمراء حتى بلغ أن حذر منها⁶.

➤ **طريق العودة:** ينطلق للمرة الثانية في رحلته الثالثة من أرض الحجاز تحديداً المدينة المنورة، إلى مصر، ثم القاهرة، فعدد من مراسي بلاد الترك والشام وصولاً إلى مدينة الخليل، فوصف انبهاره بمسجدها العظيم "فرايت من حسنه عجا، ومن بنائه ما شئت فضة وذهبا، لا تدرك مبانيه السامية، ولا تلحق آثاره العالية، له أبواب حافلة من الحديد الرفيع، وشباك بديع وبناء بالرخام من الأحجار الضخام العظام، الهائلة المنحوتة بالهندام"⁷، ويظهر في هذا الوصف المباشر لبناء المسجد توظيفه للسجع ليعطي للوصف تأثيراً جمالياً أبلغ، واهتمامه بالقياسات في وصف المباني بارز حاضر، وقد تقدم ذلك، ومنه ما قاله لما شاهد الأحجار العظام: "وعددت طول الحجر الواحد أربعة وثلاثين شبراً وفيها أكبر"⁸. واستطرد في وصفه

¹ الترجمة الكبرى: ص 217.

² المصدر السابق: ص 218.

³ المصدر نفسه: ص 217-218.

⁴ المصدر نفسه: ص 218.

⁵ المصدر نفسه: ص 231.

⁶ ينظر: المصدر نفسه: ص 155.

⁷ المصدر نفسه: ص 265.

⁸ المصدر نفسه: ص 265-266.

للمسجد، فكان مما شده للوصف ما شاهد "في وسط المسجد الكريم من التربة المقدسة، تربة الخليل أبينا إبراهيم عليه السلام، وقد حف بها من التعاليق المذهبة، والستور الملكية، والحلل المطرزة، والمصابيح الفضية والذهبية والمموهة، كل حسن رائع رائق، وأمامها ضريح زوجته الطاهرة سارة رحمة الله عليها، وأمامها ضريح النبي إسحاق عليه السلام، وعليه الستور المدبجة، والرسوم المذهبة بأسمائهم المباركة على جميعها"¹، ويختم ذلك الوصف "بوالله تعالى أعلم بصحة ذلك كله"². والوصف المباشر كثير في هذه الرحلة، فإنه لما نزل بدار المقدس، ودخل المسجد الأقصى، وصفه وصفاً دقيقاً مباشراً معتمداً على ذكر قياس طوله وعرضه، وإحصاء أبوابه، وسواريه، فيقول في ذلك الوصف الدقيق: "وهذا المسجد الشريف، هو أعظم مباني الدنيا، طوله سبعمائة وثمانون ذراعاً، وعرضه أربعمائة وخمسون ذراعاً"³، و"سواريه أربعمائة وأربع عشرة سارية، وأبوابه خمسون باباً يطوف به سور سعته ثلاث خطوات"⁴، ووقف الزيّاني على وصف جهة المسجد الأقصى مستنداً على ما جاء في تفسير قوله تعالى: (فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب)⁵، "أنه سور ببيت المقدس الشرقي، له باب يسمى باب الرحمة، قال: باطنه المسجد، وظاهره وادي جهنم، وفي الجهة القبلية المسجد الأعظم الذي غلب عليه اليوم اسم المسجد الأقصى، فيه الخطبة والجمعة والمنبر"⁶.

ويتجلى اهتمام الزيّاني بتفاصيل المكان، حين أورد نصوصاً دونت في عدد من أجزاء بيت المقدس، منها كان في المسجد الأقصى بأعلى المحراب⁷، وآخر في وسط الأعمدة التي بقبة الصخرة⁸، وهذان النصان كانا توثيقاً لأوامر التجديد الذي حظي به المسجد الأقصى وقبة الصخرة. وقد أخذت قبة الصخرة حقها من الوصف⁹. فوصف نقوشها: وفيها "من النقوش

¹ الترجمة الكبرى: ص266.

² المصدر السابق: ص266.

³ المصدر نفسه: ص267.

⁴ المصدر نفسه: ص267.

⁵ القرآن الكريم: سورة الحديد آية 13.

⁶ الترجمة الكبرى: ص267.

⁷ ينظر: المصدر السابق: ص268.

⁸ ينظر: المصدر نفسه: ص271.

⁹ ينظر: المصدر نفسه: ص269-272.

السرية، والصنائع السنية التي لا تبلغها نقوش أهل الهند، ولا تنتهيها نممة أهل الصين، ولا تدركها رقوم أهل ري¹، ولا تساميتها ديابيج تُستر²، ولا يقارن بها وشي صنعاء³. وأيضًا مما لفت انتباه الزباني في المكان، تعيينه للبقعة التي يصلي فيه الشافعية والمالكية، فيصف ذلك قائلاً: "وأما أبواب المسجد الأقصى الذي يصلي فيه إمام الشافعية، وهو المسقف من الأقصى، وصار اليوم اسم الأقصى علمًا عليه بالغبلة، فعرضه من المحراب إلى الباب الكبير مائة وخمسون قدمًا، وطوله أربع مائة وخمسة وخمسون قدمًا"⁴، "ويصلي إمام المالكية قرب مربط البراق"⁵.

وبعد مستقره ببيت المقدس الذي يدخل من سبعة أبواب⁶، انطلق إلى دمشق، فأطاكية التي دعت له للتعب من هندستها فوصفها "فكان تعجبي من هندسة واضعها أكثر من ضخامتها حيث جل نزول العسكر مستقر في جوف السور، حتى لا يزاحموا سكان المدينة في الدور"⁷، "فمساحة سورها يسير فوقه خمسة فرسان من أعلاه، وفي جوفه من أسفل بيوت مقبوة لسكنى العساكر، عدتها حسبما ذكروا لنا عشرة رجال بمرافقهم"⁸. غير أنه لما عزم الرحيل عن أزمير إلى تونس لبلوغ فاس، وقع الوباء، فنزلوا مضطرين بقلعة تيكلي^(*)، وبعد انفراج الحال نزلوا بتونس، فقسطنطينة التي وقف فيها على مسجد جديد "أسسه حسن باشا"⁹ يوم الجمعة للصلاة، غير أنه عاد إليه ليتأمله، فأنشأ بعدها رسالة يتمدح فيها صنيع حسن باشا، واصفًا فيها المسجد وصفًا طغى عليه المسحة البلاغية للوصف، ومن جملة "جمع له من أنواع المرممر والرخام، من بلاد الأتراك والأورام، من كلّ قائم ومبسوط، ومربع ومخروط، ومدرج ومشجر،

¹ ينظر: الترجمة الكبرى: ص 270 (الهامش: هي مدينة قديمة في فارس جنوبي طهران الشرقي).

² ينظر: المصدر السابق: ص 270 (الهامش: مدينة في إيران، عربستان).

³ المصدر نفسه: ص 270.

⁴ المصدر نفسه: ص 273.

⁵ المصدر نفسه: ص 273.

⁶ ينظر: المصدر نفسه: ص 273.

⁷ المصدر نفسه: ص 279.

⁸ المصدر نفسه: ص 279.

^(*) قلعة بمحافظة آرتفين بتركيا.

⁹ الترجمة الكبرى: ص 375.

ومنقوش ومسطر، وخدود وقُدود¹ إلى آخره، بل حتّى بلغ به أن استنطق المسجد شعراً فقال:
 "فأجابني المسجد بلسان الحال منشداً أربعة عشر بيتاً منها:
 طهر ثيابك وأحسن الوضوء ولا تنس النّحية أن شاهدت أسراري²
 وبعد سبعة أشهر قضاها بالجزائر، انحدر للمغرب، وعاد إلى مسقط رأسه بمدينة فاس.

3. المكان الغاية

أ. الرحلة الأولى: المكان الغاية في الرحلة الأولى لم يوظف الزياني الوصف لإبرازه، بل اكتفى بما ترسمه حركة السرد في بناء النص الرحلي، من دون الخوض في تفاصيل ذلك المكان "فمنها أكثرنا لجدة ومكة، وحصلنا الحج وأتممنا العمرة، ولما فرغنا من مناسك الحج ونوافله، وقضينا مهمات السفر وشواغله، سافرنا مع الركب المصري للمدينة، وزرنا تربة نبي الله ورسوله وأمينه، وكلّ القاصدين عفر بتربته جبينه"³.

ب. الرحلة الثانية: إسطنبول هو المكان الغاية في الرحلة الثانية، وقد غني الزياني برصد الأمكنة في إسطنبول، ووصفها، وتنوعت بين دور الحكومة، والمدارس، والأضرحة، وقصر السلطان عبد الحميد الأول، واحتلت المساجد اهتمامه الأكبر على اعتبار أن الدولة العثمانية حينها كانت مركز الخلافة الإسلامية.

ومن الأمكنة التي زارها الزياني في سفارته دار الوزارة العظمى حيث سلم المكاتب السلطانية للوزير⁴، والدفتدار وهو "محل صاحب الأموال داخلها، وخارجها"⁵، وهو ما يعادل وزارة المالية في يومنا. وقد أمر الأغا باصطحاب أبي القاسم سفير سلطان المغرب، أو كما يطلق عليه عندهم الباشدور إلى عدد من الأماكن المعتبرة في مدينة إسطنبول، وقد ذكرها المؤلف ووصف وظيفة كلّ منها، فدار الضرب هي المكان الذي تخدم فيها سكة الذهب والفضة، ودار الصنعة حيث تفرغ المدافع والمهاريز، ودار القز تقوم بصناعة الديباج والطرز، ودار

¹ الترجمة الكبرى: ص 377.

² المصدر السابق: ص 378.

³ المصدر نفسه: ص 59.

⁴ ينظر: المصدر نفسه: ص 98.

⁵ المصدر نفسه: ص 98.

الزجاج يشكل فيها الزجاج والبلور، والطرسانة دار تنشأ فيها المراكب القرصانية، والسلطانية، والجهادية، ودار الهندسة يتعلم بها علم الهندسة والحساب والتنجيم، ودار الكاغيد يصنع فيها الورق وأنواعه، ودار العدة التي تصنع آلات الحرب، ودار النيشان يتعلمون بها رماية المدافع والمهاريز¹، وكانت زيارة الزياني لهذه الأماكن متفرغة على عدة أيام إذ يقول: "وفي كل يوم نركب ويتوجه بنا لمحل من هذه الأماكن المذكورة"².

ويوظف الزياني الوصف بالمقارنة؛ لوصف الطريق إلى ضريح أبي الأيوب الأنصاري بـ "وبحراً، فهو "على ساعة ونصف، لمن يتوجه في البر، ولمن يركب في الزوارق في البحر على ساعة من الاصطنبول"³.

عُني المؤلف بالمساجد، بل عدّها من عجائب مدينة إسطنبول، فيقول في وصف بعضها: "توجهوا بنا لمسجد الملوك العشرة التي بالاصطنبول، وكل مسجد ندخله يدخلونا إلى خزنة الكتب التي به، وهي عبارة عن دار عظيمة، بابها في صحن المسجد، وبها مقاعد كثيرة، وبها من الطلبة عدد لا يحصى كثرة، منهم من ينسخ، ومنهم من يطالع، وبعد العصر يخرجون، ولا تعار الكتب ولا تخرج من الخزنة حرصاً على حفظها وصيانة لها"⁴، فالوصف يظهر بالتدرج من خلال الوصف بالفعل الذي ينمو بالتزامن مع الحركة التي تعيد تشكيل المشهد من وجهة نظر الرّحال الواصف. وينصبُّ التركيز في هذا الوصف على الجانب العلمي للمساجد من حيث إنّه يحوي على مكتبة زاخرة بالكتب الكثيرة، وإبراز الاهتمام بنسخ الكتب، والحفاظ عليها فلا تعار الكتب خوفاً عليها من التلف والضياع.

ومن أعظم مساجد إسطنبول مسجد آية صوفيا الذي كان فيما سبق كنيسة لذلك يقول الزياني في وصفه: "وشكل بنائها غريب غير معهود في مساجد المشرق ولا في المغرب ولا في الأندلس، لأنها قبة واحدة، طولها من الباب إلى المحراب، ثلاثمائة وخمسة وعشرون قدماً، عبرتها بقدمي"⁵ وهنا يُلاحظ اهتمام الزياني بتحديد القياسات لبيان عظم المكان الموصوف، والوصف هنا مباشر باعتبار مسجد آية صوفيا بناءً هندسياً، إذ بجانب استخدام القدم وحدة

¹ ينظر: الترجمة الكبرى: ص 99.

² المصدر السابق: ص 99.

³ المصدر نفسه: ص 100.

⁴ المصدر نفسه: ص 103.

⁵ المصدر نفسه: ص 114.

قياس في بيان الطول والعرض، بيّن الزيّاني نوع المواد المستخدمة في بناء سوارى المسجد المصنوعة "من الرخام"¹ الذي تتوع بين "الرخام الأبيض الفائق"²، و"الرخام الأبيض الشفاف"³. ويتبع ذلك الوصف الدقيق لآية صوفيا، وصف مساجد الملوك والأمراء والوزراء، منطلقاً من العامل المشترك بين هذه المساجد وهي "الشمعتان والثريات والمصابيح"⁴، ولعلّ المميز فيها أنّ الشمعتان "في غلظ النخلة وطولها، توقدان من المغرب إلى العشاء، ومن الفجر إلى الإسفار، ويجاور كلّ واحدة سلمٌ لإيقادها، له سبع عشرة درجة، وفي كل ليلة المولد تبدلان بأخرين، وما يفضل من الأوليين، يدفع لدار السلطان للبركة"⁵ والعبارة الأخيرة تكشف المنظور الذي يحكم صور المساجد باعتبارها أماكن مقدسة ومباركة.

ويعتبر الزيّاني الوصف بالمقارنة مفتاح لتشكيل صورة أكثر دقة حول المكان الموصوف لذلك بعد بيان الجزء الذي تشترك فيه مساجد الملوك والأمراء ومسجد آية صوفيا، يقول في وصف مسجد السلطان محمد بن مراد الفاتح: "وأقرب من آية صوفيا وعلى شكلها مسجد السلطان محمد بن مراد الفاتح، كله بالرخام، وقبة واحدة"⁶، و"أصغر من آية صوفية مسجد السلمانية التي بناها السلطان سليمان الغازي، في الشكل، والكبر"⁷. ويصف الزيّاني ما لقيه من نسب آل عثمان في خزانة مسجد السلمانية أنّه مكتوب "في أوراق من فضة على شكل أوراق القزدير، كتابتها بالتركي، منحوتة في الفضة، مطعمة بحروف من ذهب"⁸.

ويعقد الزيّاني هذه المرة مقارنة بين مدينة إسطنبول ومدينة بغداد، ويبدأها بقوله: "وحيث ذكرنا ضخامة دولة الأتراك بالقسطنطينية، فلا بد من ذكر ضخامة دولة العرب في الإسلام ببغداد من إقليم العراق"⁹، ويُميز إقليم العراق بأنه "وسط الدنيا وأفضلها، وأعدلها، وعينه بغداد"¹⁰.

¹ الترجمة الكبرى: ص 114.

² المصدر السابق: ص 115.

³ المصدر نفسه: ص 115.

⁴ المصدر نفسه: ص 115.

⁵ المصدر نفسه: ص 115.

⁶ المصدر نفسه: ص 115.

⁷ المصدر نفسه: ص 115.

⁸ المصدر نفسه: ص 103.

⁹ المصدر نفسه: ص 117.

¹⁰ المصدر نفسه: ص 117.

ومدينة بغداد مكونة من تسع مدن كما أحصاها الزياني، وهي على الترتيب دار السلام، والرصافة، ومدينة الهاشمية، ومدينة العباسية، ومدينة سُرَّ من رأى، ومدينة الصناع المسماة دار القز، ومدينة مشهد الإمام أبي حنيفة، والمدينة الهارونية، والمدينة المتوكلية¹، وبغداد كما يصفها المؤلف "بلغت من الضخامة والمباني العظيمة والقصور الشامخة، والهيكل الهائلة لعظماء بني العباس، ما لم يكن لمن كان قبلهم من ملوك الفرس بأقاليم العراق"² ثم ينتقل لمقارنة أخرى بين ما أحصاه من مدن بغداد ومدائن الفرس بالعراق "وهي المسماة بالمداين، التي كان منها القصر الأبيض، ومدينة الاسكندر، وإيوان كسرى الأعظم الذي لم يكن في الدنيا مثله، الذي وجد فيه البساط العظيم المفروش على سعته، في كل ربع منه ستون ذراعاً قطعة واحدة، مفصل بقطبان الذهب الإبريز والأحجار الملونة"³.

وآخر الأماكن التي وصفها الزياني بإسطنبول، هو محل السلطان عبد الحميد الأول عندما توجه الحراس بالزياني للقائه: "دخل بنا على باب صغير قريب قبته، فوجدنا القبة التي يجلس بها السلطان وسريه بها، فقال للترجمان: قل له هذا محل ملاقاتك معه، وخرجنا من بابها لوسط دار السعادة، فوجدنا بها أربعة قبب كالتّي دخلنا منها، والقبب في الأركان، وأربعة مقاعد، مقعد في كل ربع، قائم على عشر سوارى من رخام، كل واحد يقابل الآخر، وفي وسط الدار قبة السعادة قائمة على أربعين سارية، عشر في كل وجه، يقابلن سوارى المقاعد الأربعة، وبين السارية والسارية دربوز من رخام مؤلف في السوارى، فدخل بنا القبب كلها وفي كل واحدة سرير للسلطان، وقال للترجمان: قل له هذه قبة استراحته إذا خرج من الحمام، وهذه المعدّة لأكله، وهذه لصلاته، وهذه لجلوسه"⁴، والوصف بالتدريج يكشف عن محتويات دار السعادة التي تتكون من أربعة قبب، منها ما يكون داراً لجلوس السلطان، وأخرى مكاناً لتناول الطعام، وثالثة لصلاته، ورابعة لاستراحته بعد خروجه من الحمام. وينتقل الزياني للوصف المباشر عند دخوله إلى قبة الاستراحة فيصفها بعين المشاهد المترقب، ودقة السفير واحترازه فيقول: "لما دخلنا لقبة الاستراحة، فتح لنا باباً دخلنا منه فوجدنا الحمام في ناحيته، والميضات في ناحية، وسقف الحمام والميضات من رخام، فيه جداول وترنجات، وأشكال على هيئات،

¹ ينظر: الترجمة الكبرى: ص 117-118.

² المصدر السابق: ص 117.

³ المصدر نفسه: ص 118.

⁴ المصدر نفسه: ص 124.

لدخول الضوء عليها بلا مفروغ، على أطرافه الرصاص والقزدير، يدخل الضوء ولا يدخل المطر ولا الثلج، فدخلنا الحمام فوجدنا محل الجلوس (وطشوت)، وأباريق فتوضأنا¹. وهذا إحصاء أهم الأماكن التي وقف عليها في مدينة إسطنبول.

ت. الرحلة الثالثة: قصد الزيّاني في رحلته الثالثة أداء مناسك الحج، فتحصل له ذلك مرتين، الأولى قصد فيها زيارة مكة المكرمة لأداء مناسك الحج "إنّما أنا رجل حاجّ أريد السفر"² مع ركب الحجاج العثماني الذي انطلق من مدينة الإسكدار مروراً بالبحر وصولاً إلى درب الحجاز المؤدي للبيت الحرام الذي وصفه وصفاً هندسياً مباشراً "ودخلنا على باب السلام، وطول هذا المسجد أربعة وأربعون قوساً، وعرضه ثمانية وعشرون قوساً، وكل قوس عرضه ثمانية عشر قدماً، وهو على أعمدة الرخام، فيكون فيه طولاً سبعمائة قدم، وعرضه أربعمائة وستة وسبعون قدماً"³، أما رحلته للحج مرة ثانية فكانت نتيجة لتعثر العودة إلى المغرب بسبب انتشار الوباء في أفريقيا⁴، مما جعله يقرر العودة من الإسكندرية إلى "مصر بنية العودة للحرمين الشريفين"⁵، فبلغ مكة المكرمة عبر درب الحجاز بعدما اجتاز البحر الأحمر وصولاً إلى مرسى جدة برغم تأخره عشرة أيام بعد خروج الركب المصري للحجاج، وهذه المرة أيضاً يدخل البيت الحرام من باب السلام فيصف أداءه لمناسك الحج موظفاً السجع في ذلك "فدخلنا من باب السلام، وشاهدنا البيت والمقام، وطُفنا طواف القدوم، وذهبت عنا الهموم، وجئنا إلى محل الصفا، وسعينا في طلب الوفا، ولمّا تمّ سعينا والطواف، وحفتنا من عناية الله الإلطاف، أقمنا بمكة الإحرام إلى سابع ذي الحجة الحرام"⁶.

¹ الترجمة الكبرى: ص124.

² المصدر السابق: ص165.

³ المصدر نفسه: ص188.

⁴ ينظر: المصدر نفسه: ص195.

⁵ المصدر نفسه: ص196.

⁶ المصدر نفسه: ص231.

ب. المكان خارج الرحلة

الأمكنة التي جاءت خارج سياق الرحلات الثلاث لأبي القاسم الزياتي، تمتاز أنها ذات امتداد معرفي للأمكنة التي انطلق منها الزياتي أو قصدها في رحلته، أو نزلها في محطات سفره، وفي أحيان أخرى تتبثق من الكتب التي اطلع عليها أو اقتبس منها أو القصص والأخبار التي استذكرها إثر طلل أو شخصية أو حدث معين.

أول الأمكنة التي أفرد لها الزياتي وصفًا جغرافيًا دقيقًا، المغرب باعتباره مكان الانطلاق لجميع رحلاته، وبلد المنشأ، والوطن الذي ينتمي إليه الزياتي، يقول: "وحين عزمنا تقييد هذه الرحلات للمشرق، الأولى والثانية والثالثة، فلا بدّ من تقديم خبر حد مغربنا ومدنه ومن عمره، ومن بنى به قبل دخول البربر له، وبعد دخولهم، وبعد ظهور الإسلام"¹، هذا التقديم يكشف تأثير الثقافة التاريخية عليه كمؤرخ للدولة العلوية في طريقة عرضه للمكان انطلاقًا من حدوده الجغرافيا، الجزء الذي يشغل الوصف منه حيزًا كبيرًا، ثم تاريخ المكان. يصف الزياتي حدود المغرب من خلال الأسلوب الذي كان له حضور بارز في لغته الوصفية، وهو الوصف بالمقارنة، حيث يقارن بين حد المغرب عند الحكماء والمؤرخين، فالحكماء يرون حده "من المشرق، نيل مصر إلى ساحل البحر الأعظم الغربي بوادي نول"²، أما المؤرخون وأرباب الدول فيرون حده "من طرابلس الغرب إلى ساحل البحر الأعظم بالسوس بوادي نول"³.

وفي الرحلة الثانية، ينقطع الزياتي بعد نزوله بمرسى مالقة لوصف مدن الأندلس، يقول: "تعين علينا ذكر مدن الأندلس، إذ هي من حسان مغربنا"⁴، يظهر هذا التقديم للخروج عن مسار الرحلة، والانتقال لوصف المدن، ويكشف عن أهمية هذا التوقف من حيث إنها مدن أندلسية، برغم كونها تحت الحكم الإسباني، هذه الضرورة هي ما دفعت الزياتي للانقطاع لوصفها وصفًا جغرافيًا مع تطعيمه بالمعلومات التاريخية هذه مالقة مدينة حصينة قديمة من بناء الروم، وفي إقليمها مدينة غرناطة، وهي محدثة، وكان بقربها مدينة البيرة، وبقربها مدينة المرية، بساحل البحر، وكانت مدينة الإسلام أيام المسلمين⁵.

¹ الترجمة الكبرى: ص 65.

² المصدر السابق: ص 66.

³ المصدر نفسه: ص 66.

⁴ المصدر نفسه: ص 87.

⁵ ينظر: المصدر نفسه: ص 87.

وأثناء سرده الرحلة الثالثة، يتوقف الزيّاني لوصف إقليم العراق، بعدما أكمل وصف إقليم الشام الذي أقام فيه بمدينة دمشق، "وأما إقليم العراق فعينه بغداد"¹، وبه "ومشهد الإمام علي رضي الله عنه، وعليه مدينة عظيمة حسنة عامرة الأسواق...، وتربته عليها قبة عظيمة مفروشة بأنواع البسط، وستور من ديبقاج، وقناديل ذهب لإيقاد الشمع، وخزائن معمورة بما يأتي من جميع النذور من كلّ بلد"². وفي وصف أهل المكان يقول: "أهلها كلهم روافض، يزعمون أن قبره بها...، وأهلها كلهم تجار، كرام، أهل شجاعة، وإقدام، وجُلهم أشراف"³. والاهتمام بالأضرحة والقبور حاضر بكثرة في الترجمانة الكبرى، كما تقدم ذكره سابقًا.

ولم يغفل الزيّاني عن ذكر بلاد الهند والصين، "وأول بلاد الصين من ناحية الهند، على ساحل البحر الأعظم مدينة الزيتون وليس بها زيتون، ولا بالصين، والهند كله زيتون، وإنّما هو اسم وضع عليها"⁴، ومن مدن الصين "مدينة تتجقوا، مدينة عظيمة ذات أشجار وأنهار، تشبه مدينة دمشق في كثرة الثمار، وهي للمسلمين وبها علماء، وقضاة وتجار، ولها أربعة أسوار، وأربعة خنادق"⁵. ومن عجائب بلاد الهند "مدينة أكثر أهلها الفساد، فمسخهم الله حجارة، ومسخ دوابهم، ومواشيهم، وثمارهم، وحبوبهم حتّى البقل النابت بها على صورته ممسوخًا مشاهدًا"⁶.

¹ الترجمانة الكبرى: ص184.

² المصدر السابق: ص184.

³ المصدر نفسه: ص184.

⁴ المصدر نفسه: ص247.

⁵ المصدر نفسه: ص248.

⁶ المصدر نفسه: ص253.

ومن الجدير بالذكر أنّ الزيّاني عقد فصولاً بحث فيها، الأقاليم السبعة¹، والبحار والمحيطات²، وجزر البحار³، وأشهر الأنهار⁴، وعجائب العيون⁵، والآبار وعجائبها⁶، والجبال وما بها من آثار⁷. ومثال مما جاء في الوصف فيهم، ما كان في وصف جبل أسبرة الذي به "منافع كثيرة من الذهب والفضة والفيروزج، والحديد، والنحاس الأصفر، والأُنك والزئبق، وفيه حجر أسود يحرق ويبيض به، ولا يقوم شيء مقامه"⁸. وأعاد أبو القاسم جمع وتلخيص الأماكن التي أورد ذكرها في الترجمانة وسمى ذلك الجمع بالجامعة⁹، ويبين أنّه ذكر "فيها ما فترق في هذه الرحلة من مدن الأقطار المتفرقة، وجعلتُ مدنها وقلعها وقراها مجتمعة، مضافة بعضها لبعض، حتّى لا يجهل المطالع لها بلدًا أراد من الأقاليم كلها إلا ما خرب منها، وأباده الدهر، وألحق بها ما لم يكن مذكورًا عند من سبق، وحدث بعده كما هو معلوم في الدول"¹⁰، وبدأ الجامعة كما بدأ الترجمانة الكبرى "بمدن المغرب الأقصى من وادي نون إلى وجدة التي هي حد المغرب وقت التاريخ عام ثلاثة وثلاثين ومائتين وألف"¹¹. والأمكنة التي وقف عليها الزيّاني في استطراداته خارج مسار الرحلات كثيرة، إلا أنّا سردنا أبرزها.

¹ ينظر: الترجمانة الكبرى: ص 288-291.

² ينظر: المصدر السابق: ص 291-299.

³ ينظر: المصدر نفسه: ص 299-308.

⁴ ينظر: المصدر نفسه: ص 309-315.

⁵ ينظر: المصدر نفسه: ص 316-319.

⁶ ينظر: المصدر نفسه: ص 320-327.

⁷ ينظر: المصدر نفسه: ص 327-340.

⁸ المصدر نفسه: ص 329.

⁹ ينظر: المصدر نفسه: ص 475-498.

¹⁰ المصدر نفسه: ص 475.

¹¹ المصدر نفسه: ص 475.

ت. الشخصيات في الرحلة

تؤسس الشخصيات للسرد على اعتبار أنها الذوات التي تقوم بالأحداث، ولأن النص الرحلي ينطلق من القيام بالارتحال، ذلك الفعل الذي يحمل قصدية ما بالضرورة، غدت الشخصية عنصراً لا يقل أهمية عن المكان في بنية النص الرحلي، واختيار فصل الشخصيات في الرحلات الثلاث عن التي لم يقع حضورها ضمنها، يعود إلى أهمية تحديد الإطار الذي وجدت فيه الشخصية، وبالتالي بحث أساليب وصف تلك الشخصية ضمن ذلك الإطار، ولعل الأدوار التي تمتاز بها الشخصيات بين شخصية رئيسية، وأخرى ثانوية، وهامشية. يعكس ابتداء المساحة الوصفية التي من خلالها تُقدم الشخصية، والتي بدورها تؤثر في أشكال الوصف، وتكوينه.

يغلب الوصف بالأفعال على وصف الشخصيات، إذ أن الرحلة باعتبارها عملاً سردياً، تستلزم هذا الأسلوب الوصفي الذي لا بدّ منه لنتهض الشخصيات بحركتها أثناء الرحلة. غير أن أساليب أخرى كالوصف بالحوار، والوصف بالتدريج، والوصف بالمقارنة، وحتى الوصف المباشر، وغير المباشر، لا تنفك أن تكون حاضرة مع وجود التباين الذي تفرضه طبيعة الشخصية، فشخصية رئيسية، كشخصية أبي القاسم الزباني، تتكشف عبر الرحلات الثلاث من خلال الوصف بالتدريج، ويأخذ الوصف بالمقارنة مكانته في إبراز قيمتها، وتطورها، وطمأننتها في تلك المواقف التي تدعو للتأسي بالآخر.

1. الرحلة الأولى (1169 هـ)

أ. الشخصيات الرئيسية:

• الأب

ينهض أبو القاسم الزباني بوصف الأب انطلاقاً من تقديمه لجده علي بن إبراهيم الزباني الفقيه الذي "كان نسابة الوقت"¹ كما أخبر عنه تلميذه الشيخ الحسن اليوسي، فقد نشأ أحمد بن علي الزباني في بيئة خصبة بالعلوم في ظل السلطان إسماعيل الشريف الذي اتصل به والده فأمر "بنقله من أراق لمكناسة"²، مما انعكس على شخصيته التي وجدت في تبدل

¹ الترجمة الكبرى: ص58.

² المصدر السابق: ص58.

الأحوال بالمغرب نتيجة الاضطرابات السياسية بعد وفاة السلطان إسماعيل، وتنازع أبنائه على السلطة، دعوة إلى الارتحال وعقد النية "على الرحلة للحجاز بكليته، بقصد الحج والمجاورة بالحرم الشريف"¹ لأنه "سئم المغرب والمقام به، لتبدل أحواله عما كان يعهد، ففر بدينه"²، وسعى في ذلك "قباع دارين كانتا له بفاس"³. وعندما بلغوا مصر، أشار عليه بعض الأصحاب "أن يشتري بعض الأسباب، ويسافر في بحر القلزم مع الركاب، لقلة المشقة وقرب المسافة"⁴، فأخذ بتلك المشورة "قباع له ما باع من تلك الأسباب، واشترى له ما ينفق بتلك الرحاب"⁵، وما أن بلغوا البلد الحرام وأقاموا الفريضة وزاروا الرسول صلى الله عليه وسلم حتى أدرك أن المقام بهذه البلاد عسير "يحتاج إلى ذات اليد واليسار، وتعين الرجوع للمغرب"⁶. فمن خلال الجمل الفعلية السابقة التي بها تسرد أحداث الرحلة إلى الحجاز، تتكشف صفات شخصية الأب الذي يسعى إلى الاستقرار، ولأن فراق الوطن صعب كان لابد من اختيار وجهة تبعث في نفسه ذات الاطمئنان الذي فقده إثر تبدل أحوال المغرب، فلم يجد بقعة تُشد الرحال إليها أخير من بيت الله الحرام، ومسجد رسوله صلى الله عليه وسلم طلباً للمجاورة، هذا الشق من الأحداث يكشف عن شخصية مرتبطة بالدين، بل تجد فيه ملاذاً آمناً لها، وهذه الشخصية تبذل في سبيل اعتقادها وما تؤمن به وما تسعى إليه الغالي والنفيس، وهذا ما جعله يبيع الدارين في سبيل تمويل الرحلة، بل وما وجد في تكسر المركب الذي اكثروه لعبور البحر للحجاز رادعاً يثنيه عن التقدم نحو هدفه، وهنا تظهر صفة أخرى تتمثل في الإصرار والسعي في سبيل الغاية مهما بلغت الصعوبات. غير أن هذه الشخصية التي تُرسم ملامحها تدريجاً، وجدت خيار العودة للمغرب خياراً مرجحاً على الرغبة بالبقاء في الديار المقدسة بالنظر لتكلفة المعيشة بها، فكان اختياراً منطقياً، لم يبدل فيه سعيه طلباً للاستقرار، وأن تغيرت الوجهة من المكان الغاية إلى مكان الانطلاق، فمقامه في الديار المقدسة مع ابنه وزوجته يحتم عليه مسؤوليات لا يمكن تجاهلها، بل إن حضورهما معه جزء من تصوره لحالة الاستقرار التي

¹ الترجمة الكبرى: ص 57.

² المصدر السابق: ص 58.

³ المصدر نفسه: ص 57.

⁴ المصدر نفسه: ص 58.

⁵ المصدر نفسه: ص 58.

⁶ المصدر نفسه: ص 58.

سعى في سبيلها، وفرّ من بلاده إليها، فصارت الآن بلاده مكاناً ينعم فيه بالاستقرار، مادام المال فيه حاضراً والبيت فيه قائماً.

شخصية الأب كما يصورها الزيّاني عبر سرده لأحداث الرحلة الأولى، شخصية متواضعة، بسيطة، تسعى في طلب الاستقرار، مبادئها واضحة، ولا تتبدل، ولكنها تجعل من واجبها الأخلاقي تجاه عائلتها غاية في حد ذاتها. ولعلّ هذا ما يفسره الحوار الذي دار بين الزيّاني وأبيه حول التحاق الزيّاني بالخدمة المخزنية، فنهاه والده عن ذلك، وبين له مآل من يسعون في خدمة السلاطين، محاولاً نقل حصيلة ما عاينه وشاهده من كتاب، ووزراء، آل بهم المآل خارج الخدمة منبذين بعد أن كانوا من المصطفين المقربين¹.

II. الشخصيات الثانوية:

• الأم

شخصية الأم تظهر في وصف المؤلف لدورها في حل الأزمة التي وقعوها بها من "تكسر المركب وتلف البضاعة والأسباب"²، وهي النكبة الأولى من نكبات الزيّاني السبع، فالأم امرأة تتصف بالحكمة كما يبدو من وصف حالة الأم وتصرفها في تلك النكبة، وعنها يقول ابنها أبو القاسم الزيّاني: "كان عند والدتي ثلاثمائة دينار مخيطة في حزامها، أعدتها لحادث الدهر إن ألم بها، لا علم لنا بصريحها ولا إبهامها"³، وبقية مدخراتها خبيثة حتى قطعوا مرسى الينبع، فيكمل الزيّاني سرده ما قامت به والدته "فأخرجتها لوالدي وقالت: هذه كنت ادخرتها من خالص رزقي لولدي"⁴، فوالدة الزيّاني كما يتضح من سرده لما قامت به مع زوجها في أزمتها، امرأة تتمتع بقدر من الحكمة، وحس المسؤولية، وخاصة تجاه ابنها أبو القاسم الذي حصّته بادخارها المال. ولا نجد لها ذكر في غير هذه الموضع من الترجمة.

¹ ينظر: الترجمة الكبرى: ص 61-62.

² المصدر السابق: ص 59.

³ المصدر نفسه: ص 59.

⁴ المصدر نفسه: ص 59.

• الابن

شخصية أبو القاسم الزيّاني ذو الثلاث والعشرين سنة، تعد شخصية ثانوية فالأب هو الشخصية الرئيسية والمحركة للأحداث، فالابن في هذا العمر لا يسعى إلا في خاطر أمه وأبيه إذ لم يبقَ لهما غيره ، وقد وصف نفسه: "وكنّت أسعى في خاطره ورضاه بكل ما يرضاه، وأسعى في خاطر والدتي على طيشي وحدثي"¹، فالابن البار كان يكابد طيش الشباب وحدثه في سبيل نيل رضا الوالدين، وهو ما يعكس البيئة التعليمية التي نشأ فيها، والمنزل الذي احتضن فيه جده وأبيه مجالس العلم²، وبسبب اندفاع الشباب لما نزل بمصر لقي من ابن صاحب والده أفعالاً عجيبة انبهر بها، فيصف ما شاهده منه "كان له يد في علم الرمل وعلم السيمياء ، ومن رأى تصوراته يحسب أنه من الأولياء ، فشغفت بفته واتخذته شيخاً، ولازمته حتّى ملكتُ حبّه بالسّخاء"³. فيبدو أنّ الشابّ أبا القاسم الزيّاني كان مولعاً بالعلوم الغربية، ويؤمن بكرامات الأولياء، وهذا يظهر في وصفه لمدى إعجابه وافتنتانه بابن صاحب، وسعيه في تعلم الأمور التي رآها منه، وبل اتخذته شيخاً وبذل في سبيله ما بذل حتّى ملك حبّه.

• ابن الصاحب

انبهر الزيّاني بابن صاحب والده، لما رأى منه من الأفعال العجيبة التي شبهها بكرامات الأولياء "ومن رأى تصوراته يحسب أنّه من الأولياء"⁴، فقد تمتع هذا الابن بمعارف عجيبة كما يصفها الزيّاني "أوقفني على ما في علمه من خواص المعادن، وما ينشأ عنها من الأسرار والعجائب التي يبلغ المرء بها أعلى المراتب، وأطلعني على ما يلحق بها من الحيل التي يستعملها المشعوذون، ومن بحرهما يستمدون"⁵، وهذا ما أضفى على الزيّاني الشاب السرور "فعدتُ بذلك مسروراً، وقلت: كان هذا حجاً مبروراً"⁶.

¹ الترجمة الكبرى: ص58.

² ينظر: المصدر السابق: ص56-57-58.

³ المصدر نفسه: ص59.

⁴ المصدر نفسه: ص59.

⁵ المصدر نفسه: ص59-60.

⁶ المصدر نفسه: ص60.

III. الشخصيات الهامشية:

تلعب الشخصيات الهامشية دورًا أيضًا في التأثير على سير الأحداث دون احتلالها مساحة كبيرة من السرد، ومن الشخصيات الهامشية في الرحلة الأولى أصحاب والد الزيّاني الذين أشاروا عليه "أن يشتري بعض الأسباب، ويسافر في بحر القلزم مع الركاب، لقلّة المشقة وقرب المسافة"¹، ويتضح من قبول الوالد مشورة أصحابه، أنهم على علم بطرق السفر، نظرًا لوصفهم طريق البرّ بالمشقة وطريق البحر بقلّة المشقة وقرب المسافة.

2. الرحلة الثانية (1200 هـ)

I. الشخصيات الرئيسية:

• سلطان المغرب محمد الثالث

الشخصية التي اتخذت قرار الرحلة الثانية، باعتبارها رحلة سفارية، هو سلطان المغرب محمد الثالث، وذلك إثر لقائه مع السفير العثماني إسماعيل أفندي، والخلافات التي بلغت ذروتها مع أهل الجزائر، وكان هدف هذه الرحلة إبراز قوة المغرب، ومكانته في المنطقة، إذ قد أرسل السلطان محمد الثالث مع الكاتب السيد محمد الحافي "مئتين وأربعة وسبعين ألف ريال، لفداء الأسرى المسلمين في مالطة، بيد أنّ الكفار ردوا المال، ورفضوا الإفراج عن الأسرى، فأمر السلطان حينها بتوجيه المال إلى السلطان عبد الحميد الأول في إسطنبول، إذ أبى السلطان أن يعود المال إلى خزانة دولته، بعدما نواه في سبيل الله، وهذا يعكس علو همته في نصرة الإسلام. غير أنّ "القائد علال الدراوي، والقائد قدور البرنوصي، والكاتب السيد محمد الحافي"²، لمّا نزلوا إسطنبول ولم يجدوا "وزير البحر حسن باشا"³ وسألهم أهل الدولة هناك عن الهدية على العادة، "أخذوا من المال أربعة عشر ألفاً"⁴، فلمّا التقوا بالوزير حسن باشا وقرأ في الرسالة أنّ المبلغ المرسل من سلطان المغرب مائتان وأربعة وسبعون

¹ الترجمة الكبرى: ص 58.

² المصدر السابق: ص 83.

³ المصدر نفسه: ص 83.

⁴ المصدر نفسه: ص 83.

ألفاً، ولم يبلغهم سوى مائتين وستين ألفاً، فسألهم عن المال فأجابهم أحدهم بجواب خارج عن الصواب، وقال إن المال دفعناه للوزير... فلا كلام لنا معك، فأمر بطردهم من إسطنبول، فخافوا من سلطان المغرب على ما اقترفوه "فتوجهوا للمشرق، ولم يعودوا للمغرب"¹، فبلغ خبرهم سلطان المغرب فغضب عليهم.

وشخصية السلطان محمد الثالث التي عرف بتقواه، و"ولعه بسرد كتب السيرة والحديث"²، بل وكلف المحدثين من فاس ومكناس بالتفرق "على مساجد مراكز لتدريس العلم، ويحضرون مجلسه بعد صلاة الجمعة للمذاكرة في الحديث، إلى أن صار يؤلف فيه على مقتضى غرضه"³. فلما بلغه حال أهل الجزائر "وما هم عليه من الجور والظلم لضغفاء العرب، والعيث فيهم بالقتل وارتكاب المحرمات في دين الإسلام"⁴، أبى السكوت عن أفعالهم، وحاول نهيمهم عن الكبائر، وحضهم على الإحسان والعدل، غير أنهم أبوا، فكتب إلى سلطان الدولة العثمانية عبد الحميد الأول يشكو أفعال أهل الجزائر، إلا أن الرد الذي حملة السفير العثماني إسماعيل أفندي جاء بالعدر لأهل الجزائر، فوجه بعدها السلطان محمد الثالث رسالته للعثمانيين التي فيها "إن لم ترفع ضررهم عن المسلمين فدعني وإياهم"⁵ مع كاتبه عبد الكريم العوني التطواني. فشعر العثمانيون بعظم المسألة فكتبوا "لباشا الجزائر، وباشا تونس أن يتأدبوا مع السلطان مولاي محمد سلطان المغرب، وينفذوا ما يكتب لهم عليه، ويفعلوا معه من الأدب ما يفعلونه مع السلطان عبد الحميد"⁶.

فلما التقى السلطان محمد الثالث بالسفير العثماني إسماعيل أفندي، وقرأ في رسالتهم "يطلبون إعراضه عن أهل الجزائر، وأنهم مجاهدون، فليحسن جوارهم ويغض الطرف عن جهلهم، وأفعالهم الذميمة، ولا يقابلهم بمكروه"⁷، وكان قد أبلغ العوني السلطان "أن السلطان عبد الحميد أعطاه الجزائر وتونس"⁸ بعدما سمع من السفير بالمركب "أن السلطان عبد الحميد كتب لهم أن

¹ الترجمة الكبرى: ص 83.

² المصدر السابق: ص 63.

³ المصدر نفسه: ص 63.

⁴ المصدر نفسه: ص 83.

⁵ المصدر نفسه: ص 84.

⁶ المصدر نفسه: ص 84.

⁷ المصدر نفسه: ص 84.

⁸ المصدر نفسه: ص 84.

يكونوا عند أمر مولاي محمد"¹. غضب السلطان محمد الثالث، من فعل رجاله الذين أرسلهم بالمال الذي أخرجه في سبيل الله، ومن تصرف السفير العثماني الذي قرأ تلك الرسالة "بأعلى صوته إلى أن ختمه"²، وما فيه إلا العذر لأهل الجزائر والاستيلاء بهم، وقرر بعث هذه الرحلة السفارية بقيادة أبو القاسم الزياني.

لم يصف الزياني السلطان محمد الثالث وصفاً مباشراً إلا في مواضع قليلة كقوله: "كان رحمه الله مولعاً بأفعال الخير، وادخار ثوابها للأخرة، وكان ينفق الأموال التي لا تسمح نفس مالك بإففاقها ابتغاء مرضاة الله وثوابه"³، لذت برز الوصف أكثر من خلال الأفعال الراسمة لمسار الأحداث، التي يتضح منها أن شخصية السلطان محمد الثالث شخصية متصلة بالدين، وتتخذ منهاجاً لها، ولعل الكتب التي أوصى سفيره الزياني بشرائها من إسطنبول تعكس اهتمامه الشديد بالعلوم الشرعية يقول الزياني: "واشتريت الكتب التي أوصاني بشرائها أمير المؤمنين، وهو (مسند أبي حنيفة النعمان)، و (مسند الإمام الشافعي)، و (مسند الإمام أحمد)، و (الطريقة المحمدية المختصرة من الإحياء)"⁴، وكذلك سعيه في نصر دين الله، فإن وزير السلطان عبد الحميد الأول لما عظم عليه مؤونة الجيش في حربهم مع الروس أشار إليه بطلب المال من سلطان المغرب فقال: "توجه إلى سلطان المغرب يسلفنا مالا، فإنه لا يبخل علينا به وإنه لينفقه في سبيل البر"⁵، وذلك ما أكدته سفيره الزياني بقوله: "إن سلطاننا له رغبة في الجهاد، ولولا مشقة البحر وبعد المغرب لسعى للجهاد بنفسه"⁶، وأما المال "والله يعطيه دون سلف، فلا ترضى همته السلف"⁷، وذلك ما قام به بالفعل السلطان محمد الثالث الذي وجه "بعدد الستمائة ألف ريال، وخمسين ألف ريال، سبائك من الذهب، جعلها في أربعة صناديق وختم عليها، ووجهها لطاغية الاصبنيول، يوجهها لطاغية الفرنسيين، وهو يبلغها ليد السلطان عبد الحميد بالاصبنيول"⁸، وهذا المسار الذي عينه لوصول

¹ الترجمة الكبرى: ص 84.

² المصدر السابق: ص 85.

³ المصدر نفسه: ص 131.

⁴ المصدر نفسه: ص 126.

⁵ المصدر نفسه: ص 121.

⁶ المصدر نفسه: ص 122.

⁷ المصدر نفسه: ص 122.

⁸ المصدر نفسه: ص 131.

المال إلى السلطان عبد الحميد الأول كان بغاية "النكاية لهم والإرغام لأنوفهم"¹، وذلك شيء من الحنكة السياسية التي امتاز بها، ولم يقف جهاده في سبيل الله عند هذا الحد، فقد وجه أيضًا في سبيل فكك الأسرى بمالطة "مائتين واثنين وسبعين ألف ريال"²، ردّها الإسبان، فوجهها إلى السلطان عبد الحميد الأول في سبيل الله، وأرسل لهم اثني عشر ألف قنطار من ملح البارود، وأربعة آلاف قنطار من النحاس، وأربعة مراكب مع قراصينه، غيرها أربعة مراكب آخر³، وبالإضافة إلى علو همته، وتقواه فإن له من الدماء ما أهله إلى قيادة المغرب في وسط منطقة تعج بالاضطرابات السياسية، محافظًا على استقرار بلاده، ومكانتها بين الغرب الأوروبي من جهة والإمبراطورية العثمانية من جهة أخرى.

• سلطان الدولة العثمانية عبد الحميد الأول

تتلخص المقاطع الوصفية المتصلة بشخصية السلطان عبد الحميد الأول التي اتسمت بالتواضع، والعطف، وسعيه في الحفاظ على الخلافة الإسلامية في وجه المد الأوروبي الذي كان يجتاح العالم آنذاك، فيما وصفه الزباني بقوله: "هذا السلطان من الصالحين ساعيًا في أفعال البر، محبًا لأهل الخير والدين"⁴، وتكشف ذلك أيضًا عبر ردة فعله لما بلغه مكتوب الروس بالحرب لستة أشهر "فتغير لذلك وعظم عليه أمرها، وبلغ منه مبلغًا لشفقته على المسلمين"⁵. والبيئة المحيطة به تبرز عظم إمبراطوريته وملكه من وصف الزباني لقصره⁶، وعظم مساجد إسطنبول كآية صوفيا⁷، وكثرة المساجد فيها⁸، وما لقيه العلماء والتعليم من اهتمام في دولته⁹، فبرغم المؤامرات التي كانت تحيط بالإمبراطورية العثمانية، كان لا يزال يكتسي ببريق التاج العثماني.

¹ الترجمة الكبرى: ص131.

² المصدر السابق: ص132.

³ ينظر: المصدر نفسه: ص132.

⁴ المصدر نفسه: ص121.

⁵ المصدر نفسه: ص121.

⁶ ينظر: المصدر نفسه: ص124.

⁷ ينظر: المصدر نفسه: ص114.

⁸ ينظر: المصدر نفسه: ص115.

⁹ ينظر: المصدر نفسه: ص111-113.

وعند الحديث عن السلاطين قديماً، تحضر أشكال مختلفة من التبرك بالسلاطين والملوك ومنها ما وصفه الزياني لما خرج من عند السلطان عبد الحميد الأول "جاءنا أهل القبة، فأكبوا على تقبيل أيدينا، وطلب الدعاء منا، وقالوا: هذا الذي قبل يد السلطان عبد الحميد، وقبل ركبته، وجلس أمامه"¹.

• سفير المغرب أبو القاسم الزياني

الرحلة الثانية، رحلة سفارية قام بها الزياني عام 1200هـ في عقده الخمسين، بأمر من السلطان محمد الثالث اختاره ليكون سفيراً للمغرب في الدولة العثمانية، خاصة أنه يثق به إثر عمله في خدمته عقوداً من الزمن، صار فيها خبيراً في أمور السياسية، ويستشف ذلك من حديث السلطان محمد الثالث مع الزياني حين استدعاه، "اخترتك لتشفي غليلي في أمرين: أحدهما أن تقبض على أولئك الظلمة الذين سرقوا من مال الله، والثاني تسفه هذا الباشدور الذي كذب علي، وتعرفهم أنه لا يصلح للسفارة بين الملوك، ويلزمه ما يلزم أصحابي الذين سرقوا من مال الله"²، ينتهي هنا كلام السلطان، ويبدأ السرد في الكشف عن شخصية الزياني السفير، إن كان حديث السلطان وصفاً غير مباشر لرجلٍ اتخذهُ السلطان سفيراً للمغرب، يفهم عنه أنه يملك من الحنكة ما يؤهله ليكون بخلاف السفير العثماني، أي مؤهلاً للسفارة بين الملوك، ويمتاز بالدهاء ما به يستطيع تسفيه السفير العثماني، ومن رباطة الجأش والحكمة ما يجعله قادراً على الإمساك بالذين سرقوا من المال الذي خرج في سبيل الله؛ فإن السرد يكشف صفات آخر؛ فإن الوصف بطرق غير مباشرة يتحدّ مع السرد في عملية يسميها محمد الناصر العجيمي بتسريد الوصف³، تظهر من خلال "كشف الموصوف بحسب تنقل عين الواصف، وحركتها"⁴، أي أن الزياني سيكشف عن شخصيته من خلال عينه التي تلتقط الصور، وعقله الذي يفسر ويعالج المواضيع وصورها في الذهن، منتجاً سرّداً توظف فيه تقنيات الوصف من وصف بالأفعال كقوله: "وكان هذا الباشدور لما خرجنا مألقة، طلب مني أن ندخل للجزائر ليدفع الكتاب الذي معه لباشا الجزائر، فلم أوافقه لأن أمير المؤمنين

¹ الترجمة الكبرى: ص126.

² المصدر السابق: ص86-87.

³ ينظر: العجيمي، محمد الناصر: الخطاب الوصفي في الأدب العربي، الشعر الجاهلي أنموذجاً، ج1، ج2، تونس، منشورات

سعيدان، جوان، 2003، ص.405.

⁴ المصدر السابق: ص405.

أوصاني على عدم الدخول لها"¹، فالملازمة التي لازم بها الزيّاني السفير العثماني، حتّى منعه من دخول الجزائر، يعكس ما يتصف به من انضباط وجدّيّة في أداء وظيفته كسفير حتّى قبل بلوغ محل سفارته. كما يظهر الجانب الانفعالي من شخصية أبو القاسم حين يصف حاله لما بلغ بالسفير العثماني أن "سرح لسانه بالشتّم في دولة المغرب وأهله"²، إذ تدرّج الحال عنده انطلاقاً من انعكاس البيئة العلمية الغنية بالعلوم الشرعية بوعظه "المرة بعد المرة"³، ثم بلغ به أن "يسبّ أمير المؤمنين ويدعو عليه"⁴، وهنا تبدل حال أبي القاسم، ووجد أنّ الوعظ لن يردعه فقال: "فقمْتُ إليه، وأخذتُ بلحيته وقبضه خدامي، وهو يصيح، فقلتُ: والله يا ملعون لأنّ تقرب بذبحك قبل الموت، وجاء الرئيس وأعوّاه فرغبوني فيه، وسرحوه من يدي، وخلصنا من تلك الورطة"⁵، فبعد الوعظ، وجد أنّ لا سبيل إلى إسكاته إلا بالقوة، وذلك ما فعله ولم يخلّ سبيله إلا بعدما تدخل رئيس المركب وأعوّاه. وقد ترسّمت هذه الحالة الانفعالية عبر توظيف تقنية الوصف بالتدرّج، لكن ليس وصفاً خالصاً، بل هو أقرب لأن يكون تسريداً للوصف، بحيث إنّ الملتقي لما يقرأ هذه الأسطر، ترتسم في ذهنه صورة المشهد الذي يرسم شخصية السفير المغربي أبو القاسم الزيّاني الصنهاجي الأمازيغي⁶، وهذه الصورة لا يمكن أن تقوم دون عملية السرد التي تبني الحكي بوصفه جوهر الأعمال السردية.

ومن الجوانب التي تصف شخصية الرّحال، ما يلفت انتباه عينه، ذلك أنّ انبهار العين، وإطالة النظر، وبذل الجهد في بلوغ الموصوف، تصف البناء المعرفي، والثقافي الذي تمتاز به شخصية الرّحال، والزيّاني بوصفه رّحالة وسفيراً في آنٍ واحد تنوعت الأشياء التي لفتت انتباهه، فالمشاهدة بعقلية موسوعية هي البوابة التي من خلالها يزدهر الوصف عند تحوله إلى صورته اللّغوية، يصف الزيّاني ما رأى من مساجد ومدارس في إسطنبول "بعجائب مدينة الإسطنبول"⁷ مما يعكس أهمية الدين بالنسبة إليه؛ وذلك ليس بغريب في عصره، حيث سعى المسلمون خاصة

¹ الترجمة الكبرى: ص96.

² المصدر السابق: ص96.

³ المصدر نفسه: ص96.

⁴ المصدر نفسه: ص96.

⁵ المصدر نفسه: ص96-97.

⁶ ينظر: المصدر نفسه: ص58 (نسبه إلى أمازيغ ابن نبذا).

⁷ المصدر نفسه: ص103.

المتعلمون منهم إلى تنشئة أبنائهم على العلوم الشرعية، ابتداءً من حفظ القرآن الكريم¹، فأغلب الأمكنة التي وقف عليها في رحلاته عمومًا هي المساجد والأضرحة، وكأنّها أول ما تنقاد إليها عينه المتأملّة في أفق الرحلة، كما أظهر شخصية المؤرخ حين سعى في تلخيص مؤلف (تأليف الروح عن تاريخ آل عثمان) لكمال الدين باشا، وقد أحال في ذلك السياق أيضًا إلى كتابه المشهور (الترجمان المعرب)^(*) بقوله: "وخبّر عجائب الإصطنبول لا يسعها هذا الاختصار، وقد بسطت الكلام فيها في تأليف (الترجمان)، فليطالع من أراد الوقوف على ضخامة الإصطنبول"²، وقد كتب كمال الدين باشا للزيّاني كتاب تقدير وإجازة فيما لخصه، يصف فيه الزيّاني بأسمى الصفات "عجبتُ من حسن ملكته وترتيبه، ونباهته وتنقيحه، وتهذيبه، وعوضه على ملتقطات دره وجمع غريبه، وعلمتُ أنّه من فحول الرجال، ومن أهل النباهة والكمال..."³، ولأنّه سفير ومن مهام السفير غير المباشرة في سفراته هي الاطلاع على ثقافة الآخر لذا نجد عينه الفاحصة ما تقف على شيء إلا وقيدته، ناقلةً إيّاه من حيز المعاينة والمشاهدة إلى حيز الكتابة، ومن ذلك "ترتيب العلماء بالإصطنبول ومرتب كل واحد في الشهر"⁴، و"كيفية اختبار المتعلمين"⁵، و"كيف يفرق المرتب العسكري"⁶. وكل ذلك يعكس البناء الثقافي والمعرفي لشخصية الزيّاني، أبو القاسم السفير الذي تمرس في السياسة استطاع بلوغ قصر السلطان عبد الحميد الأول والنقى به، مما جعله محط حسد رجال الدولة⁷، وهذا يعكس المكانة التي بلغها الزيّاني في هذه السفارة بلقائه بالسلطان عبد الحميد الأول، يبرز الزيّاني ما لقيه من حظوظ لم تحصل ربما لغيره من سفراء المغرب إذ يصف حاله في تحية السلطان عبد الحميد "ولما واجهناه، وقربنا منه وقفوا فاستعملتُ أنا التحية كعادتنا مع سلطاننا إذ وقفنا أمامه، نقبل الأرض، وذلك يعد من سجود الشكر[!]، فلما هويت الأرض أرادا ردي فأشار لهم بالكف، والرجوع عني، وتبسم ووضع يده على فمه، ولما قمْتُ من السجود تقدمتُ إليه، وقبلتُ ركبته، وهو متربع على سريره، وقبضتُ على يده اليمنى بكتلتا يدي، فقبلتهما، وتأخرتُ فأشار لي

¹ ينظر: الترجمة الكبرى: ص 56-57-58.

^(*) الترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب، مؤلف للمؤرخ أبو القاسم الزيّاني، غير أنّه لا يزال حبيس المخطوطات.

² الترجمة الكبرى: ص 104.

³ المصدر السابق: ص 110.

⁴ المصدر نفسه: ص 111.

⁵ المصدر نفسه: ص 113.

⁶ المصدر نفسه: ص 120.

⁷ ينظر: المصدر نفسه: ص 126.

بالجلوس، فجلستُ وبصري إلى الأرض¹، إنَّ هذا الوصف الدقيق والمفصل لطريقة تحية سفير المغرب لخليفة الدولة العثمانية حينها، يُراد به إظهار حنكته، ونباهته، وحظوته بين أقرانه من أصحاب المهام السفارية في دولة المغرب على أيامه، وهذا ما يؤكد ما نقله على لسان بعض رجال قصر السلطان العثماني حين علموا بصنيعه إذ "قالوا هذا قبل يد السلطان عبد الحميد، وقبله ركبته وجلس أمامه، شيء لم يقع عندهم لأحد²، ويزيد بعدما طلبوا منه الدعاء تبرُّكًا به "فساعدناهم بالدعاء"³.

• سفير الدولة العثمانية إسماعيل أفندي

ظهرت هذه الشخصية وهي تحمل مكتوب الدولة العثمانية من الوزير حسن باشا⁴، بعدما وجد أنَّ ما بلغهم من المال ينقص منه أربعة عشر ألف ريال مما هو مقيد في رسالة المبعوث المغربي. إذ وجه الوزير العثماني حسن باشا "كاتبه إسماعيل أفندي بكتاب وهدية، وعذر عن أهل الجزائر"⁵، وجاء في وصفها على لسان السلطان محمد الثالث كما أورده الزياني "هذا الباشدور الذي كذب علي⁶، و" لا يصلح للسفارة بين الملوك"⁷، وأما الشيخ الحاج عبد الكريم بن يحيى، القائم على ركب الحجاج المغاربة فقد وصفه في رسالته إلى السلطان شاكيًا إليه ما لقوه من هذا السفير العثماني "إنه يفسد عملهم بما يسمعون منه من السب والطعن في جانب الدولة"⁸، وقد جاء في أنه كان "يكاتب أمير المؤمنين، فيرد جوابه بالوعد"⁹، وفي الطريق إلى إسطنبول عاد يشتم "في دولة المغرب وأهله... ويسب أمير المؤمنين ويدعو عليه"¹⁰، ويؤكد مرة ثالثة الزياني على تجرؤ إسماعيل أفندي على لسان الترجمان التركي الذي كان حاضرًا معه منذ انطلاق الرحلة مع السفير

¹ الترجمة الكبرى: ص 125.

² المصدر السابق: ص 126.

³ المصدر نفسه: ص 126.

⁴ ينظر: المصدر نفسه: ص 83.

⁵ المصدر نفسه: ص 84.

⁶ المصدر نفسه: ص 87.

⁷ المصدر نفسه: ص 88.

⁸ المصدر نفسه: ص 86.

⁹ المصدر نفسه: ص 86.

¹⁰ المصدر نفسه: ص 96.

العثماني من تطوان "هذا الترجمان الذي هو منكم ومن بلادكم يجيبكم عن فعله وقوله، فصار يعدُّ لهم أقواله وأفعال إلى أن سب السلطان محمد ، وسب السلطان عبد الحميد"¹.

II. الشخصيات الثانوية:

• القائد علال الدراوي، والقائد قدور البرنوصي، والكاتب السيد محمد الحافي

وَجَّه هؤلاء الثلاثة لإيصال المال الذي أُخرج لعداء الأسرى المسلمين في مالطة إلى السلطان عبد الحميد الأول، غير أنهم لم يحسنوا التصرف مع أهل الدولة الذين اعتادوا على تلقي الهدايا من السفراء، فأخذوا من مال الأسرى أربعة عشر ألف ريال، ولمَّا سألهم الوزير حسن باشا عن النقص مقارنة بالرقم المذكور في المکتوب، أجابوه بجواب كما وصفه الزيّاني بشكل مباشر بأنّه "جواب خارج عن الصواب"²، ونتيجة لذلك طردوا؛ "فخافوا سطوة أمير المؤمنين"³، مما دعاهم للجوء إلى المشرق هرباً من المغرب. وبرغم مساحة هذه الشخصيات البسيطة، إلا أنّها سبب رئيسي في انطلاق الرحلة الثانية.

• الكاهي باي

يصف أبو القاسم خليفة الوزير (الكاهي باي) وصفاً مباشراً يمتدحه فيه "كان شريفاً أصله عربي من العبيديين ملوك أفريقية ومصر، وكان مؤرخاً، أديباً، فاضلاً، يحسن اللسان العربي"⁴، ومما وُصف به ما قاله الزيّاني: "من جملة إكرامه لنا، أمر الأغا الذي نزلنا عنده، وهو المكلف بأمرنا، والقائم بضرورياتنا، أن يتوجه بنا للوقوف على جميع الأماكن المعتبرة عندهم بالإصطناب"⁵.

¹ الترجمة الكبرى: ص 97.

² المصدر السابق: ص 83.

³ المصدر نفسه: ص 83.

⁴ المصدر نفسه: ص 99.

⁵ المصدر نفسه: ص 99.

• الكاتب محمد بن عثمان المكناسي

يُقدم الزياني شخصية الكاتب محمد بن عثمان المكناسي في عدد من مراحل الرحلة الثانية، الأولى حاملاً مكاتب السلطان إلى إسطنبول¹، الثانية في بيت الأغا الذي نزل عنده أبو القاسم في سفارته، والثالثة حضوره لإكرام الوزير أبا القاسم الزياني "بما هو معلوم عندهم من حق الحمام، ومكافأة الهدية، وكل واحد من الوزير وأهل دولته يوجه لنا ليلة للضيافة ببيته، ومن الغد يتوجه بنا للنزهة في بستانه"² بعدما دفع "الهدية للوزير وأهل دولته، كل واحد منهم بهديته على قدر منصبه"³، فقال ابن عثمان وعمر لوزيقي: "إنّ هذا الهوان أوقعنا فيه عبد الملك وابن يحيى"⁴، إذ أنّهم عينوا ووجهوها لأهل الدولة "فتضاحكوا عليها"⁵. والرابعة وهي التي برز فيها وصف مباشر للانفعالات السلبية التي تتلبس العلاقات بين أصحاب المجال، فيصف الزياني حال محمد بن عثمان في بيت كمال الدين باشا "وجدت صاحبنا محمد بن عثمان سبقني إليه، حيث بلغه اختصاري للتأليف، ولم يجد هو إليه سبيلاً، بلغ به الحسد كل مبلغ، وأراد رؤيته، إذ أخبره الترجمان بتوجهي إليه يوم الخميس، فسبقني حتّى يكون وقوفه عليه اتفاقاً غير مقصود"⁶، وأنّه حين أراد قراءة الملخص على الشيخ وصف أبو القاسم حال محمد بن عثمان "أراد الحاسد أن يسومني بالحن والتخطي"⁷، فأجابه الزياني بقوله نقلاً عن ابن القويّع الهاشمي: "لا تتكلم إلا فيما تعلم، ودع عنك ما لا تعلم"⁸، ويتضح من هذا الوصف المباشر جدّاً، ومن حضور محمد بن عثمان في عدد من المشاهد أثناء الرحلة، أنّه كان يتشارك ذات المهنة مع الزياني ألا وهي الكتابة الديوانية عند السلطان محمد الثالث، ولهذا فالانفعالات الظاهرة من خلال صفات الموصوف ولغة الواصف توضح طبيعة تلك المشاعر السلبية التي كانت تدور بينهما.

¹ ينظر: الترجمة الكبرى: ص 86.

² المصدر السابق: ص 99.

³ المصدر نفسه: ص 99.

⁴ المصدر نفسه: ص 99.

⁵ المصدر نفسه: ص 99.

⁶ المصدر نفسه: ص 104.

⁷ المصدر نفسه: ص 104.

⁸ المصدر نفسه: ص 104.

III. الشخصيات الهامشية:

• رجل بلا يدين ولا رجلين

ومن الشخصيات الهامشية التي أثارت انتباه الزباني في أثناء تنزهه في مدينة إسطنبول رجل بلا يدين ولا رجلين، وصفه أبو القاسم حين رآه وصفًا دقيقًا مباشرًا مندهشًا منه "وفي رجوعنا وقفنا على رجل على شاطئ البحر يتطَلَّب، فنادى، فأخبروني أنه مقعد ليس له رجلان، ولا فخذان إلا البطن، كالمزود، بها ثقبان للبول والغائط، وهو أعمى وينشد الشعر بالعربي، والتركي، والفارسي، فوقفنا عليه وكلمناه بالعربي، فأجابنا به وقال:

وإن اكتفى غيري بطيف خياله فأنا الذي بوصاله لا أكتفي
فأعطيناه صلة، وعجبنا من حاله"¹.

• أبناء السلطان عبد الحميد الأول

حضور أبناء السلطان عبد الحميد الأول يُعد حضورًا هامشيًا، غير أنَّ الزباني وصفهم لحظة اقترابه للسلام عليهم، "فأشار إليَّ أن أسلم على ولده وهو جالس عن يساره"²، حينها يتلفت الزباني لذلك الابن يصفه وصفًا مباشرًا مقتضبًا "اسمه مصطفى، وأظنه من خمسة أعوام"³، أما ابنه محمود فوصفه لما أدرك وجوده ناحية الباب "فرايت الولد واقفًا بالباب الذي يدخل منه السلطان لدار الحريم، وهو أصغر من أخيه مصطفى"⁴.

¹ الترجمة الكبرى: ص100.

² المصدر السابق: ص 125.

³ المصدر نفسه: ص125.

⁴ المصدر نفسه: ص125.

3. الرحلة الثالثة 1206هـ

1. الشخصيات الرئيسية:

• السلطان سليمان بن محمد

شخصية السلطان سليمان بن محمد قد يستقبلها القارئ من الأسطر الأولى حين يصف الزياني حاله "وأزعجني لها من غير إمهال، فاستغفيتها فلم يقبل كلامي، واسترحمته فلم يرحم ذمامي"¹، إلا أنه بعدها بأسطر قليلة يجيب على استفهام الباي محمد بن عثمان "عن ملك المغرب، وكيف حال أولاد السلطان سيدي محمد، ومن هو القائم بأمرهم؟"²، لتكون الإجابة "أن السلطان سليمان مولاي سليمان صاحب عقل، وعلم، ودين، وكلّ النَّاس راغبون فيه، ومحبون له"³، وسؤاله "هل عنده مال؟"⁴، فأجابه "نعم، عنده ما يقوم به الآن من المال، ومن الرعايا لا ينقطع"⁵، ويعترض على قول الباي "ذهب ملك المغرب مع مولاي محمد"⁶، "والله إنَّ هذا السلطان مثله وأكثر في العدل، والرفق، والسياسة، وهو الذي يبني مجد والده، ويزيد عليه"⁷. ويؤكد ذلك مرة أخرى في إجابته عن سؤال الباي حسن باشا لما سأله: "هل هو مثل مولاي اليزيد؟"⁸، "فوصفته له بالعلم والدين والعدل"⁹. وكذلك في حوار مع والي جدة الوزير السابق يوسف باشا، يصف الزياني السلطان سليمان أنه "من أهل الدين، والعدل، والعفاف"¹⁰

¹ الترجمة الكبرى: ص140.

² المصدر السابق: ص140.

³ المصدر نفسه: ص140.

⁴ المصدر نفسه: ص140.

⁵ المصدر نفسه: ص140.

⁶ المصدر نفسه: ص140.

⁷ المصدر نفسه: ص140.

⁸ المصدر نفسه: ص156.

⁹ المصدر نفسه: ص156.

¹⁰ المصدر نفسه: ص189.

• أبو القاسم الزياني

تبدأ الرحلة الثالثة بأبي القاسم بصفته واليًا على وجدة، تلك الولاية "التي في حيز الإهمال"¹، ولما لحقت به وعساكره الهزيمة، وهي النكبة الخامسة، انطلق في رحلته الثالثة عام 1206هـ، من هنا يبدأ التغيير الذي سيلحق بحياة أبي القاسم العملية، منعكسًا ذلك على حياته الشخصية، والفكرية، فإن شخصية السفير التي رأيناها في رحلته الثانية قبل ستة أعوام من اتخاذ قرار الخروج من بلاده المغرب إلى مدينة وهران، ستحل نيابة عنها شخصية تبحث في الله عما تتمسك به، فالسفير والكاتب الذي بذل جهده في سبيل رضا السلطان طوال سنوات خدمته، شعر بعدم التقدير لما استرحم، واستجدى في سبيل إعفائه من تولي ولاية وجدة، يصف الزياني شعوره حينها "فاستغفيتها فلم يقبل كلامي، واسترحمته فلم يرحم ذمامي"²، وتحول هذا الشعور الذي يصف تقافمه في نفسه "وخرجتُ لها في طالع نحس مكرر، للسابق المحتوم المقدر"³، الذي سيصير بعد انهزامه مع عسكره إلى "نكبة خامسة"⁴، هذه المشاعر التي تراكمت عند أبو القاسم، تنامت أثناء وجوده في الجزائر، وتونس، فإن الباي حسن لما رأى الزياني وسأل من هو، وصفه أهل البلد "إنه كاتب مولاي محمد الذي قدم واليًا لوجدة، ونهبه العرب"⁵، ولما سمع خبر رغبة الباي حسن باستضافته أجابهم: "إنني لا غرض لي في صحبة الملوك، ولو أردتها ما قمْتُ هنا، وغرضي إن شاء الله في التوجه للحرمين الشريفين، وما خرجتُ من بلدي إلا بهذا القصد"⁶، ومن الجدير بالذكر لقاء الزياني بالسيد محمد بن كشك علي كرغلي الذي أُصيب ونُكب أثناء عمله في خدمة الملوك، ولعلّ كلامه كما أورده الزياني من باب المقارنة الوصفية بين أحوال من يخدمون الملوك، إذ يقول السيد محمد بن كشك: "والله ما أتيتُ بك لبيتي إلا لأسليك عما أصابك في طريقك من ذهاب رزقك، وأكشف لك عن حالي لتكون لك أسوة بي، فأخبرني عما ذهب منك في هذه النكبة"⁷، فتأتي إجابة الزياني: "قد بلغ مقدار جميعه بالمال والبهائم والأثاث عشرين ألف"⁸، فيرد عليه السيد محمد

¹ الترجمة الكبرى: ص 140.² المصدر السابق: ص 140.³ المصدر نفسه: ص 140.⁴ المصدر نفسه: ص 140.⁵ المصدر نفسه: ص 152.⁶ المصدر نفسه: ص 153.⁷ المصدر نفسه: ص 154.⁸ المصدر نفسه: ص 154.

بن كشك ضاحكاً: "والله ما دفعتُ بيدي لهذا الباي إلا مائة محبوب ذهباً، وستين ألف ريال (دورو) ثم بعد ذلك سُجِنْتُ، ونُهَبْتُ الدار بما فيها من الأثاث واللباس والفرش، وجميع ما في العزبان من خير وبغال وإبل وغنم، وما في المطمر من زرع وقطاني مما لا أعرف له عدداً"¹، إنَّ إيراد المؤلف لهذا الحوار الواصف لأحوال كلِّ من أبي القاسم والسيد محمد بن كشك، "تحذير من الخدمة مع الأمراء"²، ويؤكد ذلك السيد محمد بن كشك حين يقول: "إن أطال الله عمرَكَ، وبلغكَ قصدك ببلوغ حرمه، والوقوف على تربية نبيه، ورسوله، وحبيبه، فيآك أن تحدث نفسك بالعود لهذه الخطة الخسيسة، والخدمة النحيسة"³، وهذه المقارنة تتكرر أيضاً حين يلتقي بصاحبه الذي تبدل حاله وصار بتونس خليفة لباشا الجزائر⁴، يصف الزيَّاني ذلك اللقاء "فلما تراءينا خجل مني، وخجلتُ منه، وسلَّم وسلَّمْتُ، وكلَّ منا لا يرفع بصره للآخر، لأنني كنت أعرفه على حالة، ويعرفني على أخرى، فتبدل الأمر وانعكس الحكم"⁵، ولهذا نجد الزيَّاني يؤكد مرة أخرى سبب رحلته الثالثة بوصفه لنفسه "إنما أنا رجل حاج"⁶. ومرة أخرى في إسطنبول "لما يسَّر الله أسبابنا بالتأخير في الخدمة السلطانية، أردتُ أن أطهر بدني ما تعلق به من الأوساخ، والأدناس التي أثقلت كاهلنا، بالقصد لحج بيت الله الحرام"⁷.

وتسربت هذه المشاعر لنفسه مع ما يحمله السفر على صاحبه من شعورٍ بالوحشة والوحدة كما وصفه الزيَّاني عند دخوله مدينة تلمسان التي لا يعرفه "بها إنسان، خالي الكيس من النكير والقطمير، ولا معين ولا أنيس، ولا مشير"⁸، فقصد المسجد الجامع على أمل يُلخص بقوله: "علي اجتمع برئيس، أو أظفر بخلٍ أتخذهُ لوحشتي أنيساً، وأبحث عن الأعيان والأعلام، وأهل المحابر والأقلام"⁹، وفي خضم هذه المشاعر المتضاربة، والحاجة للأنيس والرفيق، والصاحب الصديق، كان أول من لفت انتباهه "رجل بهي المنظر، نظيف الثياب، صقيل المغفر، يلطخني شزراً، ويميل

¹ الترجمة الكبرى: ص154.

² المصدر السابق: ص155.

³ المصدر نفسه: ص155.

⁴ ينظر: المصدر نفسه: ص165.

⁵ المصدر نفسه: ص165.

⁶ المصدر نفسه: ص165.

⁷ المصدر نفسه: ص168.

⁸ المصدر نفسه: ص142.

⁹ المصدر نفسه: ص142.

عني كبيراً، يطرق النادي، ولا يسلم، ويبخل بالجواب عن المتكلم، يرى أنه من الطبقة العليا، وفوق المريح والثريا، أحسبه من جهاذة الأعلام، وممن له الصدارة بين شيوخ الإسلام¹، وهذا الشق الأول من وصفه لهذا الرجل، والمثير للاهتمام في هذا المقطع الوصفي هو التدرج الذي سيبني مع الجزء الثاني المتمم للمقطع صورة أخاذة لجمالية الوصف، فالزيّاني في هذه اللحظة التي يتوق فيها لوجود أنيس معه، وصاحب يدحر عنه وحشته، لفت انتباهه المظهر الخارجي لهذا الرجل الأنيق الجميل، بيد أنّ هذا الرجل الجميل من الخارج بدت تظهر عليه عوارض تشير الريبة وصفها أبو القاسم باستخدام الأفعال في قوله: يلطخني شزراً، يميل عني كبيراً، يطرق النادي ولا يسلم، ويبخل بالجواب عن المتكلم، غير أنّ الزيّاني أعطاه بعض من الظنّ الحسن وأعتقد فيه العلم والمعرفة، إلا أنّ تنمة المقطع الوصفي تؤكد ظنّه فيه "فقصد الكرسي يمين ويتبختر، وصعد على أدراجة يتنثر، فدنوت منه شغفاً بعادتي، وجرتني إليه نبلي وبراعتي، لأغترف من بحره، وأنال لطيفة من وفره، فلم أجد في سفرته ثمرًا منه ألتقط، ولا في روضته زهرًا بقطافه أغتبط"²، ونتيجة لخيبة الأمل التي اعترته حينها أخذ يلوم نفسه ويعتب عليها، وينتقص من براعتها وحكمتها "وكنت أعتقد أن حركاتي لا تبطي، وفراستي لا تخطي، فرجعت على نفسي باللوم، وجفاني في تلك الليلة النوم، حيث انخدعتُ بحسن الثياب، وتيه الغلمان"³، ويُدعم وصفه المنثور باستشهاد شعري يصف ما يقع فيه الناس بسبب الانبهار بالجمال الخارجي الذي قد ينطوي في جوفه على قبح شديد.

فما ينفع الفتیان حسُّ وجوههم إذا كانت الأفعال غير حسان
فلا تجعل الحُسْنَ الدليلَ على الفتى فما كلُّ مصقول الحديد يمان⁴
ويبدو أنّ هذه الحادثة أثرت في نفس أبو القاسم الزيّاني حتّى قادته لكتابة أبيات يقول في مطلعها:

يا من تكبر فوق ما يناسبه وظن أن خدَمته الشمس والقمر⁵

¹ الترجمة الكبرى: ص142.

² المصدر السابق: ص142.

³ المصدر نفسه: ص142.

⁴ المصدر نفسه: ص142.

⁵ ينظر: المصدر نفسه: ص143-144.

ويصف الزياني ما أثارتته هذه الأبيات "انهال عليّ طلبة البلاد من ذلك المِصر، وفقهاء ذلك العصر، بسبب هذه الأبيات لما شاعت بين الناس، وكانت لهم جبة لباس، وقصدونا للأنس والمذاكرة، والمسامرة والمحاضرة"¹.

نال الزياني في هذه الرحلة الكثير من الاحتفاء إما بسبب مكانته باعتباره كاتباً وسفيراً سابقاً للسلطان محمد الثالث، أو لما يملكه من معارف وعلوم، وحسن سبكٍ للكلام، ونباهته في تلقي المواقف ودرايته في كيفية التعامل مع الولايات ورجال الدول، ومن صور هذه الاحتفاءات هدية الباي حسن باشا له "جاء حاجبه ومعه كبير الحمارين ودفع لي قرطاسين من كاغد مخيط"²، "فتحُ القرطاسين المخيطين، فوجدتُ فيهما ثلاثمائة محبوب كلها، وفي الزمام ثمانية من كل شيء بشماطا، وكسكسًا، وأرزًا..."³، وكذلك ما أمر به الباي محمد الكبير كاتبه بأن يتوجه مع الزياني ليريه "قصة وهران وأبراجها، ومدافعها، ومخازنها"⁴. وحتى أنّ أحمد الجزار المدعي للمهدوية أكرم الزياني بثلاثمائة دينار من الذهب، ويعلل أبو القاسم ذلك واصفًا نفسه "وعلمتُ أنّ ذلك بسبب زهدي في ذات يده، وقلة طمعي فيما لديه"⁵. وأيضًا من صور ذلك الاحتفاء والتقدير، أنّه حين كان في طريقه للحج مرة أخرى التقى بتاجر من تجار مصر، وهو كما يصفه الزياني "متعلق بأطراف محمد باي الألفي"⁶، وصار يتودد ويتقرب من أبي القاسم الذي يصف علاقته به: "كان يأتيني ويعانقني، يقول: إنّك صاحب القطب مولاي محمد ملك المغرب"⁷، والتبرك كما يظهر في عصر الزياني عادة دائرة في المجتمعات آنذاك "ويطلب مني الدعاء"⁸. وهو ذات ما قام به محمد باي الألفي لما اتصل بالزياني، إذ أراد هذا التاجر مساعدة الزياني؛ فطلب من محمد باي الألفي كتابة رسالة لوالي السويس يوصيه بالوقوف مع أبو القاسم في سفره، فحين عرف من التاجر بأنّ هذا المسافر "هو كاتب مولاي محمد رحمه الله سلطان المغرب"⁹، فما كان له إلا أن يقول:

¹ الترجمة الكبرى: ص144.

² المصدر السابق: ص159.

³ المصدر نفسه: ص159.

⁴ المصدر نفسه: ص140.

⁵ المصدر نفسه: ص263.

⁶ المصدر نفسه: ص214.

⁷ المصدر نفسه: ص214.

⁸ المصدر نفسه: ص214.

⁹ المصدر نفسه: ص214.

"لا بد أن تأتي به إليّ لأنال من بركته وبركة مولاي محمد"¹. ويصف الزيّاني لقاءه به عندما دخل عليه منزله بالأزبكية "صافحته وسلمت عليه، فقبل يدي، وأظهر لي من التواضع ما لم يخطر على بال، وأجلسني في مجلسه، وتأدب معي أدباً كبيراً"². وأنه لما غدا بمدينة أنطاكية وكان بحضرة الشيخ إسماعيل الجزائري، طلب أحد الحاضرين شفاعته الزيّاني عند القاضي وعلل ذلك "أن خدام مولاي محمد ملك المغرب كلهم أولياء"³.

إنّ التبرك صفة تتعلق بالزيّاني، وكثيرة هي الحوادث التي ظهر فيها التبرك في الرحلة الثالثة، ومنها حادث تكسر المراكب ليلاً التي نجي منها المركب الذي يركبه أبو القاسم، فقال رئيس المركب حينها: "والله ما سلم مركبي إلا ببركة هذا الشيخ"⁴. ويزيد تأكيداً "وإلا فلم يقع مركب بهذا المحل وسلم منذ عقلنا، وآباؤنا، وآباؤهم"⁵، وأما الزيّاني فقال: "فأضحك منه"⁶.

وأصابت الزيّاني عدد من الشدائد في طريقه إلى المغرب، الأولى يصفها "لما أصابنا الشؤم مات الصاحب"⁷، والثانية انقلاب المركب في النيل، يصف تلك الحادثة بعد ركوبوا المركب مع آغا عسكر المغاربة الحاج محمد عبد السلام "قلما توسطنا البحر هبت علينا ريح جنونية شديدة، فلما شعرنا بانقلاب المركب، ونحن في لجة البحر، فتحّت يدي للسباحة، وخرجت من تحت المركب، فلما فتحّت عينا رأيت الأغا مكشوف الرأس يستغيث، ورأيت البحرية على ظهر المركب المنقلب، فنادت البحرية خذوا بيد الرجل، فمدوا أيديهم إليه ليجذبوه فوقعوا معه في البحر، وتعلق الغرقى بأذيالي...، والبحر منحدر بنا إلى أن عجزت عن السباحة وانحلت قواي واسترخت مفاصلي"⁸، في تلك اللحظة يسترجع رؤية حصلت معه بضريح أبي مدين العباد، فقال الزيّاني حينها: "غررت بي يا أبا مدين، ورويت من شرب الماء، فما شعرت إلا بمن دخل تحت فخذي وحملني حتى خرج

¹ الترجمة الكبرى: ص214.

² المصدر السابق: ص214.

³ المصدر نفسه: ص278.

⁴ المصدر نفسه: ص216.

⁵ المصدر نفسه: ص216.

⁶ المصدر نفسه: ص216.

⁷ المصدر نفسه: ص263.

⁸ المصدر نفسه: ص264.

رأسي من الماء"¹، فنجا الزياني إلا أنّ الأغا غرق وصار أخوه "يبكي ويصيح وا أخاه"². وحينها تذكر كلام الشيخ جعفر الهندي فقال: "هذه المصيبة الذاتية، وصلت وسلم الله منها، فله الحمد، وبقيت المالية"³ التي أصابته، وأعجزت عنه الأمل، يصف آماله حينها "كنت مؤملاً ومتكلاً على دين تركته بتونس على أبي هلال وقت سفري للحجاز"⁴، فلم يجده بها، ولا صاحبه، فانقطع به ذلك الأمل، فبقيت آماله معلقة برزقه الذي كان على المراكب التي في البحر قادمة من أزمير، فوصله حينها خبر استيلاء الإيطاليون عليه، نتيجة للعداء الذي بينهم وبين الدولة العثمانية. وبهذا نخلص إلى رؤية واضحة لحال الزياني في رحلته الثالثة، التي كشفت عن جوانب فكرية، ونفسية من شخصيته، لم تتكشف فيما سبق.

II. الشخصيات الثانوية:

• الباي محمد بن عثمان، محمد الكبير (1779م-1797م)⁵

أعرب الباي محمد الكبير عن تعاطفه مع أبو القاسم الزياني، ويصف الزياني هذه العواطف "ولما اجتمعنا به أظهر التأسف، والتوجع على ما أصابنا، وأقسم أنّه لا يترك الأخذ بثأرنا من عربٍ أنقاد"⁶. ودار بينهما حوار حول أحوال دولة المغرب بعد وفاة السلطان محمد الثالث⁷، ولما أوضح الزياني خلاف ما تتداوله الألسن عن ضياع ملك الدولة العلوية بعد وفاة السلطان محمد الثالث، بدا الباي وكأنه غير مقتنع بما يسمع، ويصف الزياني ما رآه في تلك النظرة: "فنظر إلى كاتبه نظر المنكر، وكأنه يزيّف قولي"⁸، وكان الباي قد عاد للحديث في أمر ملك المغرب من الغد، وراح يصف الوضع السياسي من وجهة نظره: "إنّ ملك المغرب تشتت وأولاد مولاي محمد لا

¹ الترجمة الكبرى: ص264.

² المصدر السابق: ص264.

³ المصدر نفسه: ص264.

⁴ المصدر نفسه: ص371.

⁵ ينظر: بصحراوي، محمد، مليكة بوسوار: الباي محمد الكبير ودوره في بايلك الغرب الجزائري، 1779-1797م، رسالة ماجستير، جامعة ابن خلدون، الجزائر، 2015-2016، ص44.

⁶ الترجمة الكبرى: ص140.

⁷ ينظر: المصدر السابق: ص140.

⁸ المصدر نفسه: ص140.

تقوم لهم قائمة، ولا يزالون في الحرب بينهم إلى أن يأتيهم من يخرجهم عن المغرب البتة، فاحمد الله الذي نجاك وسلم ذلك، وبلغك إلى ها هنا فسترى وتسمع"¹. رأيّ الباي في الأوضاع السياسية التي كان يشهدها المغرب آنذاك، لم يؤثر على معاملته للزيّاني الكاتب السابق لسلطان المغرب، بل أكرمه أيّما إكرام؛ فأمر بكتابة رسالة للقائد مصطفى في تلمسان يأمره فيها أن يستوصي بالزيّاني "وينزله بداره، ويكرمه، ويؤنس وحشته، ولا ينقطع عنه حتّى يأتيه الخبر من سلطانه"²، مع أنّه سبق أن قال لأبي القاسم الزيّاني حين أبان عن رغبته بالبقاء على إطلاع بما يأتي من أخبار من المغرب "أما انتظارك ما يأتي من المغرب فضرب في حديد بارد"³، ويجد الإشارة إلى توظيف شكل جديد من أشكال الوصف في هذه العبارة، ألا وهو الوصف بالمثل، حين قال: ضرب في حديد بارد، أيّ جهد لا طائل منه، وضائع.

• الباي حسن باشا، المسمى حسن بوحنك باي (1792م - 1795م)⁴

يذكر أبو القاسم شخصية حسن باشا لما دخل مدينة تلمسان، وجاء يوم الجمعة، فكانت الصلاة، يومها سأل حسن باشا عن الزيّاني: من هو؟ فأجابوه: "إنّه كاتب مولاي محمد الذي قدم واليًا لوجدة ونهبه العرب"⁵، وفي المقابل سأل أبو القاسم عنه فقيل "إنّه باي حسن المنفي من قسنطينة"⁶، وذلك كان قبل وفاة باي ولاية قسنطينة حينها صالح باي في الحادي عشر من شهر محرم عام 1207هـ (1 سبتمبر 1792م)⁷. وكان قد استفسر عن إن كان للزيّاني أيّ جناية من الباي محمد الكبير، فأجابوه بالنفي، مما جعله يُنكر ذلك عليه، وعلل إنكاره؛ "ليس هذا من الكرام، رجل من أعيان دولة المغرب، رمث به المقادير إلى بلاده ولا يعتبره، هذا خارج عن قانون الدول، ويأباه أهل الفضل، والله لو قدم لبلادي، وأقام بها لأكرمته إلى أن يأتيه الفرج"⁸.

¹ الترجمة الكبرى: ص140.

² المصدر السابق: ص141.

³ المصدر نفسه: ص141.

⁴ ينظر: بولحبال، رياض: أخبار بلد قسنطينة وحكامها لمؤلف مجهول (دراسة وتحقيق)، رسالة ماجستير، جامعة منتوري قسنطينة، الجزائر، 2009-2010، ص57.

⁵ الترجمة الكبرى: ص152.

⁶ المصدر السابق: ص152.

⁷ ينظر: بولحبال، رياض: أخبار بلد قسنطينة وحكامها لمؤلف مجهول (دراسة وتحقيق)، ص53.

⁸ الترجمة الكبرى: ص153.

ولما نزل الزياني بقسنطينة، التقى بالباي حسن فيها بعد توليه لولايتها، إذ أرسل إليه أحد الطلبة الذي وصفه الزياني بأنه "رجل مغلف ومعه طيش على كبر سنه"¹، غير أن أبا القاسم رفض القدوم معه، وعلل الزياني رفضه مستكراً: "كيف لي بالدخول على رجل لا يعرفني، ولا أعرفه، ولا بعث لي، أدخل عليه بغير إذنه، هذا شيء فيه قلة أدب عندنا"². فما أصبح الغد إلا وجاء بدعوة من الباي، يدعو له لضيافته، يصف الزياني مشهد دخوله عليه "دخلت القبة، وسلمت عليه، وهو جالس على الأرض، وهو يحسب مالا بين يديه، فرد السلام"³، ومد يده لمصافحة أبي القاسم "بظاهاها لأن باطنها ملطخ بوسخ الفضة التي كان يغدها، ولحقه ذلك من حياء، فأمر بالإبريق والطست والصابون فغسل يديه"⁴، وقام ليجلس مكانه، وجلس الزياني بجانبه، ودار بينهم حوار عن أحوال المغرب.

أمر الباي بالموسيقا، وانتقل ليسأل عن سيرة السلطان محمد الثالث، ويقطع الباي هذا الحوار ليدخل مع مملوكه بابا، يصف الزياني ما شمه عند رجوعه "استنشقت منه رائحة الخمر"⁵، فعاود القيام لمحلله ذاك، ورجع "فشاعت رائحة الخمر أكثر مما كانت، وعلا كلامه فارتفع الشك، وزال الوهم"⁶.

دار حوار آخر بينهما لما مدّ الباي يده يشير للمملوك هات هذه الكوابيس، فقال يسأل أبا القاسم: "كم تساوي هذه عندكم؟"⁷ فأجابه، وأكمل يسأله عن تقديره لقيمة بعض الأشياء التي يملكها، ويصف الزياني ملامح الباي حينها "وتبين لي في وجهه كراهة ما ذكرته له من الثمن"⁸، لهذا استدعى الزياني قصة حدثت مع السلطان محمد الثالث بهذا الخصوص، مفادها أن سلطان الفلمنك^(*)، عند توقيع الهدنة مع سلطان المغرب، كان يعطيه سنوياً ثلاثين ألف ريال. إلا أن سلطان المغرب أمر في إحدى السنوات بصناعة سلاح له، وصِفته أنه "من ذهب منبت بأحجار

¹ الترجمة الكبرى: ص 155.

² المصدر السابق: ص 155.

³ المصدر نفسه: ص 155.

⁴ المصدر نفسه: ص 155.

⁵ المصدر نفسه: ص 156.

⁶ المصدر نفسه: ص 156.

⁷ المصدر نفسه: ص 157.

⁸ المصدر نفسه: ص 157.

(*) الفلمنك: هي جماعة عرقية جرمانية (بالهولندية Vlamingen).

الديمانطي المعتبرة"¹، ولمّا صار السيف بجوزة السلطان، وقرأ المكتوب وجد قيمته أربعة وستين ألف ريال، وهو خلاف الاتفاق، فاستدعى المختصين ليفحصوا السيف، ويظهر الزياني من خلال الوصف كيف أنّ القيمة الفعلية للشيء تختلف عمّا يُروج له، "فقال يزيلون الأحجار وتوزن ويوزن الذهب، فقلعوا الأحجار حتّى وزنها، ووزنوا الذهب، فاجتمع في الأحجار والذهب خمسة عشر ألف ريال لا غير"² فأمر بإعادة السلاح لأنه "لم يوافق غرض أمير المؤمنين"³، فما كان من سلطان الفلمنك إلا أن "وجه له المال وأمر القونصو أن يتوجه بالمال والسلاح، ويدفعه لأمير المؤمنين هدية"⁴، ويعلّل الزياني هذا الموقف بأنّ "هذه المسائل لا تأتي إلا هدية من الملوك، أو من التجار ويغلون أثمانها، لقضاء أغراضهم بها من الملوك والأمراء الذين لا يعرفون أثمانها"⁵، فقال الباي بعد فراغ الزياني من روايته: "لو كانت بالشراء ما دفعنا فيها ذلك، وقد كشفت لنا الغطاء عن ذلك بإقامة الحجة والمشاهدة، فجزاكم الله خيراً"⁶، ويصف الزياني حالته المزاجية بعدها "وعاد إليه نشاطه وكثر سروره وانبساطه"⁷، وزاد في ذلك ممتدحاً الزياني فوصفه "بالفراسة والحزم والضبط"⁸.

وقد امتدحه الزياني بعد ذلك برسالة يصف فيها عظم المسجد الذي بناه، ومن العبارات التي استخدمها في وصف شخص حسن باشا "سلطانهم الأعظم، الماجد الأكرم، حامي بيضة الإسلام، وناصر سنة سيد الأنام"⁹، والوصف فيها كثير.

¹ الترجمة الكبرى: ص157.

² المصدر السابق: ص158.

³ المصدر نفسه: ص158.

⁴ المصدر نفسه: ص158.

⁵ المصدر نفسه: ص158.

⁶ المصدر نفسه: ص158.

⁷ المصدر نفسه: ص158.

⁸ المصدر نفسه: ص158.

⁹ المصدر نفسه: ص375.

• الأغا علي المهندار

يُقدم الزياني شخصية الأغا بوصفه صاحبه فهو "الذي كان يشيع ذكرنا في السفارة الأولى من سلطان المغرب، وبذل مجهوده في رفعتنا بالظعن والضرب"¹، "وهو المشهور بالعدل والعفاف من الشيب"²، وجده أبو القاسم هذه المرة بإسطنبول "أميرًا على السنجق في الجهاد، المقدم على كل الأجناد"³، ويزيد في امتداح أخلاقه "ومن كمال مروءته لم يسأل عن سبب القدوم، ولا عرج على ما يؤذن بالمال الذي هو عند الكرام مذموم"⁴، ويصف غايته بعد السلام، بكيفية الاطمئنان عن الأحوال "كيف أنتم بعد موت سيد الملوك، المحبب عند الممالك والملوك مولاي محمد رحمه الله؟"⁵. ومن جلال كرمه يصف الزياني حال الأغا معه "أقمتُ عنده ثلاثًا في عزٍّ وإكرام، لا يفارقني إلا وقت النوم"⁶. وفي المقابل أثنى الأغا على الزياني، ذلك أنه سأل علي آغا قبجي بعد سفارته للمغرب عن أبي القاسم الزياني، فأثنى وبين ما عليه الزياني "من جزيل الخير والوفاء"⁷.

• أمين الصرة: سليمان أفندي

يُخبر الزياني عما كان من اجتماع الأغا بأمين الصرة: "ذكر له أمري، ووصفني له بالعلم والخير والصلاح"⁸، ولمّا اجتمع مع أبي القاسم قال له عن رحلة الحج: "لا تتكفل بشيء فعلي كل شيء، ويدك مع يدي"⁹، إلا أنّ الزياني لم يستحسن ذلك، وعلل ذلك للأغا على لسان الترجمان عثمان أفندي "أكون في محلي وحدي، ولا يمكنني الكون معه، ولا يلتئم طبع العرب مع الترك في كل أمر..."¹⁰، وأضاف "والسفر تتبدل فيه الطباع"¹¹، ومساعدته تكون في السراء والضراء، لأنّ

¹ الترجمة الكبرى: ص 167.

² المصدر السابق: ص 167.

³ المصدر نفسه: ص 167.

⁴ المصدر نفسه: ص 167.

⁵ المصدر نفسه: ص 167.

⁶ المصدر نفسه: ص 168.

⁷ المصدر نفسه: ص 167.

⁸ المصدر نفسه: ص 169.

⁹ المصدر نفسه: ص 171.

¹⁰ المصدر نفسه: ص 171.

¹¹ المصدر نفسه: ص 171.

القوانين مجهولة للزياني في تلك البقاع، فوصل ذلك القول لأمين الصرة "فاستحسنه، وقال: والله إن هذا الرجل من الكُمل، والعقلاء، ولم أتقطن لما ذكر من عوائدهم"¹. ومن كرمه مع الزياني أنه دأب طوال طريق الحج أن يرسل "لحم ودجاج وخضر طرية كل يوم"².

• والي جدة: الوزير يوسف باشا

سبق ذكر الوزير يوسف باشا، عندما سأل الزياني عن أحوال الدولة العثمانية فأجابه الأغا المهمندار أن السلطان عبد الحميد الأول قد مات "وما بقي إلا الوزير يوسف باشا في حيز الإهمال، إذ هو من أهل الكمال"³. وأن الزياني لما نزل بمنى وجد القباب تُضرب بجانبه، فلما سأل عنها، قيل له: "إن هذه قباب الوزير الأعظم يوسف باشا الذي قدم من الاصطنبول واليا بجدة والحجاز، أتى مع الركب الشامي ليحج ويتوجه لجدة"⁴، يكمل الزياني الوصف للتعريف به "وهو الذي كان وزير السلطان عبد الحميد أيام سفارتي للاصطنبول"⁵، فترى أبو القاسم ليلقي التحية على الباشا ذلك أنه كانت تجمع به "خلة ومصافاة"⁶، ويصف الزياني لقاءه به "وتقدمتُ للسلام عليه، فلما واجهته وقصدته، ورآني قام من مجلسه وصافحني، وأجلسني بجانبه، ونادى ترجمانه فحضر، وهو إلى الآن لم يعرفني"⁷، فقال له أبو القاسم: "كأنك نسيتني، أبو القاسم الزياني"⁸، ليتحول إلى لقاء عاطفي إذ "قام... وقبض على يدي، وأقامني، وعانقني، وهطلت عيناه بالدموع وخرس لسانه عن الكلام، فأبكاني، وبكى معي إلى أن شفا غليله"⁹. وأخذوا يتبادلون أطراف الحديث عن أطلال السلاطين، وحال الدولتين بعد وفاة كل من سلطان المغرب والدولة العثمانية. ويندبون حظوظهم بعدهما "أين السلطان عبد الحميد؟ وأين السلطان مولاي محمد؟ تركونا أيتامًا، والله لبطن الأرض أحب إلي من ظهرها، فقد ظهرت إشارات الساعة ببلادنا، ولم يبق إلا طلوع

¹ الترجمة الكبرى: ص 171.

² ينظر: المصدر السابق: ص 174.

³ المصدر نفسه: ص 167.

⁴ المصدر نفسه: ص 188.

⁵ المصدر نفسه: ص 188.

⁶ المصدر نفسه: ص 188.

⁷ المصدر نفسه: ص 188.

⁸ المصدر نفسه: ص 188.

⁹ المصدر نفسه: ص 189.

الشمس من مغربنا"¹، والربط بين الانتكاسة السياسية، وتبدل الأحوال كثير ما يُربط بشروط قيام الساعة في الحياة الاجتماعية عند المسلمين.

• الشيخ جعفر الهندي

اجتمع الزيّاني بالشيخ جعفر الهندي "الذي يزعم أهل مكة أنه القطب، بقصد زيارته، والتبرك به"²، ومن خلال الوصف بالحوار يتضح أن سيكون لهذا الشيخ أثر كبير على شخصية الزيّاني، يقول أبو القاسم: "جلست بين يديه، كاشفني بما في ضميري، وصرح لي بما أضمرْتُ وقال لي: لا بدّ لك من الرجوع للمغرب، وتخلّف ما ضاع لك قبل وصولك إليه، ولا بدّ لك من الخدمة مع السلطان سليمان"³، إلا أنّ الزيّاني استدرك على الشيخ هذا الكلام، فإنّه لم يخرج من المغرب بعد ما أصابه إلا ليستريح بالمقام بالحرمين، ليزيد الشيخ جعفر الهندي: "لم يُقسم لك في هذه البلاد، لا بدّ لك من الرجوع إلى ما قدر لك، فإنّك تقع في شدّة نفسية، وشدّة مالية، وتسلم فيهما وترجع إلى المغرب كما خرجت منه غنياً، وتخدم سلطانه هذا مدة، ثم ينكبك ويخلي سبيلك"⁴، ويختم نبوءته هذه بوصية "فأوصيك بالمسلمين، وإياك ونهب أموالهم، وسفك دمائهم، فإن فعلت نجوت، وأوصيك أن لا ترافق الجزائر للشام، وتُعنه على معصية الله"⁵، وإنّ هذه النبوءة ستتحقق لاحقاً كما سيظهر في الترجمة الكبرى.

¹ الترجمة الكبرى: ص 189.

² المصدر السابق: ص 262.

³ المصدر نفسه: ص 262.

⁴ المصدر نفسه: ص 262.

⁵ المصدر نفسه: ص 262.

III. الشخصيات الهامشية:

• العلماء في ولاية قسنطينة

اجتمع الزياني بعدد من العلماء بقسنطينة، وأحصاهم في الرحلة الثالثة، وعددهم ثمانية وهم على التوالي:

1. إمام وخطيب المسجد العتيق بقسنطينة، الوالي صالح أبو البركات سيدي مبارك ابن الفقيه العلامة سيدي عمر الصائفي.
 2. الفقيه العلامة الصوفي أبو الحسن علي بن مسعود الونيسي.
 3. الفقيه القاضي أبو عبد الله سيدي الحفصي العلمي.
 4. مفتي قسنطينة، الفقيه العلامة سيدي أبو القاسم المحتالي.
 5. المفتي الثاني العلامة سيدي أحمد بن المبارك العلمي.
 6. الفقيه الأديب الكاتب سيدي محمد المجاري الخوجة.
 7. الفقيه الأديب صاحب القصائد العالية، السيد ونيس البوزنياري.
 8. الكاتب الأديب الخوجة الكبير، السيد محمد بن كشك علي كرغلي.¹
- لم يستطرد الزياني في وصف معظمهم، واكتفى باستخدام الألقاب التي تطلق على العلماء من فقيه، وعلامة، وأديب، وكاتب. إلا أنه وصف كرم أبي القاسم المحتالي معه "بالغ في الإحسان والإكرام، وكان يأتيني لبيتني ويؤنسني، ويذاكرني بما يسلي مهجتي، ويزيل قنطي، ووحشتي"²، أما الكاتب محمد بن كشك، فسبق ذكر وصفه أثناء العرض لوصف شخصية الزياني.

• الرجل الموكل باستئجار المنزل للزياني بتونس

يصف الزياني مشهد هروب الرجل الذي دفع له المال ليكتري له منزلاً بتونس "فبينما أنا أسير في سوق العطارين، إذ رأيت أحد الذين كتبْتُ لهم على المنزل، ولما رأني اختفى في وسط المارة، وهرب مني"³، إن هذه المقاطع الوصفية القصيرة التي تظهر مع الشخصيات الهامشية، تبين أن البناء الذي تقوم عليه الرحلة عمومًا، والترجمة الكبرى، هو بناء قائم على الوصف

¹ ينظر: الترجمة الكبرى: ص154.

² المصدر السابق: ص153.

³ المصدر نفسه: ص158.

باعتباره عنصرًا هامًا في رصد الارتحال، ولعلّ مصطلح تسريد الوصف هو الأمثل لوصف الاقتران بين الوصف والسرد في عملية تدوين أحداث الرحلة.

• صاحب قديم

يصف الزياني لقاءه بصاحب قديم له " كان بحريًا مع الرئيس صالح، وهو شاب صغير، وكانوا يأتون للسفر في البحر من العرائش وأنا وإلٍ بها، وبعد أن التحى تزوج بسلا"¹، وفي رحلة أبي القاسم لإسطنبول وجد صاحبه بتونس رئيسًا لمركب، "وكان خليفة باشا الجزائر بتونس، وأدرك منصبًا عظيمًا، ومالًا كثيرًا وعقارًا في أقرب مدة"²، هذا الوصف التدريجي لما كان عليه صاحبه وما آل إليه أمر، كان حاضرًا في صدر الزياني إذ شعر حينها بتبدل الأحوال، وهو ما انعكس عليهما في يوم اللقاء، يصف أبو القاسم حالهما آنذاك "فلما تراءينا خجل مني، وخجلتُ منه"³، إلا أنه بعد السلام "أظهر البشر والسرور"⁴.

• جارية أبو القاسم الزياني السابقة

يصف الزياني لقاءه بها في بيت حريمه، إذ جاءت مرسلة من الأغا تحمل أغراضًا له، وقد كانت "جارية سوداء"⁵، "دخلتُ فقبلتُ يدي، وقالت بالعربية: تفضل بقبول هذه البقجة(*)"، فقلت: أنتِ تحسنين العربي، فقالت: ألم تعرفني؟ أنا جاريتك فلانة التي أعطيتني لسيدي، لما قدمت من المغرب، وكنت اشتريتني بالصويرة"⁶.

¹ الترجمانة الكبرى: ص165.

² المصدر السابق: ص165.

³ المصدر نفسه: ص165.

⁴ المصدر نفسه: ص165.

⁵ المصدر نفسه: ص168.

(*)البقجة: تعني صرة ملابس.

⁶ الترجمانة الكبرى: ص168.

• عثمان أفندي (كاتب الأغا علي المهندار)

استعان الزّياني بعثمان أفندي في مخاطبة الأغا "لأنه يحسن العربية"¹، مرةً لما أراد طلب المساعدة للحصول على إذن للحج. ومرة أخرى "على لسان عثمان أفندي"² طلب من الأغا أن يتكلم مع أمين الصّرة ويشرح له موقفه من الالتزام معه طوال طريق السفر للحج.

• الشيخ إسماعيل العباسي

اجتمع الزّياني بعدد من العلماء في مصر، غير أنّه اهتم بإظهار مشهد لقائه مع حفيد ابن يعقوب العباسي، يقول في المقطع الوصفي الذي يُقدم فيه هذه الشخصية: "اجتمعتُ بمؤرخ مصر وشيخ الأطباء بها الشيخ إسماعيل العباسي، وهو الباقي من نسل بني العباس خلفاء مصر"³، وعبارته "كنت أبحث عنه إلى أن دلوني عليه بمقعده من المارستان [المستشفى بالفارسية] الكبير"⁴، تكشف أنّ هذه الشخصية قد شدت الزّياني مما دفعه للبحث عن مكانها، ويظهر قصديّته بقوله: "فأخبرته أنني لم آت إلا لزيارته والتبرك به"⁵.

• المعتزلي

التقى الزّياني برجل يصفه وصفًا مباشرًا "رجل أعمى، صاحب وجهة، متجمل بزي الفقهاء، لسانه بالعربية فيه لكنة"⁶، فسأل عن الكتاب الذي يدارسه العلماء بالمجلس فقالوا: "(نقاية السيوطي في التوحيد)"⁷، حينها بدأ الحوار الذي من خلاله ظهر للزّياني أنّه معتزلي، إذ كان سؤاله الأول "ما معنى الله؟"⁸، فأجابوه عن كلّ ما سأل حتّى "ظهر من فحوى كلامه أنّه يريد البحث في إثبات الصفات"⁹، يصف الزّياني تنبّهه لمقصد الرجل بالفعل في استعارته المكنية إذ يقول:

¹ الترجمة الكبرى: ص168.

² المصدر السابق: ص171.

³ المصدر نفسه: ص194.

⁴ المصدر نفسه: ص194.

⁵ المصدر نفسه: ص194.

⁶ المصدر نفسه: ص231.

⁷ المصدر نفسه: ص231.

⁸ المصدر نفسه: ص231.

⁹ المصدر نفسه: ص231.

"فشممتُ منه رائحة الاعتزال، والمقصود منه ردها وإنكارها"¹، فنبههم الزيّاني، فردوا عليه وأجابوه "وأقاموا عليه حجج أهل السنة"²، وأجابه الزيّاني "بجواب الشيخ أبي سالم العياشي بنصه"³، فصار "وكأنما ألقم بحجر"⁴. وقام ولم يرجع.

• القاضي العادل

استحضر الزيّاني هذه الشخصية بعد أن فاضل بين المغرب والمشرق، فكان للمشرق نصيب من المذاهب الفاسدة كالاعتزال، وأيضًا شراء وبيع المناصب الدينية كالقضاء، فقال: "قد حدثني الشيخ عبد الله اليميني... عن بعض القضاة في القديم أنه أتى من الاصطنبول... للمدينة"⁵ فانتشر صيته بعد أن "أظهر هذا القاضي من العدل ما لم يظهر من أحد قبله، وضرب على يد الولاة فيما يرتكبون من الظلم وأبطل جميع ظلاماتهم"⁶؛ فوصل خبره لسلطان الحرمين آنذاك السلطان سعد الشريف، وفي وصف شخصية السلطان يذكر الزيّاني أنه "إمامي المذهب"⁷، الذي وجه له أمر إلا أن القاضي رفضه، وبين له الحق، فاتخذوا الحيلة للخلاص منه، ويصف الزيّاني مشهد اغتياله: "رصدوه يومًا عند صلاة الفجر، وكان يأتي للصلاة بالمسجد النبوي راكبًا على فرسه، ولما قرب من باب المسجد قام له رجل، وضرب جنبه، وفر"⁸، ويستمر في وصف موقف القاضي من تلك الضربة "أحس القاضي بالضربة، ركض على فرسه إلى أن دخل المسجد النبوي على فرسه، وبلغ الحجرة النبوية، وتعلق بشباك الحجرة، وقبض بيده إلى أن خرجت روحه رحمه الله"⁹، وبرغم أن السلطان سعد "أظهر التأسف والتوجع، وزعم أن لا علم له بذلك، ولو علم به

¹ الترجمة الكبرى: ص 231.

² المصدر السابق: ص 231.

³ المصدر نفسه: ص 232.

⁴ المصدر نفسه: ص 232.

⁵ المصدر نفسه: ص 232.

⁶ المصدر نفسه: ص 232-233.

⁷ المصدر نفسه: ص 232.

⁸ المصدر نفسه: ص 233.

⁹ المصدر نفسه: ص 233.

لقتله"¹، ومع ذلك "علم الناس أن لا يُقدر أن يفعل هذا العظيم إلا بإذنه"². يختم أبو القاسم خبر هذه الشخصية مستتكرًا حال القضاء في المشرق "أي قاضي بعد هذا يقدر على إظهار الحق، وتغيير المنكر والضرب على أيدي الولاة الطغاة الجبابرة"³.

• كسرى

قد يتساءل متسائل، أتى لشخصية كسرى الحضور في نصّ هذه الرحلة؟ الإجابة في أن الزيّاني في رحلاته مارس نسخ الكتب، وتدوين الأخبار، وهذا الاهتمام ينبع من كونه مؤرخًا، وخبر كسرى هذا أخذه عن الشيخ عبد الله اليميني، يقول أبو القاسم: "أطلعني على ترجمة كسرى أنو شروان في تأليف (الذهب المسبوك في عدل عظماء الملوك)"⁴، وما أورده الزيّاني بعد هذه العبارة أخبار متنوعة عن كسرى وعدله، تخلّلتها عبارات وصفية خالصة مثل "يا ملك الزمان المشهور بالعدل والإحسان"⁵ في وصف كسرى، و"جارية طولها عشرة أشبار إلى صدرها، وخمسة أشبار إلى فرقها، تضرب أهداب عينيها على خديها، فكأن بين أجفانها لمعان البرق، ومع بياض مقلتيها وسوادهما مع صفاء لونها، ودقة تخاطيطها، وإتقان شكلها، مقورنة الحاجبين"⁶ في وصف هدية ملك الهند لكسرى، وأيضًا جاء في وصف خواتم كسرى "لكسرى خواتم أربعة، للخراج فضه ياقوت أحمر يتقد كالنار نقشه العدل العدل، وخاتم الضياع فضه فيروزج نقشه العمارة العمارة، وخاتم للضرب والعقوبات نقشه التائي التائي، وخاتم للبريد والرسل فضه درة بيضاء نقشه العجل"⁷، والوصف في أخبار كسرى كثير ومتنوع بين الوصف بالأفعال، والتدريج، والحوار.

¹ الترجمة الكبرى: ص 233.

² المصدر السابق: ص 233.

³ المصدر نفسه: ص 233.

⁴ المصدر نفسه: ص 233.

⁵ المصدر نفسه: ص 234.

⁶ المصدر نفسه: ص 236.

⁷ المصدر نفسه: ص 237.

• امرأة تلد أربعين ولدًا

يذكر الزّياني أنّه وقف بمكة على كتاب لم يُسمِه إلا أنّه "من الكتب الغريبة في التاريخ، من وقف السلطان قايتباي"¹، ومما قيده من أجزائه السبعين، قصة امرأة ببغداد ولدت "شيئًا بالجربا يتحرك، ولما فتحت القابلة وجدت فيه أربعين ولد كالأصابع، وكلهم ذكور"².

• والي إمارة صيدا: أحمد باشا الجزار

كان للزّياني صاحب "يطوف على أمراء الحج، المصري، والشامي، والعراقي، والهندي، والسندي، واليميني، إذا كان له وظيف (*) منهم يقبضه في كل سنة"³، فلما لقي أمير الحاج الشامي حكى له عن أبي القاسم الزّياني. يصفه الزّياني بدوره "كان هذا الجزار رجلاً أحمق، يبحث عن أهل الحكمة وعلم الحدّثان، وكان يزعم أنّه المهدي المنتظر، ويصرّح بذلك"⁴، ودار بين الزّياني عندما اجتمع به حوار حول حقيقة الادعاء بأنّه المهدي، ويستند الجزار في ادعائه على ما يسميه بالجدول، وصفة هذا الجدول "أنّه موفق باسم الجلالة"⁵، وشرح للزّياني طريقة حلّه "اقسم هذا الاسم سبعة، سبعة، وما فضل منه أثبتّه في القرطاس، فقسمتُ وطرحتُ وما فضل أثبتّه، فقال: عدّ أبيات هذا الجدول، فقال: بعده هذه الحروف الخارجة من الجدول كلمات، فلما لفقتها كلمات خرج منها أحمد بن عبد الله الجزار المهدي المنتظر"⁶.

ويصف الزّياني ما اقترفه أحمد باشا الجزار من أفعال القتل، منها اصطحابه لبعض كتّابه الذين اعتقد فيهم الخيانة "معه في الحج، وتقرب بقتلهم، وصلبهم"⁷، و"قتل شيخ الحرم، وصاحب الروضة المشرفة كبير عبيد الدار، بعد أن أخذ منه مائة ألف محبوب"⁸، وبرغم أخبار سفكه

¹ الترجمانة الكبرى: ص243.

² المصدر السابق: ص243.

(*) وظيف: تعني ما يُقدَّر له من طعام، ورزق، وتعني أيضًا العهد والشرط.

³ الترجمانة الكبرى: ص257.

⁴ المصدر السابق: ص258.

⁵ المصدر نفسه: ص259.

⁶ المصدر نفسه: ص259.

⁷ المصدر نفسه: ص260.

⁸ المصدر نفسه: ص260.

للدماء، يصفه أبو القاسم بالكرم، ويشهد على ذلك بعينه "ولقد جلستُ معه في منى ثلاث مرات، فشاهدتُ العجب، لا يرد أحد وقف أمامه غنياً أو فقيراً، فإذا خرج ملأ جيبه ذهباً"¹.

• العلماء في مدينة دمشق

اجتمع الزَيَّاني بعدد من العلماء بدمشق منهم "الفقيه المحدث المؤرخ الأديب الشيخ سعد الدين الحنفي، حفيد الشيخ القدوة العمدة سيدي عبد الغني النابلسي"²، وأيضاً "الفقيه اللبيب الحسيب الأديب كمال الدين الشيخ محمد بن محمد الدمشقي المشهور بالغزي"³.
ويذكر الزَيَّاني في أحد لقاءاته بالشيخ الغزي الشيخ أرسلان الذي ينعتة "بصاحب الكرامات"⁴، وقد سعى في تحصيل نسبه، فأرسل الزَيَّاني بطاقة للغزي يُعلمه فيها بعزمه على السفر، وقد بدأها ممتدحاً الشيخ الغزي: "أحبي طلعة ذلك الهلال، المرغوب بسلامته من النقص بعد الكمال، الذي هو للدنيا زينة وجمال، وللدين كمال، وللمستعين فال، وللمعتزين آمال، تحية صب معتكف على حبكم لا يبرح، وذي وجد لمجالسكم..."⁵، وتبادلوا بعدها الأبيات كلّ يمتدح الآخر، ومنه مطلع أبيات الشيخ الغزي:

يا واحد الفضل وفرد النهي وأكمل الناس مقاماً وحال⁶
وجاء في مطلع إجابة الزَيَّاني:
وأنتم أهل لكلّ الذي ذكرتم دون بقاء احتمال⁷

¹ الترجمة الكبرى: ص 261.

² المصدر السابق: ص 277.

³ المصدر نفسه: ص 277.

⁴ المصدر نفسه: ص 277.

⁵ المصدر نفسه: ص 278.

⁶ المصدر نفسه: ص 278.

⁷ المصدر نفسه: ص 278.

• الشيخ إسماعيل الجزائري

اجتمع أبو القاسم بأنطاكية "بالفقيه النبيه المؤرخ الوجيه مفتي الحنفية الشيخ إسماعيل الجزائري"¹، ووصفه الزيّاني بأنه "كان أعجوبة في الأدب والتاريخ، ويحسن اللسان العربي"².

• الوالي وابنته في مدينة أزميز

توجه الزيّاني مع أحد أصحاب الوالي لجنّازة مملوكة للوالي ماتت إثر إصابتها بالوباء الذي انتشر بأزميز، يصف أبو القاسم حال الوالي آنذاك: "شاكياً، ملازماً الفراش، فوقفتُ عليه، وهو يتقلب من حرارة الحمى"³، فرقاه، وكان وصف الرقية كما يقول: "قرأت عليه ما شاء الله، وطلبتُ ماء ورد، فجعلته في إناء كتبت فيه أسماء ومحتوها بذلك الورد"⁴، فدهن به جسد الوالي، فما كان الصباح إلا واستدعى الزيّاني ليشكره على ما صار عليه من عافية، يقول: "وقبض على يدي يقبلها ويبكي"⁵، وطلب منه أن يرقى ابنته أيضاً. فيصف الزيّاني انبهاره من جمال ابنة الوالي: "دخلتُ عليها على ما هي عليه من تعب الحمى، رأيت أمراً مهولاً، ودهشتُ من حسن صورتها، وما رزقت من كمال الخلقة"⁶، فرقاها، فشغيت.

• كاتب الدولة سليمان أفندي

التقى الزيّاني بأزميز بسليمان أفندي الذي كان "واقفاً مع الحاكم يحصي مستفاد المرسى، ومستفاد الجزية"⁷، وطلب من الزيّاني التفضل بقبول زيارته له في بيته، والسماح له برد الزيارة، ويعلل ذلك واصفاً حاله "فإني مثلك غريب الدار، أتأس بك، وتتأس بي، إذ لا تجد في هذه البلاد،

¹ الترجمة الكبرى: ص 278.

² المصدر السابق: ص 278.

³ المصدر نفسه: ص 281.

⁴ المصدر نفسه: ص 281.

⁵ المصدر نفسه: ص 281.

⁶ المصدر نفسه: ص 281.

⁷ المصدر نفسه: ص 282.

ومن طلبتها من يحسن العربية إلا قليل من التجار الأجلاف الذين لا منفعة فيهم"¹، ويصفه الزيّاني بعد مجالسته: "فوجدته حاذقاً لبيباً، يحسن أخبار دول الترك، والعجم، والروم"².

• صاحب المرسى: رجب بن عياد

استدعى غياث الحاج علي الجزيري الذي وصفه الزيّاني بقوله: "محينا الأكرم، المجاهد الأعظم، المتأدب بآداب الحريري"³، الاتصال بصاحب المرسى هناك رجب بن عياد، فكتب الزيّاني يتشفع له بمقام الحاج علي الجزيري، وفي هذا المقام يرتقي أبو القاسم بلغته، ويُطعمها بالمحسنات البديعية فيقول: "فلما رأى المكتوب رجع القهقري، وتتحى عن محله إلى ورا، ولما فُرى عليه أعرض ونأى، كأنه لا يسمع ولا رأى، وأهمل القضية، ولم يرحم شاكية"⁴، وفي المقابل يصف ما ألم به جراء هذا التجاهل لمكتوبه "فأقمنا في حيز الإهمال، عشرين يوماً على الكمال"⁵.

واضطر حضور موعد وضع جارية الزيّاني لإعادة الكتابة، واصفاً بن عياد "بالرجل المشؤم، الظلوم"⁶، إذ "زاد في الإعراض والإهمال، ولم يجب بنقص ولا كمال"⁷. فلم يلق قابلة لجاريته يقول: "جاء الطلق الجارية، فكنت أنا القابلة"⁸ وجراء ما لاقاه الزيّاني من صاحب المرسى هذا "الظالم المتمرّد، الذي هو من الإيمان متجرد"⁹ كتب قصيدة وسماها الكرنتينة يعني بها الجمرک، يهجو فيها، ويصف فيها سوء أخلاقه، ومطلعها:

من كان يسعى لخلق الله في الضرر ويظهر الخير والإحسان بالكذب
ومن يكن يفعل السوء عادته يعامل الناس كابن عياد رجب¹⁰
ويذكر الزيّاني فيما تقدم من رحلته موت رجب بن عياد إثر إصابته بالطاعون.

¹ الترجمة الكبرى: ص 283.

² المصدر السابق: ص 283.

³ المصدر نفسه: ص 363.

⁴ المصدر نفسه: ص 363.

⁵ المصدر نفسه: ص 363.

⁶ المصدر نفسه: ص 363.

⁷ المصدر نفسه: ص 363.

⁸ المصدر نفسه: ص 364.

⁹ المصدر نفسه: ص 364.

¹⁰ المصدر نفسه: ص 364.

• عبد السلام بن أبو القاسم الزياني

وُلد ابنه بقلعة تيكلي، يصف الزياني لحظة ولادة ابنه "جاء الطلق للجارية فكنتُ القابلة"¹، "فوضعتُ ولدًا ذكرًا، ليلة الاثنين سحرًا، فسميته عبد السلام"². فلما ماتت أمه، اختار له أبوه مرضعة كان "مات لها صبي، وزوجها مغربي"³.

• جارية أبو القاسم الزياني

يصف الزياني جاريته التي اقترَب موعد ولادتها لقد "انتخبناها على المراد والوفيق"⁴ فأنجبت له ولدًا سماه عبد السلام، إلا أنها بعد مدة من إقامته بتونس "أصاب الجارية الوباء، وماتت بعد ثلاث"⁵.

ث. الشخصيات خارج الرحلة

الترجمة الكبرى تضم بداخلها عددًا من الأجناس والأنواع الأدبية والعلوم والمعارف، لهذا لم تنحصر الشخصيات فيما دونه الزياني عن رحلاته الثلاث، بل تمتد عبر الترجمانة الكبرى، لهذا كان من الضروري بحث الوصف الذي شكل صور بعض تلك الشخصيات.

تبرز خارج الرحلة عدد من الشخصيات، بعضها ارتبط بعمل الزياني في الخدمة المخزنية، مثل شخصية السلطان اليزيد، الذي يصف أبو القاسم نواياه تجاهه بعد توليه السلطة فيقول: "كنتُ ممن يلطخهم شزرًا، ويرى الإيقاع بهم ليس بوزر، بل هو ثوابًا وأجرًا"⁶، "فلم أشعر إلا وأنا في قبضته أسير، وفي الغل والضيق الشديد العسير، وكل ما عندي من الدور والأسباب محوز، وممنوع مما لا

¹ الترجمانة الكبرى: ص364.

² المصدر السابق: ص364.

³ المصدر نفسه: ص373.

⁴ المصدر نفسه: ص363.

⁵ المصدر نفسه: ص373.

⁶ المصدر نفسه: ص139.

يجوز وما يجوز، وهذه النكبة الثالثة¹، وكثيراً ما يُزين الزياني المقاطع الوصفية بالسجع، لاسيّما إذا كان الموضوع المطروق قد أثار في نفسه، ولعلّها محاولة لتسليط الضوء عبر الارتقاء بالّلغة الوصفية التي يستخدمها لنقل الانفعالات والمشاعر. ويكرّر الزياني الأسلوب نفسه المستخدم في وصف نكبته الرابعة والتي ارتبطت أيضاً بالسلطان اليزيد، فيصف ما لاقاه منه بعد إعادته للخدمة مرة أخرى "وبعد شهور، وثب علي وثبة الانتقام، التي هي مسك الختام، فُضِرْتُ بحضرته إلى أن غبْتُ عن الوجود"². ويكمل وصف حال السلطان اليزيد حينها "وسار مغضباً، وبس، وعبس، وأدبر، واستكبر، وقال هذا ساحر البشر"³. لتنتهي محنته بموت السلطان اليزيد، ومبايعة أخيه السلطان سليمان.

ومن الملوك الذين تطرق الزياني في الترجمانة الكبرى إلى ذكر أخبارهم سابور ذو الأكتاف العريضة ملك الفرس، لما كاد له قيصر الروم⁴، ومن تلك الأخبار مكيدة قيصر لسابور الذي كان "يجول أقطار بلاده متكرراً"⁵، وتضمن هذا الخبر مقاطعاً وصفية إذ وجه قيصر من "يشاهد سابور، ويصور له صورته حتى كأنّه يراه"⁶، ففعل الفيلسوف ما أمر به، وأتى "ووضع بين يديه صورة سابور مثبتة في صحيفة من فضة كأنه هو، فتعجب قيصر من حسنه"⁷، وهذا من الوصف غير المباشر لصورة سابور، فلا يوجد أيّ وصف لملامحه غير ما عرفه عنه بأنّه ذو أكتاف، أيّ عريض المنكبين، وما وجده فيه قيصر من حسن.

وشخصية الكاهنة دهيا تأتي أهميتها من أنّها من الشخصيات النسائية القليلة التي تطرق لها الزياني خارج مسار الرحلة، وهي شخصية مهمة تاريخياً إذ كان لها أثر سياسي في إيقاف المد

¹ الترجمانة الكبرى: ص139.

² المصدر السابق: ص139.

³ المصدر نفسه: ص139.

⁴ ينظر: المصدر نفسه: ص133.

⁵ المصدر نفسه: ص133.

⁶ المصدر نفسه: ص133.

⁷ المصدر نفسه: ص133.

الإسلامي بقيادة عقبة بن نافع في الشمال الأفريقي، وجاء في وصفها "دهيا بنت ثابت القراوية، وصاحبة جبل أوراس"¹.

والشخصيات الدينية لها حضور أيضًا خارج مسار الرحلات، مثل أحمد الرفاعي الذي يلجأ الزياني في وصفه إلى الاقتباس الصريح يقول: "قال ابن خلكان: الشيخ أحمد بن الحسن الرفاعي، كان فقيهاً شافعيًا ينسب إلى رفاة بكسر الراء، انضم إليه خلق وأحسنوا الاعتقاد به، وصاروا طائفة، وأصله من العرب"².

من الشخصيات التي اتخذ منها الزياني موقفًا واضحًا وحادًا من يصفه "بالمبتدع الوهبي"³، والمحقق يوضح أنّ من ينعت الزياتي بالوهبي هنا "ليس هو محمد بن عبد الوهاب الزعيم الديني، ولا محمد بن سعود الذي أزر الدعوة، وإنما المقصود من الزياني أولئك الذين حاربوا الحجازيين ثم قتلوا وخربوا باسم الدعوة"⁴، ولعل ما يدعو للتفكير في هذا الرأي توظيف الزياني هذا النعت في وصف الحرب الدائرة بين الدولة العثمانية والدولة السعودية الأولى في الحجاز، وذلك في سياق الحديث مع الوزير يوسف باشا والي الحجاز الذي فضل البقاء في "ولاية جدة والحجاز، وحرب الشقي الوهبي"⁵. كما أنّه ضمن الرسالة التي وصلت علماء تونس آنذاك، ونسبها لمحمد بن عبد الوهاب يقول: "رسالة محمد بن عبد الوهاب إلى علماء تونس، ومنها إلى المغرب"⁶، ولكن فيما بعد يجعل إجابة قاضي تونس ردًا على "سعود الوهبي"⁷، هذه المقاطع توضح بلا ريب اعتراض الزياني على تلك الدعوة، أما من كان يقصده الزياني؛ فالأكيد أنّه يعني أصحاب الدعوة ومؤيديها، فنعت سعود بالوهبي وبعدها نعت من يتبنى تلك الدعوة بالمبتدع الوهبي لا يترك أي مجال للشك أنّ من يتبنى أفكار تلك الدعوة هو في نظر الزياني أخطأ بل صار مبتدعًا على حد التعبير الفقهي، والزياني لا يتردد في إبداء اعتراضه صراحةً حتّى على من بارك تلك الدعوة، والكاتب حمدون بن الحاج خير مثال حيث أبدى أبو القاسم

¹ الترجمة الكبرى: ص149.

² المصدر السابق: ص185.

³ المصدر نفسه: ص388.

⁴ المصدر نفسه: ص388.

⁵ المصدر نفسه: ص189.

⁶ المصدر نفسه: ص394.

⁷ المصدر نفسه: ص396.

اعتراضه بشدة على ما نظمه حمدون بن الحاج فقال: "وقفت على قصيدة لفقيه أفقه، وأديب وقته، وهو من صدور الدولة بزعمه، وأهل الصولة والجولة فيها بلسانه وقلمه، بلغ في المقت إلى مدح المبتدع الوهبي في رسالته، بقصيدة ميمية كانت مرسله لفضيحتة"¹، ثم وصفه بالمبتدع لأنه يرى أن نظمته لتلك القصيدة لا يقع "إلا من مبتدع مثله"². وأسلوب الوصف هنا مباشر في توظيف النعت (الوهبي) في وصف مؤيدي الدعوة، وإضافة لفظ المبتدع، يظهر الموقف الديني الذي اتخذه الزباني تجاه تلك الدعوة.

ج. الزمان في الترجمة الكبرى

يمكن اعتبار النسيج الزماني داخل الترجمة الكبرى نموذجًا مكتوبًا يُصور التعقيد الذي يشعر به الإنسان في محاولته لفهم مقولة الزمن، وربما لم يكن من السهل الوقوف على المقاطع الوصفية التي تناولت الزمن؛ لأنّ وفق تعريفاته المختلفة لا يمكننا إلا الوقوف عليه عبر المفردات التي تحيل إليه، أو الدلالات التي تنتج عنه.

يظهر التعقيد الزماني داخل الترجمة من خلال ما اجتمع فيها من أجناس وأنواع أدبية مختلفة وأخرى كتابية، تعقيدًا يستشعره القارئ، نظرًا لتعقيد زمن الحكي الذي اختار الزباني أن يجمع فيه بين أجناس كثيرة في نص واحد، فالترجمة لم تقتصر على سرد رحلات الزباني الثلاث التي قصدها في تأليفه هذا، بل امتدت لتشمل أجزاء من سيرته الذاتية، تضمنت تدوين الأحداث التي عايشها في فترات مختلفة خارج مسار الترحال، وبالإضافة إلى توظيفه الدائم لتقنية الاسترجاع لتاريخ الأماكن والشعوب.

وقد أتت أبسط أساليب وصف الزمن في الترجمة عبر استخدام المفردات التي تعبر عن الزمن، مثل وصف الزمن الذي استغرقه الزباني في عبور بعض المنازل في رحلته الثالثة "ومدة المسير إليه ست ساعات محررة"³، "وميقات المسير عشر ساعات على التمام"⁴، "وسرنا عشر ساعات كاملة،

¹ الترجمة الكبرى: ص 388.

² المصدر السابق: ص 388.

³ المصدر نفسه: ص 219.

⁴ المصدر نفسه: ص 219.

محررة"¹، وكذلك المفردات التي تصف أجزاء اليوم بالنسبة للزمن "وبعد إقامتنا به إلى وسط النهار، تهيأنا للقيام"²، "فاستراح الناس والبهائم، واستيقظ بسهر الليل كل نائم"³، والمفردات التي تصف زمن ما كمفردة الأيام "فأقمنا بهذا البندر ثلاثة أيام"⁴، ومفردة سنة التي أتت مرةً لتحدد سنةً بعينها "واستمر أولاده على قبضها إلى سنة ثلاثين ومائة وألف"⁵، وأخرى لتعين عمر الزياني حين قال: "وسني إذ ذاك ثلاث وعشرون سنة"⁶، ومفردة أشهر "فأقمنا بها أربعة أشهر"⁷ وغيرها من المفردات مثل فصل الشتاء في قوله: "وتوجهنا من الجزائر لقسنطينة، وكان فصل الشتاء"⁸.

وفي المقابل هناك الكتابة التاريخية، فالزياني المؤرخ يستذكر المرويّات التي يجد لها أهمية في بناء الترجمانة، فتتقاطع مع مسار كتابة النصّ الرحلي، مما يستدعي وجود زمنين مختلفين على الأقل، الأول يتعلّق بالزياني الرّحّال وهو يبدأ مع بداية كل رحلة من رحلاته وينتهي عند نهايتها، فزمن الحكّي للرحلة الأولى يبدأ من عند قوله: "وسياق الأولى أني توجهتُ مع والدي"⁹ وينتهي عند "فدخلنا بسبعة مثاقيل بقيت من البضاعة"¹⁰، والزمن الواقعي لها يبدأ سنة 1169هـ وينتهي سنة 1171هـ. والثاني يخرج فيه الزياني عن مسار سرد الرحلة لمسار الكتابة التاريخية التي تتنوع مواضيعها ففي الرحلة الثانية التي يبدأ زمن الحكّي فيها من "وفي عام مائتين وألف وجهني أمير المؤمنين بهدية للسلطان عبد الحميد العثماني للافطنبول"¹¹، وينتهي عند "ولما قدمنا على السلطان سيدي محمد رحمه الله تعالى"¹²، فإن هذا الزمن المحكي يتخلله زمن محكي آخر لكنه لا يتعلّق بزمن الرحلة الثانية بل بأزمة

¹ الترجمانة الكبرى: ص219.

² المصدر السابق: ص219.

³ المصدر نفسه: ص217.

⁴ المصدر نفسه: ص223.

⁵ المصدر نفسه: ص194.

⁶ المصدر نفسه: ص58.

⁷ المصدر نفسه: ص60.

⁸ المصدر نفسه: ص151.

⁹ المصدر نفسه: ص58.

¹⁰ المصدر نفسه: ص60.

¹¹ المصدر نفسه: ص65.

¹² المصدر نفسه: ص131.

أخرى، والزيتاني يوجد المبررات لهذا التداخل بين الأزمنة في الترجمانة الكبرى، لأنه اعتبر من اللازم الابتداء بخبر المغرب؛ فتحدث عن أصول البربر¹، ووصف تاريخهم²، وأحوالهم قبل الإسلام وبعده، إلا أنه يقتطع هذا الزمن ليذهب بنا لزمان آخر هو زمن كتابة الترجمانة حين أورد اعتراضه على رأي ابن خلدون في البربر "قال كاتبه أبو القاسم بن أحمد الزيتاني، ما وصف به ابن خلدون هذا الجيل البربري من الأوصاف الحميدة، والمناقب السنية العديدة، معلومة للعرب الكرام في الجاهلية والإسلام، ولما ساءت أحوالهم، وخالف فعلهم مقالهم، حلى بها الله هذا الجنس البربري قبل أن يخون ويفتري"³، ويؤكد على كلامه بتوضيح سبب حركة السلطان سليمان على البربر سنة 1234هـ⁴، ثم يعود للزمن الماضي باستحضار المرويات التاريخية بقوله: "رجوعاً لخبر مغربنا وأول من عمر سواحله البحرية"⁵، ويستمر في وصفه التاريخي للمغرب إلى أن يعود لمسار زمن حكي الرحلة الثانية مرة أخرى باستخدام لفظ (رجوعاً) "رجوعاً لخبر رحلتنا للاصطنبول عام مائتين وألف"⁶ الذي سيكون مفتاحاً هاماً للقارئ يهتدي به بين تنقلات الزيتاني الزمانية في كتابته للترجمانة.

تحقيب التاريخ من "أهم المظاهر المنهجية للكتابة التاريخية"⁷، التي استخدمت في محاولة فهم التاريخ، والزيتاني يوظف هذه الآلية في مواضع عدة أولها في خضم حديثه عن تاريخ المغرب، إذ يقسم تاريخ عمران المغرب إلى حقبة، الأولى قبل دخول البربر التي بدأت بعد الطوفان، ونزول أولاد يافث بن نوح فيها، "فبنى سبت بن الأندلس سبتة، وبنى طنجة بن الأندلس طنجة، وبنى بلش بن الأندلس بليونش، إذ كانت الأندلس وأرض العدو متصلة لا فاصل بينهما"⁸، يليها حقبة دخول البربر للمغرب،

¹ ينظر: الترجمانة الكبرى: ص 69.

² ينظر: المصدر السابق: ص 70-76.

³ المصدر نفسه: ص 74.

⁴ ينظر: المصدر نفسه: ص 75.

⁵ المصدر نفسه: ص 77.

⁶ المصدر نفسه: ص 82.

⁷ ولد النبوة، كريم: مسألة التحقيب عند المؤرخ سعد الله، المجلة المغربية للدراسات التاريخية والاجتماعية، جامعة سيدي بلعباس، مجلد 7، عدد 2، ديسمبر 2016، ص 24.

⁸ الترجمانة الكبرى: ص 77.

فكان "أول بناء بناه البربر لما دخلوا المغرب مدينة سلا"¹، وقيل فيها أنّ الإسكندر "لما دخل المغرب بناها وبنى مدينة شالة مقابلة لها"²، وأما أول ما بني بعد الإسلام في المغرب "مدينة النكور أسسها إدريس بن صالح الحميري عام ثمانين، وجهه حسان بن النعمان الغساني أمير عبد الملك بن مروان بأفريقية لفتح المغرب"³، ومن هنا يستمر الزياني بسرد عدد من الأسماء التي ساهمت في بناء وإعمار المغرب مثل نصارى البردقيز الذين بنوا مدينة العرائش⁴، وبنو إدريس الذين أسسوا الدولة الإدريسية بالمغرب، وبنوا عددًا من المدن مثل مدينة أصلة، ومدينة تاهرات، ومدينة حجر النسر⁵، وصولًا إلى مدينة فضالة التي أسسها السلطان محمد الثالث "عام اثنين وثمانية ومائة وألف"⁶. هذه الآلية التي يتبعها الزياني لوصف حقبة التاريخ العمراني في المغرب، تكشف عن صفة أساسية يتصف بها الزمن، ألا وهي الحركة والتغيير، وهذا يفسر استخدام الوصف بالفعل الذي ينطوي على الحركة المصحوبة بالضرورة بالتغيير عبر عقود من الزمن.

أي أنّ وصف الزمن في الترجمة يمكن القبض عليه من خلال الوقوف على المقاطع الوصفية التي تصف الحركة والتغيير، وعبر تتبع الأحداث التي تشكل التاريخ، لاسيما تاريخ السلطة الذي يُعتبر القوة الكبرى لجميع التغييرات التي تطرأ على الشعوب، والأماكن. ولنأخذ مثالًا تاريخ آل عثمان الذي نرصده في الترجمة الكبرى من خلال ثلاث محطات، الأولى تأتي من خلال تقنية الاسترجاع للمرويات التاريخية، "فأول من ملك منهم في ممالك الروم الأمير عثمان الغازي بن الأمير أرطغرل شاه"⁷، ويقتبس الزياني من تاريخ القرمانلي نصًا وصفيًا مباشرًا يقول فيه: "آل عثمان من أعظم سلاطين الدنيا أبهة، وجلالة، وشدة، قوة، وآثارًا في الأرض"⁸، وقد استمروا في جهاد الروم إلى أن "فتحوا مدن الأنصولي،

¹ الترجمة الكبرى: ص 78.

² المصدر السابق: ص 78.

³ المصدر نفسه: ص 79.

⁴ ينظر: المصدر نفسه: ص 79.

⁵ ينظر: المصدر نفسه: ص 79-80.

⁶ المصدر نفسه: ص 79-80.

⁷ المصدر نفسه: ص 127.

⁸ المصدر نفسه: ص 127.

وقطعوا الخليج إلى الرميلى، وفتحوا مدنه إلى أن فتحوا الإصطنبول عام سبعة وخمسين وثمانمائة¹ ومن أعظم مباني مدينة إصطنبول الكنيسة التي "صيرها [السلطان محمد بن مراد] مسجداً جامعاً للمسلمين، وسميت آية صوفيا، باسم بانيتها صوفيا، أم الطاغي قسطنطين ملك الروم"²، والحقبة الثانية هي التي عاصرها الزياني في رحلته الثانية التي توجه بها إلى إصطنبول بأمر من السلطان محمد الثالث، وفيها رصد الزياني بالمشاهدة والمعينة حال الدولة العثمانية في تلك الفترة الزمنية، فقد كانت دولةً مزدهرة من الناحية العمرانية، إذ وصف ما رآه من مساجد عظيمة³، وأماكن معتبرة⁴، مثل: "بيت المال، ودار الضرب الذي تخدم [تُخْتَم] فيها سكة الذهب، والفضة، ودار الصنعة التي تفرغ فيها المدافع، والمهاريز، ودار القز التي يخدم فيها الوشي، والديباج، والطرز، والألوية، والستور"⁵. كما التفت الزياني إلى وصف الحالة الثقافية في المجتمع العثماني، فأحصى "ترتيب العلماء بالإصطنبول، ومرتب كل واحد في الشهر"⁶، ابتداءً من شيخ الإسلام، وهو أعلاهم مرتبة، ومرتبته "في كل سنة من بيت المال، وفي كل شهر قروش ألفان وسبعمئة، كان مولى أو معزولاً"⁷، وأيضاً مراتب المدرسين، "وأعلاها رتبة مدرس السليمانية، وفيها خمس مدارس، له في كل شهر من وقفها خمس وخمسون قرشاً"⁸، واختيار المدرسين لم يكن أمراً يسيراً، إذ يخضع المتقدم لتلك المنزلة إلى اختبار بدار التمييز الذي يعقد تحت حكم "اثنا عشر رجلاً من الفقهاء يسمونهم المميزين"⁹، فيخضعون للاختبار "فمن أجاب جميعهم فهو المحصل، ويكتبون له في بطاقة فلان أعلى، ومن أجاب الأكثر يكتب له فلان قريب الأعلى، ومن أجاب عن النصف، يكتب له فلان وسط، ومن أجاب عن أقل من النصف يكتب له فلان أدنى، فالأعلى يسرح له التدريس، ومن دونه يرجع لملازمة القراءات إلى سنة قابلة"¹⁰. أما

¹ الترجمة الكبرى: ص129.

² المصدر السابق: ص114.

³ ينظر: المصدر نفسه: ص103 وص114-115-116.

⁴ ينظر: المصدر نفسه: ص99.

⁵ المصدر نفسه: ص99.

⁶ المصدر نفسه: ص111.

⁷ المصدر نفسه: ص111.

⁸ المصدر نفسه: ص111.

⁹ المصدر نفسه: ص113.

¹⁰ المصدر نفسه: ص113.

على الصعيد السياسي فأوضاع الدولة العثمانية لم تكن في أحسن أحوالها، فقد تزامن وجود الزَيَّاني سفيراً في إسطنبول مع إخطار السلطان عبد الحميد الأول من قبل ملك روسيا بالحرب لمدة ستة أشهر، مما يجعل الحقبة الثالثة التي وصفها الزَيَّاني في الترجمة هي التي وصلت فيها الدولة العثمانية إلى أيام ضعفها وعجزها، ففي رحلته الثالثة صادف الأغا علي المهنندار، فسأله عن حال الدولة العثمانية، فأجابته: "من عرفته مات [السلطان عبد الحميد الأول] ومن طلع تائه في فلوات، وما بقي إلا الوزير يوسف باشا في حيز الإهمال"¹، ويذكر الزَيَّاني وصف المهنندار لأحوال الدولة العثمانية فيقول: "وأخبرنا بما وقع في دولتهم من النقص في كل الأحوال، وما هي فيه من الأهوال، في المقام، والترحال"².

إذن فالزمان في الترجمة الكبرى، لا يمكن القبض عليه بصورة منفصلة عن السرد، إلا في بعض الألفاظ التي تتصل اتصالاً مباشراً بطبيعة اللغة، أي كما تظهر في دلالات الأسماء على الأشياء والموضوعات، غير أن الزمان في السرد يرتبط ارتباطاً وثيقاً مع المراوحة التي مارسها الزَيَّاني بين تدوين رحلاته الثلاث، والاستطرادات التاريخية، والمعرفية، والتزينية التي تُحتم على الأقل المراوحة بين الزمن الماضي، بالتذكر، والاسترجاع، والاقتباس، والزمن الحاضر الذي يقوم على التدوين، والتوثيق.

¹ الترجمة الكبرى: ص167.

² المصدر السابق: ص168.

المبحث الثاني: وظائف الوصف في الترجمة الكبرى

ألقى المبحث السابق الضوء على علاقة الوصف بعناصر السرد: المكان، والشخصيات، والزمان، أيّ البناء الوصفي لها، بحيث يمكن تصوّر كلّ عنصر على حدة من خلال المقاطع، والأساليب الوصفية التي تصوره، غير أنّ بلوغ غاية بحثنا الأساسية المتعلقة بجماليات الوصف في الترجمة الكبرى، تجعل من الضروري بحث وظائف الوصف في الترجمة، وذلك لأنّ الوظائف تنقل المقاطع والأساليب الوصفية من حيز ينظر فيه إلى عناصر السرد كلّ على حدة، إلى حيز يُنظر فيه لتفاعل تلك العناصر عبر الوصف داخل الترجمة، أيّ النظر في أثر الوصف في بناء الترجمة الكبرى من خلال وظائف الوصف.

أ. الوظيفة التصويرية:

تُعَدُّ المشاهدة والمعينة هي مفتاح الرّحال في رحلته، وغاية فضوله، وسعيه للاكتشاف، والبحث، وتدوين الرّحلات محاولة لتجسيد العالم باستخدام اللّغة، إنّها محاولة هامة تجعل من الصعب اعتبار الوصف أداة هامشية في نصوص الرّحلات، لأنّ الوصف التصويري لا يمكن اعتباره عاملاً ثانوياً فيها، فالوصف بمنزلة العين للقارئ تتفحص، وترى، وتلاحظ ما يعجّ به عالم المؤلف المكتوب، ومن هنا فالمقاطع الوصفية التي تصوّر لنا الأمكنة، والبلدان، والشخصيات، تبرز الوظيفة التصويرية للوصف، ففي وصف الزيّاني للمغرب يقول: "هو كالجزيرة منقطع عن العمران، يحده البحر الأخضر من الشمال، والبحر الأعظم يحده من جهة المغرب، والنيل يحده من المشرق، والقفر يحده من الجنوب، وجبل درن يشقه في وسطه ممتدّاً معه مع ساحل البحر الغربي إلى طلسمه ببرقة قرب الإسكندرية"¹، تنهض الوظيفة التصويرية عبر جغرافيا المكان، في المقابل هناك مواضع أخرى تقوم فيها على الوصف الرياضي الذي يهدف إلى نقل الصورة الهندسية للمكان، وهي صورة صناعية، يتدخل فيها الإنسان بشكل مباشر، كما جاء في وصف المسجد الأقصى "طوله سبعمائة وثمانون ذراعاً، وعرضه أربعمائة وخمسون ذراعاً، فيكون تكسيه من المراجع الغربية، مائة مرجع، وأربعين مرجعاً، وخمسي مرجع، وسوارية أربعمائة وأربع عشر سارية، وأبوابه خمسون باباً يطوف به

¹ الترجمة الكبرى: ص66.

سور سعة ثلاث خطوات¹، كما ترسم الوظيفة التصويرية ملامح المجتمعات وأنظمة الدول أيضًا، ولعلّ الدولة العثمانية أكثر البلدان التي صوّر الزياني أوضاعها الاجتماعية، والثقافية، إذ وقف على عدد من الأماكن المهمة بإسطنبول مثل "دار الكاغيد، التي يصنع بها أنواع أجناس الورق، وأنواعه، وأوقفونا بها على دار مصنوعة كلها من الكاغد، حيطانها، وسقفها، وقرمودها، وزليجها، ودفنها، وفرشها، وجميع آلاتها، حتى آلات الطبخ، إلا الماء"². ومن مشاهد الاهتمام بالعلم والتعليم في الدولة العثمانية، مشهد اختبار المتعلمين بدار التمييز، يصور الزياني ذلك المشهد بدخول اثني عشر فقيهاً "يسمونهم المُميزين، ويدخل الطلبة الأول فالأول إلى أن يجتمعوا، ويتقدم الأول فالأول، ويلقي عليه كل واحد من الفقهاء مسألة من المعقول لا غير، فمن أجاب جميعهم فهو المُحصل، ويكتبون له في بطاقة فلان أعلى، ومن أجاب عن الأكثر يكتب له فلان قريب الأعلى، ومن أجاب عن النصف يكتب له فلان وسط، ومن أجاب عن أقل من النصف يكتب له فلان أدنى، فالأعلى يسرح له التدريس، ومن دونه يرجع لملازمة القراءات إلى سنة قابلة، ويدخل الدار مرة أخرى، وهكذا إلى أن يحصل على المرغوب"³، والمجتاز للاختبار "يسرح له شيخ الإسلام القضاء أو الكتابة أو التجيم"⁴، ومدة الدراسة قبل دخول الاختبار سبع سنوات، والمدرسون مراتب "أعلاها رتبة مدرس السلمانية...، له في كل شهر من وقفها خمس وخمسون قرشاً"⁵، وأدناها "مدرسة حركة الخارج...، له في كل شهر من الوقف عشرة قروش"⁶. ويصور الزياني مراتب العسكر وأدوارهم فمنهم "الاصباحية كلهم خيلا [خيالة أي فرسان، وعددهم] مائة ألف وعشرة آلاف"⁷، و"الانقشائية وهم رجال لا خيل لهم، وعددهم مائة وخمسون ألفاً"⁸، و"الحشوية، والقلق، وهم مائة ألف رجالة"⁹، و"البحرية، والطبجية، والعربجية، والمعلمين وهم مائة ألف"¹⁰، أما عسكر السلطان فهم "معه في القلعة، لا يخرجون عنها لحركة ولا

¹ الترجمة الكبرى: ص 267.

² المصدر السابق: ص 99.

³ المصدر نفسه: ص 113.

⁴ المصدر نفسه: ص 112.

⁵ المصدر نفسه: ص 111.

⁶ المصدر نفسه: ص 112.

⁷ المصدر نفسه: ص 120.

⁸ المصدر نفسه: ص 120.

⁹ المصدر نفسه: ص 120.

¹⁰ المصدر نفسه: ص 120.

غيرها، وهم عشرون ألفاً، وكلهم عزاب، لا يتزوجون، ومن مات منهم يخلفونه من عسكر الانكشارية، والاقشارية، ومن مات منهم يُخلف من مطلق الناس¹، ومن الوظائف القائمة بالدولة من يسمى "التلخيصي"، وهو الذي يتوجه بين الوزير والسلطان التي فيها عدد المال، فيقبلها ويجعلها على رأسه، وينزل المال في خناشيه [يعني خيالة أي الفرسان] بواسطة الراح قبالة أربابه².

ومما وقف عليه الزيّاني في الدولة العثمانية، أنّ "لا وجود للبغال عند الترك"³، إذ أراد أبو القاسم شراء بغلة، فبحث ولم يجد، فوجد أنّ "كلّ الناس لا يركبون إلا الخيل، ويحملون عليها، وهي في غاية الرخص من الخمسة مثاقيل إلى العشرة، إلى العشرين، ولا يباع بأعلى ثمن إلا الخيل العربية التي تأتي من بلاد المغرب، ولا يركبونها حتى يخصوصها لتزول قوتها، وتكسر شدتها، ولا تنفر بهم لأنهم أناس لطاف، خصوصاً أهل الدولة، وأهل المناصب، والتجار، والقضاة، والعلماء، والشهود، فكلهم يركبون الخيل، ويأتي بها الأتراك للسوق كما يأتي أهل البادية بالغنم، والبقر، تباع صغارها، وكبارها للذبح والأكل، وشحمها يجعلون منه الشمع لعامة الناس، ولا يوقد شمع النحل إلا الأعيان والتجار، وأهل اليسار من المسلمين، وأهل الذمة"⁴.

لم يعتنِ الزيّاني كثيراً بوصف ملامح شخصيات الرجال بقدر ما اهتم بوصف سماتها الخلقية، فجاء في صف الكاهي باي قوله: "كان شريقاً أصله عربي من العبيديين ملوك أفريقية ومصر، وكان مؤرخاً، وأديباً، فاضلاً، يحسن اللسان العربي"⁵، ونادراً ما يجمع بين وصف الجانب الخلقي والخلقي للشخصية، مثل ما جاء في وصف الشاب الذي لقيه في مدينة تلمسان إثر قيامه برحلته الثالثة، يقول في وصفه: "رجل بهي المنظر، نظيف الثياب، صقيل المغفر، يلطخني شزراً، ويميل عني كبراً، يطرق النادي، ولا يسلم، ويبخل بالجواب عن المتكلم"⁶ وفي المقابل فإنّ وصف النساء في الترجمانة وإن ندر، يركز فيه الزيّاني على وصف سماتهن الخلقية، مثل وصفه لجاريته التي لقيها عند صاحبه الأغا علي المهمندار بقوله: "جارية سوداء"⁷، وفي وصف هدية ملك الهند

¹ الترجمانة الكبرى: ص120.

² المصدر السابق: ص120.

³ المصدر نفسه: ص171.

⁴ المصدر نفسه: ص172.

⁵ المصدر نفسه: ص99.

⁶ المصدر نفسه: ص142.

⁷ المصدر نفسه: ص168.

لكسرى "جارية طولها عشرة أشبار إلى صدرها، وخمسة أشبار إلى فرقاها، تضرب أهداب عينيها على خديها، فكان بين أجفانها لمعان البرق، ومن بياض مقلتيها، وسوادهما مع صفاء لونها، ودقة تخاطيبتها، وإتقان شكلها، مقرونة الحاجبين"¹، ولعل المرأة الوحيدة التي وصف الزباني جمالها عن شعور بالإعجاب، كانت ابنة والي بأزمير "رأيتُ أمراً مهولاً، ودهشتُ من حسن صورتها، وما رزقت من كمال الخلقة"².

للوصف قدرة على تصوير الانفعالات النفسية، والمشاعر كذلك، مما ينقلها من حيز أقل وضوحاً في الواقع، إلى التصوير اللغوي الذي يكسبها وضوحاً عبر قراءتها ضمن سياقاتها، وقد سلط الزباني الضوء على عدد من المشاعر مثل: الحسد، والكبر، والصبر، والوحدة، والعامل المشترك عند أبي القاسم في إطار حديثه عن المشاعر، هو الاستشهاد بالشعر، أو كما يمكننا وصفه أنه محاولة لمعالجة الموضوع عبر شعر الحكمة الذي يصور مدى قبح أو جمال تلك المشاعر، وعادة ما تنبثق هذه المواضيع عن حدث ما مرّ به الزباني أحوجه إلى طرق الموضوع شرحاً وتمثيلاً، فموضوع الحسد تطرق إليه إثر ما حصل في بيت كمال الدين باشا، لما أحس من محمد بن عثمان الحسد والغيرة لأنه كما يصف ما حصل منه "حيث بلغه اختصاري للتأليف، ولم يجد هو إليه سبيلاً، بلغ به الحسد كلّ مبلغ، وأراد رؤيته، إذ أخبره الترجمان بتوجهي إليه يوم الخميس، فسبقني حتى يكون وقوفه عليه اتفاقاً غير مقصود"³، فما كان من الزباني إلا أن قال: "فما وسعني إلا إبرازه من تحت إبطي، إرغاماً لأنف الحاسد الذي من جنسي ورهطي"⁴، واستشهد بعبارة لابن القويّع "لا تتكلم إلا فيما تعلم، ودع عنك ما لا تعلم"⁵، ومن الأبيات التي استشهد فيها في هذا الموضوع.

حسدوا الفتى إذا لم ينالوا سعيه فالقوم أعداء له وخصوم⁶

إذن فالوظيفة التصويرية للوصف، وظيفة قارة، لا يمكن تجاوزها، أو تجاهلها، في كتابة النصّ الرحلي؛ لأنها ترتبط بالضرورة مع الحاجات الأساسية التي يمارسها الرجال، والإنسان المفكر، وبالتالي فإنّ عملية الكتابة، تحتاج لهذه الوظيفة لتستطيع نقل ما يعايشه الإنسان عبر حواسه

¹ الترجمة الكبرى: ص 236.

² المصدر السابق: ص 281.

³ المصدر نفسه: ص 104.

⁴ المصدر نفسه: ص 104.

⁵ المصدر نفسه: ص 104.

⁶ المصدر نفسه: ص 106.

الخمس، ومشاعره وأحاسيسه إلى حيّز لغوي، دون الإخلال بعملية التلقي، إثر انتقال الأشياء، والأشخاص، والمواضيع، والمشاعر، من حيّز الواقع إلى حيّز النص.

ب. الوظيفة الإخبارية:

هي وظيفة أساسية للوصف؛ لأنّ المعارف التي تُبنى عليها النصوص المتصلة بالواقع، والمستمدة منه تحتاج للإخبار كوسيلة لنقل الأحداث، والمعارف عبر التحقيق والإحصاء، ونصّ يتصف بالموسوعية كالترجمة الكبرى، لا بدّ من الوقوف فيه على دور الوظيفة الإخبارية للوصف في بنائه النصّي، ويتضح من مقدمة الزباني في حديثه عن منهجه ومصادره، أن الأخبار التي سيسعى الزباني لرصدها عديدة، ومتنوعة، وأول تلك المواضيع رحلاته الثلاث، ولا خلاف في أنّ الرّحلة كلها خبر، فالرحال عند تدوينه لرحلته ينقل أخباراً ومعارف اكتسبها عبر المعاينة والمشاهدة، كما ينقل ما خاضه من تجارب، ويظهر خبر رحلته تفاعله داخل الزمن، وفي المكان، ومع شخصيات الرّحلة، بالإضافة إلى أنواع عديدة من الأخبار المتصلة بأخبار البلدان، والملوك، والقادة، والعلماء، والأنبياء، والأولياء، والأمكنة، كالبهار، والأنهار، والجبال، والآبار، والعيون، والمساجد، والقبور، والأضرحة، وتشهد الترجمة اهتماماً بالغاً بتاريخ الأمم، والبلدان، كما أنّ لعلم الأنساب حيّزاً يعكس أهميته عند المؤلف، ولم يغفل الزباني عن نقل أخبار الطوائف، والشعوب، وتدوين الأخبار المتصلة بالدين، مثل أخبار دعوة محمد بن عبد الوهاب، وأصداء تلقيها في المغرب العربي، كما أنّه أفرد جزءاً من الترجمة يورد فيه الشواهد التي أوردها العلماء المسلمون للردّ على النصارى، واليهود في مسائل الاعتقاد¹.

إنّ البناء المعرفي للعقلية التي يتمتع بها الزباني خوّله لإنشاء مثل هذا النص، الذي لا يقوم فقط على المعاينة والمشاهدة على اعتبارها الشقّ الأليق بالوظيفة التصويرية، بل شغلت المرويات التاريخية شقاً كبيراً منه، فالإخبار إن لم يكن نقلاً مباشراً من خلال المعاينة، كان إخباراً تنوعت مصادره بين النقل من كتب التاريخ، والرحلات. وما يؤكد أهمية الوظيفة الإخبارية في الترجمة ليس فقط الكم الهائل للمقاطع الوصفية المتنوعة التي تحيل إليها، بل أنّ جوهر الإخبار هو التعليم وزيادة الحصيلة المعرفية والثقافية، وهذا السعي الذي أخذه الزباني على عاتقه في كتابته للترجمة.

سيجد قارئ الترجمة العديد من الأمثلة التي تكشف عن الوظيفة الإخبارية، أو كما يسميها بعضهم الوظيفة التعليمية للوصف، ولهذا سنحاول تسليط الضوء على عدد من الأخبار التي كان

¹ ينظر: الترجمة الكبرى: ص 53-55.

للوّصف فيها دور هام في بناء الخبر، وإيصال المعلومة، ولنبدأ بما نقله الزيّاني عن خبر تسمية هاشم بن عبد مناف بهذا الاسم، إذ إن "اسمه عمرو، وكنيته أبو نقلة لعلو مرتبته، ولقبه هاشم"¹، يقول الزيّاني في ذلك الخبر: "أصاب الناس سنة جذب شديد، فخرج هاشم إلى الشام، فاشترى ما اجتمع عنده من مال دقيقاً، وسمناً، وكعكاً، فقدم مكة في الموسم فهشّم الخبز والكعك، ونحر الجزور، وطبخ اللحم، وجعله ثريداً وأطعم الناس"²، وبذلك صار لقبه هاشم. ومن المهم معرفة أنّ المؤلف سعى هنا إلى نقل معلومة تتعلق باسم جد النبي صلى الله عليه وسلم، في خضم بحثه لنسبه عليه الصلاة والسلام، الذي انطلق من حديثه عمّا نظمه من الشعر في أسماء سلاطين الدولة العلوية بالمغرب، ونسبهم الشريف إلى رسول الله.

وفي استحضار خبر أبي العباس الشيخ أحمد زروق البرنسي مع الشيخ أبي عبد الله محمد الزيتوني، تكشف عن أهمية الوظيفة الإخبارية في نقل الخبر العجائبي الذي عادة ما يرتبط بحدث أو شيء خارج عن الطبيعة، يقول الزيّاني: دخل الشيخ أحمد زروق على الشيخ الزيتوني "فوجد الشيخ جالساً في وسط الغرفة، وعن يمينه امرأة متزينة بزينة حسنة، وعن يساره أخرى مثلها، وهو يلتفت إلى هذه مرة فيقبلها، ويلتفت إلى الأخرى فيقبلها، فلما رآه على ذلك الحال، ولّى راجعاً، وقال في نفسه: هذا رجل زنديق، فنادى عليه الشيخ الزيتوني: يا أحمد الكذاب، ارجع، فرجع، فلم يجد معه أحداً، فعلم أنّه امتحن، فقال الزيتوني: أما التي رأيت عن يميني فهي الآخرة، وأما التي عن يساري فهي الدنيا، وأنت كاذب في دعواك"³، والوظيفة الإخبارية هنا تقدم عدداً من المعارف في نقل خبر عجائبي كهذا، فعلى صعيد صوت الراوي، يورد الزيّاني هذا الخبر في سياق وصف مدينة مسراته إذ يقول: "وبها مقام الشيخ العلامة الصالح سيدي أحمد زروق البرنسي، رحمه الله، وحيث ذكرنا تربته ومقامه، فلا بدّ من ذكر بعض كراماته، وأحواله، وعلومه"⁴، ويتضح من هذا التقديم ما تتطوي عليه معتقدات الزيّاني من تقدير للصالحين والأولياء، والإيمان بكراماتهم، في المقابل عندما يتضاءل صوت الراوي، وتبدأ الرواية التاريخية لخبر الشيخ أحمد زروق مع الشيخ الزيتوني عبر الوظيفة التصويرية بالحضور كمشهد مسرحي، يُلزم القارئ بفعل القراءة التفاعل مع هذا الخبر الذي يمتاز بالعجائية بلا شك.

¹ الترجمة الكبرى: ص 431.

² المصدر السابق: ص 431.

³ المصدر نفسه: ص 368.

⁴ المصدر نفسه: ص 367.

وهنا تتطوي الوظيفة الإخبارية على معنى يتجاوز التبليغ، والتعليم، والتثقيف، ألا وهو التفكير في ذلك الخبر العجائبي في تناغم تام بين وظيفة الوصف التصويرية، والإخبارية.

والأضرحه، والقبور لها مكانتها في عقيدة الزَيَّاني، وما يؤكد ذلك الخبر الذي أورده الزَيَّاني عن نفسه لما استخار الله في المقام بعد نكبته السادسة¹ أو الارتحال، يقول: "فأريت في عالم النوم كأني بمقام الشيخ سيدي أبي علي أزوره، إذ دخل علي رجل وقال: يا هذا إنك غلطت، حاجتك عند أبي علي اليوسي، فخرجت من مسجد أبي علي، وتوجهت قليلاً، وإذا أنا بزاوية الشيخ علي اليوسي أعرفها من قديم، فعجبت، وقلت: أن الأرض طويت لي أو أن الزاوية انتقلت، ولما دخلت باب الزاوية رأيت الرجل على كرسيه، وجماعة من الطلبة أمامه، وهو رجل أشيب نحيف الجسم، وعلى رأسه عمامة، مجرد من الإحرام، وهو يقول، كأنه يقرر للقوم، من قرأ قصيدتي المغربي، والبستي لا يحتاج إلى مشير، ولا خبير، ففيهما من فصول السياسة، والرأي، والتدبير، ما لم يجتمع في ديوان صغير أو كبير، ورفع يديه للفتحة، وقام مجرداً في عباءة، ودخل باباً، وانفصل القوم، وانتبهت بما رسم كُنْ [مكنون] كلامه في عقلي"². الزَيَّاني لم يتجاهل هذه الرؤيا إذ لم يكن له هم لعدة أشهر سوى البحث عنهما إلى أن وجدتهما، "فلما طالعتهما كان فيهما دوائي، وانتثيت عما كنت أخوض فيه من الآراء، وسكنت وحشتي، وفوضت أمري إلى الله، وتمسكت بحوله، واعتصمت بحبله، وكان السبب في تأخيري عن السفر من المغرب مرة رابعة"³.

والحقيقة أن السعي الحثيث لنقل الواقع، وتضمن الترجمانة الكبرى، بشتى أنواع الأخبار، يجعل للوظيفة الإخبارية للوصف أهمية كبرى في إضفاء صفة الموسوعية على نص الترجمانة، وبالمثال يتضح المعنى؛ فإذا تتبعنا خبر نزول الزَيَّاني بمدينة تلمسان، سنجد الزَيَّاني يسرد خبر ما جرى له فيها، غير أنه سرعان ما ينتقل إلى سرد أخبار متنوعة تتصل بتاريخ المغرب الأوسط، أولها "الخبر عن مدينة تلمسان"⁴ يذكر فيه موقعها من بلاد المغرب، ومن أسسها، فضلاً عن رده على من قال بأنها مدينة الجدار المذكور في القرآن، فإن من رأيه أنه "أمر بعيد عن التحصيل باطل، لأن موسى عليه السلام لم يفارق المشرق إلى المغرب، وبنو إسرائيل لم يتسع ملكهم إلى أفريقية"⁵، ثم

¹ ينظر: الترجمانة الكبرى: ص 382.

² المصدر السابق: ص 383.

³ المصدر نفسه: ص 383-384.

⁴ ينظر: المصدر نفسه: ص 145.

⁵ المصدر نفسه: ص 145.

ينتقل إلى خبر "بلوغ مولانا إدريس للمغرب عام 170هـ"¹، واتصال هذا الخبر بمدينة تلمسان يعود لنزوله عند "محمد بن خزر بن صولات، أمير زناتة وتلمسان"²، وبانتهاء دولة الأدارسة، برز الشيعة بدعوة من أبي العافية المكناسي³، ثم ينتقل لخبر "تداول الدول لملك المغرب"⁴، فخير "تلمسان ومن ملكها، ودخول الترك إليها"⁵، ويعقب ذلك بخبر "ما بقي من مدن الوسطة التي بين تلمسان والجزائر، وما ليس منها قبل الإسلام وبعده"⁶، ثم "خير فاتح المغرب الأقصى عقبة"⁷، ولم يغفل عن الوقوف على بعض الأضرحة القريبة من ضريح عقبة بن نافع، فيعرف "بالأخضري صاحب السلم"⁸، ويتناول خبر "قبر نبي الله خالد بن سنان العبسي ببلاد الوسطة"⁹، ولم يكتفِ بالإشارة إلى وجود مزار قبر خالد بن سنان، بل يحيل إلى رحلة العياشي، يقول الزياني: "ولم أقف له على خبره في كتب التاريخ، ولا في تقييد لأحد إلا ما رأيته في رحلة الشيخ العلامة أبي سالم العياشي"¹⁰، والذي جاء فيه من الأخبار التي تدور حول هذا القبر "أنه رأى نوراً صاعداً من تلك البقعة إلى السماء ثلاث ليالٍ"¹¹، وأما من عرّف الناس بأنه قبر خالد بن سنان، فأهل الكشف، ومن رأي الشيخ أبي بكر السكتاني أنه "أحد رسل عيسى عليه السلام"¹²، وليس بنبي جاء بين عيسى عليه السلام، وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم. ويعود الزياني لخبر ارتحاله في رحلته الثالثة بلازمته (رجوعاً). إذن هذا التتبع يقودنا لرؤية أكثر وضوحاً للأخبار التي يسعى الزياني لإيصالها للقارئ عبر الوظيفة الإخبارية للوصف، ويكشف عن السر وراء الزخم الإخباري في الترجمانة الكبرى، والذي توضحه مقدمة الزياني حين

¹ ينظر: الترجمانة الكبرى: ص145.

² المصدر السابق: ص145.

³ ينظر: المصدر نفسه: ص146.

⁴ ينظر: المصدر نفسه: ص146-147.

⁵ ينظر: المصدر نفسه: ص147-148.

⁶ ينظر: المصدر نفسه: ص148-149.

⁷ ينظر: المصدر نفسه: ص149.

⁸ ينظر: المصدر نفسه: ص150.

⁹ ينظر: المصدر نفسه: ص150-151.

¹⁰ المصدر نفسه: ص150.

¹¹ المصدر نفسه: ص150.

¹² المصدر نفسه: ص150.

قال: ولم تقتصر، وزادت على ما جلبه، وأبرزت ما أغفلوه، وحليتها بحوادث، نوادر، وحكايات جلبها المؤرخون الكبار، وقيدت من غرر كلامهم أوفر النصيب... الخ¹.

ت. الوظيفة السردية:

يُقدم محمد الناصر العجيمي مصطلح تسريد الوصف²، في محاولة لشرح العلاقة بين السرد والوصف من منظور غير تقليدي، إذ لا ينظر إلى الوصف على اعتباره مُعطلاً لحركة السرد، بل على العكس؛ فإنَّ العلاقة بين السرد والوصف تتسم بالانسجام الضروري، الذي تتطور به الأحداث، ويفسرهما، فالوصف حين يتحول من عامل ثبات إلى عامل سينمائي يؤثر على تصوير الحكاية السردية، يُصبح ضرورة لازمة لنمو الأحداث، ورصد تأثير الزمان على الأمكنة والشخصيات. إنَّ الحركة ترتبط بالأفعال بالنظر إلى كونها أحداثاً تقع في زمن معين، بل إنَّ تصريفات الأحداث هي رصد لنمو الأحداث عبر الزمن، ومع ذلك لا يمكن تجاهل علاقة الأسماء في تصوير حركة السرد، وتطوره، ولعلَّ الاستهلال الذي يحتاجه السرد في بنائه الفني، يُعد العلامة الأولى لرصد ملامح الوظيفة السردية للوصف، فنجد الزياني يستهل سرد تاريخ آل عثمان بقوله: "إنَّ من ضخامة هذا الاصطنبول مسجد آية صوفيا، الذي كان كنيسة للكفار أيام ملك الروم بها"³، وتتمة الاستهلال بالوصف "آل عثمان من أعظم سلاطين الدنيا أبهة، وجلالة، وشدة، وقوة، وآثاراً في الأرض"⁴، فانطلاقاً من هذه المعلومة يقدم المؤلف افتتاحية تشويقية للقارئ، تشجعه على متابعة القراءة، ومواكبة حركة السرد، ويتوسط المقطعين الوصفيين السابقين في الافتتاحية مقطع تبرز فيه حركة السرد الواضحة "ولما فتحها السلطان محمد بن مراد صيرها مسجداً"⁵، ولكن عند قراءة المقطع الاستهلاكي كاملاً "إنَّ من ضخامة هذا الاصطنبول مسجد آية صوفيا، الذي كان كنيسة للكفار أيام ملك الروم بها، ولما فتحها السلطان محمد بن مراد صيرها مسجداً، وسبب دخول هؤلاء العثماني لبلاد الروم، ما ذكره القرمانلي في تاريخه (أخبار الدول وآثار الأول)، ونصه: (آل عثمان من أعظم

¹ ينظر: الترجمة الكبرى: ص 53-55.

² ينظر: العجيمي، محمد الناصر: الخطاب الوصفي في الأدب العربي القديم، ج1 و2، ص 405.

³ الترجمة الكبرى: ص 127.

⁴ المصدر السابق: ص 127.

⁵ المصدر نفسه: ص 127.

سلاطين الدنيا أبهة، وجلالة، وشدة، وقوة، وآثاراً في الأرض¹، يمكننا بوضوح فهم معنى مصطلح تسريد الوصف، بحيث يكون للوصف وظيفة سردية، برغم المفهوم التقليدي للوصف المُعْطِل. إنَّ أشكال تعاضد الوصف والسرد، المحقق لمصطلح تسريد الوصف يظهر في صور عديدة من نص الترجمة، منها استخدام الألفاظ التي تساعد في تصوير المدة المستغرقة لعبور منازل الطريق، مثل قوله: "وتسع ساعات لوادٍ يقال له (وادي قشلة) والقشلة موضع نزول العسكر في المدن، ومنها طلعتنا في عقبة يقال لها (الصندقلي) صعبة المرقى، ونزلنا على خمس ساعات على وادي قطعناه خمس مرات بين جبال بموضع يقال له: (شفرخان) معناه خانان اثنان"²، ويمكن اعتبار شرح الألفاظ الأعجمية في المقطع السابق، أيضاً من أشكال تداخل الوصف بالسرد، حيث يقدم الزياني عبر الوصف مرادف الكلمة بالعربية الذي يصور جزءاً من تضاريس المكان مثل قوله: (شفرخان، معناه خانان اثنان) ، ويحافظ في ذات الوقت باستخدام الأفعال (طلعتنا، نزلنا) على الترابط الذي يحتاجه النص في بنائه الحكائي، ومن صور تسريد الوصف ما نظمته الزياني من أبيات - شعر مكسر - تصف حادثة وقعت له مع حمار القاضي، يقول فيها:

أراد القاضي حجاً وعمرة	ويقضي أركاناً على القاضي واجبه
فقال: استرح واعلف ودعني فما أنا	بمستطيع ولو سار الناس قاطبة
ولست مفارقاً لبيتي وجدتي	وأترك منصبى لمن أتى طالبه
فلا آتي مكة وقدسا وطيبة	ولا أبتغي حجاً ولا أنا راغبه
فمن شاء فليذهب فلمت بذاهب	ومن شاء فليغضب فلمت أغاضبه
فوا عجباً من قاضي جدة عاطل	من الحج ويقضي الحمار وحاربه
فشاق الحمار واستغاث وجاءنا	وقال خذوني إنني لست صاحبه ³

ومثله ما نظمته الزياني في وصف المسجد الجديد الذي بناه حسن باشا بالقسنطينة على

لسان المسجد:

طهر ثيابك وأحسن الوضوء ولا تتس التحية إن شاهدت أسراري⁴

¹ الترجمة الكبرى: ص 127.

² المصدر السابق: ص 176.

³ المصدر نفسه: ص 256.

⁴ المصدر نفسه: ص 378.

كما تبين تقنية الاستباق التي ظهرت في مقدمة المؤلف "إني لما رمت بي الأقدار، وجلت في الأقطار، وشاهدت كثيراً من الأمصار في البراري والبحار، ووقفت على كثير من الأخبار، واجتمعت بجملة وافرة من الأمراء والأبرار، والعلماء النجباء الأخيار، واستفدت منهم ما شاء الله من الآثار"¹، دور الوظيفة السردية للوصف في جعل القارئ يعيش حالة من الانتظار، والاستعداد النفسي، والترقب لما سيأتي في طيات هذا التأليف، وعبارة استباقية أخرى، تبين الدور الهام للوصف في بناء السرد، يقول الزباني في رحلته الأولى "وهذه النكبة الأولى إحدى النكب السبع"²، إن هذه العبارة التي تبدو في ظاهرها وصفية بحتة تنطوي على حركة سردية عاصفة، تجعل القارئ يعيش حالة من الترقب، والتهيؤ النفسي لمعرفة بقية النكبات، إذ تحيل بالضرورة عبر عملية التصور إلى نسيج من الأحداث يختبئ وراء تعبير الزباني الوصفي عن الصعاب التي مر بها بقوله: (النكبات السبع).

ومثلها تقنية الاسترجاع التي وظفها الزباني بكثرة في الترجمانة، وعلاقة الوظيفة السردية للوصف بالمرويات التاريخية لا تختلف عن علاقتها بسرد الرحلة، بل إن الاسترجاع يقتضي في كثير من الأحيان مطالع استهلاكية، ليحافظ على انسجام السرد على مستوى الحاضر المتمثل بزمن تدوين النص، والماضي القريب المتعلق بزمن الرحلات الثلاث، والماضي البعيد الذي عادة ما يرتبط بتاريخ البلدان، والأنظمة السياسية، والأمكنة، وتراجم الشخصيات، وأخبارها، ولعل أكثر المرويات إثارة للجدل في الترجمانة الكبرى، ما جاء في تتبع نسب النبي صلى الله عليه وسلم، حيث إن هذا التتبع أفضى إلى مقاطع وصفية عديدة لا يمكن الجزم بصحتها جميعاً، ولكن يمكن اعتبارها محاولة لبسط السرد التاريخي لنسب النبي عليه الصلاة والسلام، يبدأ الزباني بوصف موجز للأخبار التي تدولت حول ولادة عبد الله بن عبد المطلب، والد النبي، ومنها وصف ما صار لجبة الصوف، وهي أنه كان لأخبار الشام "جبة صوف بيضاء، وكانت مغموسة في دم يحيى بن زكريا عليهما السلام، ووجدوا في كتبهم إذا وجدتم الجبة البيضاء، والدم يقطر منها، فاعلموا أن أبا محمد المصطفى قد ولد تلك الليلة"³، ومن المرويات العجيبة عن عبد الله والد النبي الكريم أنه "كلما أصبح، وذهب على صنمهم الأكبر، وهو اللات والعزى، صاح كما تصيح الهرة، ونطق وهو يقول: ما لنا ولك أيها المستودع

¹ الترجمانة الكبرى: ص52.

² المصدر السابق: ص59.

³ المصدر نفسه: ص428.

ظهر ك نور محمد صلى الله عليه وسلم الذي يكون هلاكي وهلاك أصنام الدنيا على يديه"¹، ويستمر في توظيف الوصف لتوضيح تلك الحوادث، والأخبار التي دُونَتْ في الكتب، وتداولها الناس عن كل من جاء ذكره في ترجمة نسب النبي صلى الله عليه وسلم.

ومما سبق يمكن أن نلاحظ أن الوظيفة السردية للوصف، تتصل اتصالاً مباشراً بالأحداث التي تشكل جوهر العمل السردى، والتي بالضرورة تتصل بعناصر الوصف كالمكان، والشخصيات، وإن كانت تقنية الاستباق، والاسترجاع، تتصل بعنصر الزمن، فإن الوظيفة السردية للوصف تتصل بالزمن أيضاً من خلال مفهوم التحول، والتبدل، وقد أكثر الزباني من المقارنات التي أسهمت في إبراز هذا الجانب للوظيفة السردية، دون تجاهل ملازمة الوظيفة التصويرية للوصف في جميع المقاطع التي يتعاضد فيها السرد والوصف باعتبارها وظيفة قارة في بنية الوصف؛ فما الوصف إلا أداة تقوم بوظيفة العين أو الكاميرا من تسجيل للمشاهدات والمعانيات، وأظهرت هذه المقارنات اتصالاً بالوظيفة السردية للوصف، ما يعقد بين أحوال الأشياء أو الأشخاص في فترتين تتسمان بالتباين، كوصفه تبدل حال الدولة العثمانية بين ما شاهده وعينه في سفارته إليها في رحلته الثانية، ولقائه بالسلطان عبد الحميد الأول² (1725م/1789م - 1137هـ/1203هـ) من ازدهار على صعيد مؤسسات الدولة³، كدور التعليم⁴، والصناعات، والخدمات، ومما جاء في وصفها "(الطرسانة) التي تنشأ بها المراكب القرصانية، السلطانية، ومرسى مراكب السلطان الجهادية، (ودار الهندسة) التي يتعلم بها علم الهندسة والحساب، والتنجيم، ودار الكاغيد، التي يصنع بها أجناس الورق، وأنواعه، وأوقفونا بها على دار مصنوعة كلها من الكاغد، حيطانها، وسقفها، وقرمودها، ودفنها، وفرشها، وجميع آلاتها، حتى آلات الطبخ، إلا الماء و(دار العدة) التي يصنع بها آلة الحرب، و(دار النيشان) التي يتعلمون بها رماية المدافع والمهايرز، ويرمون على الشارة"⁵، وبين لقائه للوزير يوسف باشا في رحلته الثالثة تبدل أحوال الدولة العثمانية بعد وفاة السلطان عبد الحميد الأول "ذهب من كنت تعرفه في المناصب من أهل المروءة والدين، وتصدر بها الأحداث، والسفهاء من المماليك، والأعلاج،

¹ الترجمة الكبرى: ص428.

² ينظر: المصدر السابق: ص82-129.

³ ينظر: المصدر نفسه: ص99.

⁴ ينظر: المصدر نفسه: ص111-113.

⁵ المصدر نفسه: ص99.

وأطراف الناس"¹، وكانت قد دخلت الدولة العثمانية في أواخر أيامها حربًا يصفها الوزير يوسف باشا "بحرب الشقي الوهبي"².

ومقارنة أخرى عقدها في وصف طبقات البربر، وأحوالهم عبر التاريخ، فالطبقة الأولى "انقرضت في حروب الجاهلية على الملك بالشام ومصر"³ ومن بقي منهم صار من الطبقة الثانية التي "دخل عليها الإسلام، ونفقت في سبيل الملك بأفريقية، والواسطة، وهي التي كانت تحارب طوابع العرب وجموعهم أيام الخلفاء، وبني أمية، وبني العباس، وشاركهم أهل المغرب الأدنى والأقصى، وخرجوا على الملوك وعساكر العرب، فإذا غلبوا أسلموا، وإذا غلبوا ارتدوا"⁴، وصاروا يتقلبون في الملك إلى أن "فشلت دولتهم، وفنيت قبائلهم في سبيل الملك وحروبه"⁵، فكان أهل الطبقة الثالثة، من برابر الصحراء الذين بايعوا "الزيدانيين الذين كانوا بدرعة، وقاموا بأمرهم استتكاكاً من ولاية العرب الذين في عسكر بني مرين، وحاربوا الوطاسيين من بني مرين إلى أن غلبوهم على ملك المغرب، وتشتتوا في القبائل، وأذعنوا الطاعة، وصاروا من جملة القبائل الغارمة"⁶، وهذا حالهم إلى أن "غلب السلطان إسماعيل على أهل المغرب عربهم وبربرهم، فاستراحت دولة العلويين من عيث البربر نحو الخمسين سنة، إلى أن مات السلطان إسماعيل"⁷، فصارع أبناءه السبعة "من أهوال هذا الجنس البربري، ما شابت نواصيتهم من عيث البربر، وحروبهم، وهزائمهم إلى أن عجزوا من دفاعهم، وساءت أحوال أهل المغرب معهم إلى أن رحمهم الله بولاية السلطان سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله"⁸، ويورد الزيّاني وصية ملك دولة الموحدين عبد المؤمن بن علي لابن يوسف، التي جاء فيها "عقوبة العرب المال، وعقوبة البربر القتل، فأياك أن ترفع السيف عن البربر، وترفع المال عن العرب، فلا يستقيموا إلا على هذا المنوال"⁹.

¹ الترجمة الكبرى: ص 189.

² المصدر السابق: ص 189.

³ المصدر نفسه: ص 70.

⁴ المصدر نفسه: ص 70.

⁵ المصدر نفسه: ص 70.

⁶ المصدر نفسه: ص 70.

⁷ المصدر نفسه: ص 71.

⁸ المصدر نفسه: ص 71.

⁹ المصدر نفسه: ص 71.

إذن فالوظيفة السردية للوصف، هي وظيفة تؤكد على الدور الأساسي الذي يلعبه الوصف في بناء العمل السردى، إذ ليس دائماً هو عامل تعطيل، بل إن حركة السرد لا تستقيم إلا به، فإننا لو حاولنا تجريد الأعمال السردية من الوصف، لوجدنا في ذلك صعوبة شديدة، وقد يكون مستحيلاً إذ أردنا في ذات الوقت المحافظة على العمل السردى بصفته التي هو عليها، مما يعني أن الوصف ليس عاملاً ثانوياً يمكن الاستغناء عنه بسهولة، والوظيفة السردية للوصف في النص الرحلي وظيفة ضرورية، لا مناص منها.

ث. الوظيفة التعبيرية:

التأمل في لغة المؤلف، يضع بعين الاعتبار الحقول المعجمية التي يُعبر من خلالها الزباني عن آرائه، وأحاسيسه، وثقافته، إذ الوظيفة التعبيرية للوصف هي بمنزلة انعكاس لذات المؤلف التي نعرف عن طريقها خلفياته، ومعارفه، وأفكاره، ولتتضح تمثيلات الوظيفة التعبيرية في الترجمة الكبرى، وجدنا أن من الأفضل حصر أبرز الحقول المعجمية التي انطوت عليها الترجمة، في محاولة لفهم الوظيفة التعبيرية للوصف عند الزباني.

(معجم النكبات)، هو المعجم الذي يتمثل في النكبات السبع التي وثقها الزباني في الترجمة، تلك الفواجم التي أحس أبو القاسم بضرورة تدوينها.

معجم النكبات	
النكبة الأولى	تكسر المركب، وتلفت البضاعة، والأسباب، وعشق الله الرقاب. وهذه النكبة الأولى إحدى النكبات السبع، التي تلف فيها الوصف. وتهيأنا للرجوع للبلاد، وقدمنا الحقيقة على المجاز. ¹
النكبة الثانية	وقفْتُ على باب الندبة، وأقمْتُ بين الهلكة والتلف، وهي النكبة الثانية. ² رسم الطلاق ³
النكبة الثالثة	كنتُ ممن يلطخهم شزراً، ويرى الإيقاع بهم ليس بوزر، بل هو ثواب، وأجر، ففوضتُ الأمر فيما أخافه، وأخشاه إلى ما أراه الله، وزهدتُ فيما بين يدي لمن يُريده، ويترجّاه،

¹ ينظر: الترجمة الكبرى: ص59.

² ينظر: المصدر السابق: ص62.

³ ينظر: المصدر نفسه: ص62.

	فلم أشعر إلا وأنا في قبضته أسير، وفي الغل والضيق الشديد العسير، وكلّ ما عندي من الدور والأسباب محوز، وممنوع مما لا يجوز، ويجوز، وهذه النكبة الثالثة. ¹
النكبة الرابعة	بعد شهور وثب عليّ وثبة الانتقام، التي هي مسك الختام، فُضِرْتُ بحضرته إلى أن غِبْتُ عن الوجود، وأخرج الكابوس [المسدس] والمألّ شهود، فانقبض لذلك، وانتكس، وسار مغضبًا، وبس، وعبس، وأدبر، واستكبر، وقال هذا ساحر البشر، وأقمْتُ بسجن العرائش شهرًا، مع من كان من الأسرى، ثم أمر بقدومي للرباط، وجلس لقتلي في نشاط، وانبساط، وهذه النكبة الرابعة. ²
النكبة الخامسة	قلدني [السلطان سليمان بن محمد الثالث] ولاية وجدة التي في حيز الإهمال، وأزعجني لها من غير إمهال، فاستعفيته فلم يقبل كلامي، واسترحمته، فلم يرحم ذمامي، وخرجت لها في طالع نحس مكرر، للسابق المحتوم المقدر، فجاءنا العرب من كلّ حذب ينسلون، ووقع الحرب فانهزم من معنا من العسكر هاربون، فتهب العرب ما عندنا من صامت، وناطق، وصاهل وناهق، وبتنا بقبضة العيون، بعد قضاء الديون، فازمعت الرحلة عن المغرب، وتركت من بقي من أعجمي ومعرب، وهي الرحلة الثالثة، والنكبة الخامسة. ³
النكبة السادسة	قلدني أمر الكتابة جبرًا، وقهرًا، وشرفني بديوان رسائله سرًا وجهزًا، ثم نظمني في سلك حجابته، ووزارته، ثم ألحقني بمنصب أهل إماراته، وتقلبت في مناصب الدولة عدة أعوام، إلى أن حصل الملل، وكثرت السعاية من الأقوام، فنزلت من المناصب لرتبة النكبة، ووقفت على باب الندبة، فكانت هذه النكبة السادسة. ⁴
النكبة السابعة	ونستطرد من جملة النكب المتقدمة، ما أصابنا به من موت الولد البار، جعله الله لنا في ميزان القبول، وهون علينا المصيبة بعده. ما وقفت عليه في (الكشاف للزمخشري) عند قوله تعالى: (ولنبلونكم بشيء من الخوف، والجوع، ونقص من الأموال، والأنفس، والثمرات، عن الشافعي رضي الله عنه أنه قال: النقص من الثمرات موت الأولاد...الخ) ⁵

يكشف معجم النكبات، عن صراع بين الصراحة التي تمتاز بها شخصية الزيّاني المؤرخ، والكاتب، وبين التحفظ الواجب عليه لاتصاله بالخدمة السلطانية، وسلاطين المغرب اتصالاً مباشراً، فإذا استثنينا النكبة الأولى التي يلعب فيها الزيّاني دورًا ثانويًا، نظرًا لأنه لم يزل حينها شابًا يرتحل مع

¹ ينظر: الترجمة الكبرى: ص 139.

² المصدر السابق: ص 139.

³ المصدر نفسه: ص 140.

⁴ المصدر نفسه: ص 382.

⁵ ينظر: المصدر نفسه: ص 542-544.

والده، لا قرار بيده، ولا مسؤولية تلقى على عاتقه، فإنّ النكبة الثانية، والثالثة، والرابعة، والخامسة، السادسة، كلها تتصل اتصالاً مباشراً بثلاثة من سلاطين الدولة العلوية، ولعلّ ما يميز النكبة الثانية لغة الغموض التي كست تعبير الزيّاني عن قرار السلطان محمد الثالث بطرده من الخدمة، إذ يقول عن عودته للخدمة بعد وقوع هذه النكبة: "وكتب لي أمير المؤمنين سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله بعد الطلاق رسم الرجعة"¹، إنّ التعبير عن عزله من الخدمة بالطلاق ثم الرجوع، يُظهر تحفظ الزيّاني وتأدبه في حديثه عن تلك النكبة التي أوقعها به السلطان محمد الثالث، بخلاف جملة التعبيرية التي استخدمها في وصف نكبته مع ابنه اليزيد الذي أوقع بالزيّاني نكبتين الثالثة والرابعة، فهي تتسم بالجرأة والحدة (كنتُ ممن يلطخهم شزراً)، (ويرى الإيقاع بهم ليس بوزر، بل هو ثواب وأجر)، وفي نوع من التهكم يعبر عن الظلم الذي طاله وهو في السجن (وممنوع مما لا يجوز وما يجوز)، وفي وصف مشهد السلطان اليزيد وهو يفعل عليه ويخرج المسدس ليصوبه نحوه، نرى استعمالاً لألفاظ تحمل هجاءً مبطناً، إذ وصف الزيّاني السلطان اليزيد بأنّه (انقبض، وانتكس، وسار مغضباً، وبس، وعبس)² كما في قوله: (وأدبر واستكبر)، والتي تتناص مع آية 23 من سورة المدثر (ثم أدبر واستكبر)³، ويتلوها بقوله: (وقال هذا ساحر البشّر)، التي بدورها تتناص مع آية 24 و25 من السورة نفسها (فقال إنّ هذا إلا سحر يؤثر، إنّ هذا إلا قول البشر)⁴.

يعود الزيّاني للتحفظ في التعبير عن النكبتين اللتين فُجع بهما في عهد السلطان سليمان، فنجدّه يصف حاله وتوسله لإعفائه من ولاية وجدة، واكتفى بالإشارة إلى عدم تعاطف السلطان معه (قلدني ولاية وجدة التي في حيز الإهمال، وأزعجني لها من غير إهمال، فاستعفيته فلم يقبل كلامي، واسترحمته فلم يرحم ذمامي) وأكمل واصفاً مشاعره السلبية، وإحساسه بالنعس، لما يُعرف عن ولاية وجدة من وقوعها ضمن منطقة تعج بالاضطرابات السياسية. ليتحقق إحساس الزيّاني المتشائم، عندما هجم العرب عليه ومن معه من العساكر الذين سرعان ما انهزموا، فنهب منهم كلّ شيء، فاتخذ قراره بالارتحال عن المغرب، هرباً من الخدمة. وبعد عودته للمغرب، يعود السلطان سليمان ليقع به النكبة السادسة، والتي تتشابه معالمها مع النكبة الثانية التي أوقعها به السلطان محمد الثالث من قبل، فبعد العمل في الخدمة المخزنية لأعوام وبرغم أنّ هذه المرة كانت عودته للعمل في الخدمة (جبراً وقهراً)

¹ الترجمة الكبرى: ص 62.

² المصدر السابق: ص 139.

³ القرآن الكريم: سورة المدثر، آية 23.

⁴ القرآن الكريم: سورة المدثر، آية 24، 25.

على حد تعبير الزباني، لا كخدمته الأولى مع السلطان محمد الثالث التي كانت عن رغبة وطموح شديدين، إلا أنّ كليتهما انتهت نهايةً مأساوية بحيث سُرح الزباني من الخدمة، ولعلّ ذلك أعاد له الشعور نفسه مما جعله يستخدم العبارة نفسها: (ووقفت على باب الندبة)¹. ويلتزم الزباني أيضًا بالتحفظ نفسه في تعبيره عن أساه وعدم رضاه، إذا قال عن قبوله أمر السلطان بالعودة للعمل في الخدمة المخزنية: (قلدني أمر الكتابة جبرًا، وقهرًا، وشرفني بديوان رسائله سرًا وجهرًا، ثم نظماني في سلك حجابته، ووزارته، ثم ألحقني بمنصب أهل إمارته)، وهذا التعبير قد يبين اختلاط مشاعر الزباني، بين الخوف من غدر السلاطين، والسرور والاعتزاز الذي تنتشي به النفس عندما تتقلد منصبًا كبيرًا، ويتم تقديرها، وتكريمها من قبل شخصية ذات سلطة ونفوذ كالسلطان في حال الزباني. أما النكبة السابعة، اكتسب تعبير الزباني عنها أسى بوقار، ولعلّ هذا ما يعكسه تأثير العمر الذي يُكسب المرء شيئًا من الحكمة في التعامل مع فواجع الحياة، فنجدّه يتوجه لله، يسأله قبول ابنه، ويُصبر نفسه بالآيات القرآنية، وما جاء فيها من الصبر، والرضا بقضاء الله خير، وشره، وقد سرد عددًا من أخبار الصالحين، في محاولة لتثبيت فؤاده الجزع.

بالمقابل هناك معجم الفخر، حيث نرى الزباني في كثير من المواضع في الترجمة الكبرى، يُعبر عن تقديره لذاته، وإنجازاته، ونباهته، وفطنته، وحتى تفوقه على الآخرين، وما يقع له من حسد نتيجة غيرة الآخرين. وأيضًا آراء معاصريه فيه، وتضمن رسائلهم كشواهد وأدلة تؤكد الصورة التي سيقدمها لنا عن نفسه في طيات الترجمة الكبرى.

معجم الفخر	تعليمه ونشأته
حفظتُ كلام الله على وجه الكمال. قرأت على الفقيه أحمد بن الطاهر الشرقي الأجرومية، والسنوسية. لازمْتُ درس أبي حفص سيدي عمر الفاسي لخليل بالقرويين، وكان لا يحضر مجلسه إلا المشاهير من طلبة فاس. وأحضر مجلس الشيخ سيدي محمد بن إبراهيم لخليل بمدرسة العطارين. الخ²	

¹ ينظر: الترجمة الكبرى: ص 62 و ص 382.

² ينظر: المصدر السابق: ص 56-57.

جدنا سيدي علي بن إبراهيم رحمه الله، كان فقيهاً أستاذاً عشريناً نساباً إخبارياً، لم يكن في وقته من يلحقه في النسب، وهو ممن عدهم الشيخ الحسن اليوسي من أشياخه،...الخ¹	خلفيته العائلية (جده)
لم ينفع عزمي نهيه، ولا ردني إنذاره، وهديه، وسعيت في ذلك من أصح طرقه، وتقلبت في منصب الكتابة من غربه لشرقه، ولقيت من زعازع أرياحه، ورعده، وبرقه، إلى أن بلغت كورة الرأس، ومضيق العنق، ووقفت على دائرة الأفق، في السفر، والمقام.²	الخدمة المخزنية
الحوار بين الزباني والقاضي شفشاون في مجلس السلطان محمد الثالث "فضحك أمير المؤمنين وقال له: غلبك، فصار يستدعيني في كل موقف وأجاريه في الكلام"³ لقاء الزباني مع السلطان عبد الحميد الأول: فاستعملت أنا التحية كعادتنا مع سلطاننا، إذا وقفنا أمامه نقبل الأرض، وذلك يعد من سجود الشكر...، وتبسم ووضع يده على فمه، ولما قمنا من السجود تقدمت إليه وقبلت ركبته، وهو متربع على سرير، وقبضت على يده اليمنى بكتا يدي، فقبلتهما⁴ هدية السلطان عبد الحميد الأول للزباني: كيس فيه ألف محبوب، وحق فيه خاتم ذهب، وحق فيه ساعة ذهب بالاختيار...الخ⁵ الزباني بعد السفارة في المغرب: فقصصت عليه الخبر من أوله آخره...، وبما قلت لهم فاستحسن الجواب⁶	إعجاب السلاطين به
وجهني أمير المؤمنين بهدية للسلطان عبد الحميد العثماني للاصطبول⁷ اخترتك لتشفي غليلي في أمرين⁸ وجهنا الهدية للوزير، وأهل دولته...، وجهوا لنا ما هو معلوم عندهم من حق الحمام، ومكافأة الهدية⁹ ومن جملة إكرامه لنا¹⁰	السفارة

¹ ينظر: الترجمة الكبرى: ص 57-58.

² المصدر السابق: ص 62.

³ المصدر نفسه: ص 63.

⁴ ينظر: المصدر نفسه: ص 125.

⁵ ينظر: المصدر نفسه: ص 126.

⁶ ينظر: المصدر نفسه: ص 131.

⁷ المصدر نفسه: ص 65.

⁸ المصدر نفسه: ص 86.

⁹ ينظر: المصدر نفسه: ص 99.

¹⁰ المصدر نفسه: ص 99.

تقدير كمال الدين باشا للزياني¹ بما عزم عليه الوزير من ملاقاتنا مع السلطان قبل يوم الديوان أو العيد....، وقال لي: أن هذا لم يقع لأحد غيرك...الخ²	
ومثل هذا وقع لنا لما ألفت منظومة (ألفية السلوك)³ رسمته في تأليفنا الترجمان لطوله⁴ فألفت كتاب⁵ *وقد عدد مؤلفاته ووصف كل مؤلف منها على حدة (صفحة 412-415)	مؤلفات الزياني
كمال الدين باشا: اختصر التاليف المذكور - تأليف الروح - واجتمعت بمؤلفه، وأملته عليه⁶ إجازة كمال الدين باشا للزياني: فأجزته فيما قيده، واختصره وأملاه، وما رأى من تأليفي وما لم يره⁷ أتحفني الفقيه الأديب خطيب مسجد أبي مدين بتاريخ الإمام المؤرخ أحمد بن يحيى البلاذري في ستة أسفار.... الخ⁸ ما اجتمع به صاحب الرحلة - الزياني - من العلماء بقسنطينة⁹ اجتمعت بمؤرخ مصر وشيخ الأطباء بها الشيخ إسماعيل العباسي¹⁰ اجتمعت بدمشق بعدد من العلماء والصالحين¹¹	لقاء العلماء والأخذ عنهم
مجموعة من الرسائل¹²	رأي معاصريه فيه

¹ ينظر: الترجمة الكبرى: ص109-110.

² ينظر: المصدر السابق: ص122.

³ ينظر: المصدر نفسه: ص108-109.

⁴ ينظر: المصدر نفسه: ص116.

⁵ ينظر: المصدر نفسه: ص412-415.

⁶ ينظر: المصدر نفسه: ص104.

⁷ المصدر نفسه: ص110.

⁸ ينظر: المصدر نفسه: ص144.

⁹ ينظر: المصدر نفسه: ص153-154.

¹⁰ ينظر: المصدر نفسه: ص194-195.

¹¹ ينظر: المصدر نفسه: ص277.

¹² ينظر: المصدر نفسه: ص544-581.

الوظيفة التعبيرية للوصف في معجم الفخر، تقوم على وصف تقدير الذات الذي يظهر عبر ما دونه الزباني عن نفسه، فهو يبدأ من نشأته التي كانت في عائلة تهتم بالتعلم والعلوم، وحفظ القرآن، وتأثر بجده الفقيه النسابة تأثرًا شديدًا، فيعبر عن ذلك بقوله: "وهذا سبب اعتنائي بالبحث في كتب التاريخ والأنساب، لما وجدت في تقييداته رحمه الله"¹، نضج الزباني وصار بعدها شابًا طموحًا يسعى للالتحاق بالخدمة المخزنية كبقية أقرانه، ولم يأخذ برأي أبيه الذي نهاه عن تلك الخدمة، فعمل في بلاط السلطان محمد الثالث، وبلغ في العمل مبلغًا عظيمًا، مما جعله يختاره للسفارة بين دولتي المغرب، والدولة العثمانية، وأنجز المهمة الموكلة إليه في سفارته على أكمل وجه، حتى بلغ بالبعثة التي سبقت الزباني إلى إسطنبول الشعور تجاهه بالحسد لما لقيه من حفاوة وإكرام من السلطان عبد الحميد الأول "ولما أخبر الأغا أصحابنا الطلبة بالواقع، بلغ بهم الحسد مبلغًا عظيمًا"².

ولا يتردد الزباني في نقل الجمل الوصفية التي تصف امتيازته، وتميزه، يقول رئيس المركب الذي كان عليه الزباني ونجى من الاصطدام، بعد تكسر جميع المراكب في تلك الليلة، "والله ما سلم مركبي إلا ببركة هذا الشيخ"³، وتقدير كمال الدين باشا له في رسالته، وإجازته باختصاره لكتاب (تأليف الروح) "فأجزته فيما قيده، واختصره، وأملاه، وما رأى من تأليفي، وما لم يره، وكفى شاهدًا على نبذه، وفراسته، واستخراجه من مكمته، وخزائنه، وتلك لم يقع مثلها لبعيد ولا قريب، ولا ولي، ولا حبيب، فهو السابق في حلبة فرسان التاريخ، والأنساب"⁴، وعلى هذا السياق جاءت كثير من التعبيرات في رسائل المعاصرين له، منها ما أتى في جواب حمدون بن الحاج "طالعت ما وصلنا من تاريخ (الترجمان)، وحقه أن يسمى بهجة الزمان، فلهه درك يا أبا القاسم"⁵.

الوظيفة التعبيرية للوصف، أيضًا برزت في التعبيرات الوصفية المتمثلة بمعجم العلوم والآداب، المعجم الذي يقدم كشفًا للتعبيرات التي تعكس عقلية الزباني المعرفية، واهتماماته بالعلوم المشتهرة آنذاك في الأوساط العلمية، والمجالس السلطانية، والتي سعى إلى تضمينها في الترجمة.

¹ الترجمة الكبرى: ص 58.

² المصدر السابق: ص 126.

³ المصدر نفسه: ص 216.

⁴ المصدر نفسه: ص 110.

⁵ المصدر نفسه: ص 551.

والجدول التالي، يستعرض عددًا من التعبيرات التي تحيل إلى جزء من الوظيفة التعبيرية للوصف في معجم العلوم والآداب.

معجم العلوم والآداب	
الأنساب	لا خفاء أن معرفة الأنساب والتاريخ من الأمور المطلوبة، والذخائر المجلوبة ¹ . وقال عليه السلام: تعلموا من النسب ما تصلون به أرحامكم ² فإن لم نعرف أنساب الأنصار لم نعرف إلى من نحسن وعلى من نتجاوز ³ أصول البربر بالمغرب ⁴
التاريخ	من خبر الأواخر والأوائل ⁵ حليتها بحوادث، ونوادر، حكايات جلبها المؤرخون الكبار ⁶ من نفائس الأخبار ⁷ وكان رفيقنا السيد سعيد السوسي مهر في علم التاريخ، والأنساب، فكتبت أبحاثه، وأفاضه، وأحاربه، وأعارضه ⁸ رجوعًا لخبر مغربنا وأول من عمر سواحله البحرية قبل دخول البربر ⁹ أتحنفي بمطالعة تأليف الروح الذي ألفه كمال الدين باشا في دولة آل عثمان ¹⁰ فتح القسطنطينية عام 857هـ ¹¹ تاريخ آل عثمان ¹² ما كان يعطى جنس الفلمنك للسلطان سيدي محمد بن عبد الله ¹³

¹ الترجمة الكبرى: ص 49.

² المصدر السابق: ص 50.

³ المصدر نفسه: ص 50.

⁴ المصدر نفسه: ص 69.

⁵ المصدر نفسه: ص 52.

⁶ المصدر نفسه: ص 53.

⁷ المصدر نفسه: ص 55.

⁸ المصدر نفسه: ص 62.

⁹ المصدر نفسه: ص 77.

¹⁰ المصدر نفسه: ص 103.

¹¹ المصدر نفسه: ص 114.

¹² المصدر نفسه: ص 127.

¹³ المصدر نفسه: ص 157.

جالت في الأقطار، وشاهدت كثيرًا من الأمصار، في البراري، والبحار¹ وزادت على ما جلبه ابن الجوزي من أخبار البحار والقفار، وعلى ما في (خريدة العجائب) من الجزر والعيون والآبار والأنهار² فلا بدّ من تقديم خبر حد مغربنا، ومدته، وعمره³ بطليموس وضع الاسطرلاب والكورة، وقسم الربع المعمور⁴	الجغرافيا
وضعتها ما في رحلة البكري من النكت والأشعار⁵ ما قيل في الحسد نثرًا ونظمًا⁶ وقلّت مخاطبًا لهذا المتكبر...، بهذه الأبيات⁷ وقد أنشدني يومًا بنفسه هذه الأبيات في معنى حوادث الدهر⁸	الشعر
حكاية عجيبة ذكرها في سبط ابن الفارض⁹ حكاية مستملحة وقعت في زمن مولانا سليمان¹⁰	الحكاية

يُبين الزيّاني في مقدمة الترجمة مكانة علم الأنساب والتاريخ، ويستشهد بكلام من سبقه من العلماء في بيان أهمية علم الأنساب، فإنّ في علم الأنساب ما هو واجب، ويصل إلى مرتبة الفرض كأنّ " يعلم المرء أن الخلافة لا تجوز، ولا تصلح إلا في ولد فهر بن مالك بن النضر بن كنانة"¹¹، أيّ في بيت رسول الله، وتتعااضد العلوم مع الآداب في الترجمة تعاضدًا يعكس التركيبة المعرفية، والذوقية التي تتطوي عليها شخصية الزيّاني، إذ يقول: "نظمتُ عمود نسبهم [سلاطين الدولة العلوية] من خليفة وقتنا مولانا إبراهيم بن سلطان وقتنا مولانا سليمان إلى مولانا علي بن أبي طالب، ومولاتنا

¹ الترجمة الكبرى: ص52.

² المصدر السابق: ص53.

³ المصدر نفسه: ص65.

⁴ المصدر نفسه: ص90.

⁵ المصدر نفسه: ص55.

⁶ المصدر نفسه: ص108.

⁷ المصدر نفسه: ص143.

⁸ المصدر نفسه: ص153.

⁹ المصدر نفسه: ص101.

¹⁰ المصدر نفسه: ص102.

¹¹ المصدر نفسه: ص50.

فاطمة بنت مولانا رسول الله صلى الله عليه¹، ثم يلحق ذلك بشرح نسب الرسول صلى الله عليه وسلم إلى سيدنا آدم، ويظهر منهجه في النقل عن أئمة الأنساب المشهورين، والعلماء، في أنه منهج المؤرخ الذي يضع له شروطاً يجب الالتزام بها، كأن "يكون صادقاً"²، و "عارفاً من يترجمه علماً ودينياً وغيرهما حتى يصور في ترجمته حاله بلا نقص ولا زيادة، فلا يطنب في مدح محب، ولا يقصر في غيره بالهوى"³.

وتأتي أهمية الجغرافيا لاتصالها بالارتحال بين البلدان، وللعلاقة بينها وبين علم التاريخ، وكذلك علاقتها بعلم الأنساب، نظراً لتاريخ هجرة القبائل التي لم يتناولها بشكل مباشر لكن أشار إليها في وصفه للمدن "ولما دخل البربر للمغرب، ونزلوه، وتفرقوا بجباله، وبسائطه، وبلغوا سواحل البحر، وطنجة، وسبته، وبلينوش، إذ لا فاصل بينهم كانوا يغيرون على الروم بالأندلس"⁴، فكما يظهر في المقطع الوصفي السابق، تكشف الوظيفة التعبيرية للوصف عن العلوم المختزلة في عبارات الزياتي، إذ تطرق لمسار هجرة القبائل، وحدود المدن التي دخلوها من بلاد المغرب، ودورهم التاريخي في ذلك الوقت، وصراعاتهم مع الروم.

وتتجاوز الوظيفة التعبيرية للوصف، التعبير عن العلوم والمعارف، إذ من خلالها يُعبر المؤلف عن ذائقة الفنية، والتي يمكننا رؤيتها في توظيف الزياتي بعض الألفاظ في تقديمه لعدد من الحكايات التي استجلبها بقصد تزيين مؤلفه بها، وتحليته⁵، كاستعماله للفظ (مستلمحة)⁶ و (عجيبية)⁷، وقد أوضح الزياتي رغبته في مقدمته وسعيه إلى الجمع في مؤلفه هذا بين ما تفرد فيه من سبقه من الكُتّاب، وما غفلوا عنه⁸، فكما قد انتقت ذائقة عددًا من الحكايات، كان للشعر حظ من ذلك، ويُعد الاستشهاد بالشعر ونظمه في عصر الزياتي من لوازم مجالسة العلماء، والسلطين. وكان الزياتي

¹ ينظر: الترجمة الكبرى: ص 421.

² المصدر السابق: ص 424.

³ المصدر نفسه: ص 424.

⁴ المصدر نفسه: ص 77.

⁵ ينظر: المصدر نفسه: ص 53.

⁶ ينظر: المصدر نفسه ، ص 102 - ص 256.

⁷ ينظر: المصدر نفسه: ص 101 - ص 268 - ص 312.

⁸ ينظر: المصدر نفسه: ص 53.

يحفظ الشعر، وينظمه بالرغم من ضعفه في ذلك الذي صرح فيه غير مرة¹، على أن ما كان يحمله على ذلك هو "الولع بهذا الفن"²، ومن الأشعار التي أوردتها في مناجاة نفسه بعد أن طابث نفسه من طلب المناصب، والسعي في رضا الملوك: "اقتديت بمن قال، وأجاد في المقال:

رأيت الانقباض أجل شيء وأدعى في الأمور إلى السلامة
فهذا الخلق سالمهم ودعهم فخلطتهم تعود إلى الندامة
ولا تُعنى بشيء غير شيء يقود إلى خلاصك في القيامة³

إذن الوظيفة التعبيرية للوصف، تقدم تصورات عن الوصف في خضم تفاعله مع ذاته والمحيط، فنجد أن الوظيفة التعبيرية مرآة عاكسة للأفكار التي يعتقدها الإنسان تجاه الأشياء، والمواضيع، وتجاه نفسه، وكذلك تعكس مشاعره وأحاسيسه التي عادة ما يعيش معها صراع بين الإيضاح، والغموض، وهي التي تقبض عليها اللغة، ونحاول قراءتها عبر هذه الوظيفة.

ج. الوظيفة الأيديولوجية:

الأيديولوجيا بوصفها نسقاً من المعتقدات التي يؤمن بها المرء، واللغة هي الأداة التي يترجم بها المرء أفكاره ومعتقداته، كانت الوظيفة الأيديولوجية للوصف، من أهم وظائف الوصف، ذلك لأن المؤلف يشعر بضرورة ملحة لنشر أفكاره، والانتصار لمعتقداته.

لا يتردد الزباني بتقرير أفكاره بطريقة واضحة، وصريحة، مستنداً على ما يملكه من حصيلة معرفية، وعلمية، لهذا نجده لا ينفك في إظهار اعتقاده بالانتفاع بالصلاة، والدعاء عند أضرحة الصالحين، وقبورهم، إذ يقول عند زيارته لصريح الشيخ أبي أيوب الأنصاري: "تبركنا بمقامه، وتربته المباركة"⁴، ويستشهد الزباني بحادثة استرحام الباي حسن باشا بأحد الأضرحة، إذ "استرحم بصريح الشيخ عبد الرحمان الثعالبي بالجزائر، ووقعت فيه الشفاعة من الموت"⁵.

¹ ينظر: الترجمة الكبرى: ص 550.

² المصدر السابق: ص 549.

³ المصدر نفسه: ص 409.

⁴ المصدر نفسه: ص 100.

⁵ المصدر نفسه: ص 152.

التبرك كانت عادة مُتعارفًا عليها في المجتمع العثماني، والمغربي، ولم تنحصر فقط بالتبرك بالقبور والأضرحة، بل للأحياء نصيب من هذا التبرك، كالسلاطين، يروي الزياني طريقته في تحية السلطان عبد الحميد الأول "استعملتُ أنا التحية كعادتنا مع سلطاننا إذا وقفنا أمامه نقبل الأرض، وذلك يعد من سجد الشكر!!"¹. وفي الثقافة المجتمعية يمتد التبرك إلى التبرك بمن يتصل بالمتبرك به، فالزياني عند خروجه من لقائه مع السلطان عبد الحميد الأول، يصف مشهد التقاف الناس حوله "جاءنا أهل القبة فأكبوا على تقبيل أيدينا، وطلب الدعاء منا، وقالوا هذا الذي قبل يدي السلطان عبد الحميد، وقبل ركبتة، وجلس أمامه"²، ويؤكد الزياني إيمانه بذلك "فساعدناهم بالدعاء"³، والموقف ذاته حدث مع الزياني عند لقائه بمحمد باي الألفي الذي عبر عن رغبته بالتبرك بالزياني لاتصاله بالسلطان محمد الثالث، لكونه من الأشراف، "لا بد أن تأتي به إليّ لأنال من بركته وبركة مولاي محمد"⁴. ومن تصريحاته عن التبرك بالأحياء ما عبر عنه الزياني عند لقائه بالشيخ إسماعيل العباسي "فأخبرته أنني لم آت إلا لزيارته والتبرك به"⁵.

وينتصر الزياني لاعتقاده بجواز التبرك بالقبور، والأضرحة، بإعلان معارضته الصريحة لدعوة محمد بن عبد الوهاب التي ترفض التبرك بالموتى وقبورهم، "فالتوجه إلى الموتى وسؤالهم النصر على الأعداء وقضاء الحاجات، وتفريج الكربات، التي لا يقدر عليها إلا رب الأرض، والسموات"⁶. وكما أورد الزياني نص رسالة محمد بن عبد الوهاب إلى علماء تونس، أيضًا أورد نص جواب قاضي تونس عليها، والتي جاء فيها "إن التوسل بالمخلوق مشروع، ووارد في السنة القويمية، ليس بمحذور، ولا ممنوع...، وأدلته كثيرة محكمة"⁷، ويستشهد بعام الرمادة، وتوسل الخليفة عمر بن الخطاب بالعباس عم النبي صلى الله عليه وسلم، حيث قال: "اللهم إنا نتقرب إليك بعم نبيك، فإنك تقول وقولك الحق (وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحا) فحفظتهما لصالح أبيهما، فاحفظ أمة نبيك في عمه"⁸. ومن صور التبرك عند الزياني التبرك بالتربة، ويصف ذلك عند زيارته لقبور آل البيت في المدينة المنورة "تبركنا بتربة

¹ الترجمة الكبرى: ص125.

² المصدر السابق: ص126.

³ المصدر نفسه: ص126.

⁴ المصدر نفسه: ص214.

⁵ المصدر نفسه: ص194.

⁶ المصدر نفسه: ص394.

⁷ المصدر نفسه: ص398.

⁸ المصدر نفسه: ص398.

سيدنا الحسن، وزين العابدين، والسيدة فاطمة، وجعفر الصادق، وأمّهات المؤمنين، عائشة، وحفصة، وميمونة، وجويرية، ومحمد الباقر¹.

ويعترض الزيّاني في المقابل على عدد من الطوائف التي ظهرت في المغرب كالتائفة التيجنية²، وينقل عن صاحب كتاب الانتباه أنهم "أقبح الناس فعلاً، وأعظمهم جهلاً"³، إذ جاء في وصية أحمد بن تجين أن طريقته "أعطاه الله له رسول الله صلى الله عليه وسلم منه إليه، وأن تلاميذه، تلاميذ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنه لم تكن هذه الطريقة لغيره إلى النفخ في الصور"⁴. ومن الطوائف التي عاب عليها الزيّاني أفعالها، أصحاب الرفاعي الذين يشابهون بأفعالهم أصحاب بنعيسى بالمغرب، إذ يصفهم بأنهم "يؤججون ناراً، ويدخلون لها، وبعضهم يأكلون الأفاعي"⁵.

ولم يقف الزيّاني عند الانتصار لمعتقداته، وإيضاح مآخذه على دعوة محمد بن عبد الوهاب، والطوائف التي ظهرت بالمغرب. بل عقد فصلاً في نهاية الترجمة يرد فيها على مذهب النصاري الذين يدعوهم بأهل التثليث، فبحث مسألة الأناجيل، وكتّابها، فوصفهم بأنهم "أفسدوا دين عيسى عليه السلام، وبدلوا كلام الله القديم"⁶، وشرح القواعد التي يقوم عليها الإيمان النصراني، ورّد على كلّ قاعدة منها من كتبهم فقال في رده على قاعدة الإيمان بالتثليث: "بيان بطلانه ما قال: ماركوس، في الفصل الحادي عشر من إنجيله، إن الحوارين سألوا عيسى عليه عن الساعة التي هي يوم القيامة، فقال لهم: إن ذلك اليوم لا يعلمه الملائكة الذين في السماء، ولا يعلمه إلا الأب وحده"⁷، إذ يريد أن يؤكد على أنّ وصف الله جاء عندهم بالعدد الواحد، لا بالتثليث كما يقولون. والمسائل التي بحثها في أبواب الاعتقاد كثيرة، منها إثبات صحة رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم⁸.

أيدولوجيا الدين، أبرز الأفكار التي ناقشها الزيّاني، واهتم بها، وبين فيها ما يعتقد، وانتصر لها، وناصر من يشاركه الاعتقاد، وعارض من يخالفه الرأي، غير أنّها ليست الأيدولوجيا الوحيدة التي تبرز عبر وظيفة الوصف الأيدولوجية، فالاعتناء بالعجائبي يسجل حضوره أيضاً في لغة الزيّاني الواسفة،

¹ الترجمة الكبرى: ص 186-187.

² ينظر: المصدر السابق: ص 460.

³ المصدر نفسه: ص 461.

⁴ المصدر نفسه: ص 462.

⁵ المصدر نفسه: ص 185.

⁶ المصدر نفسه: ص 498.

⁷ المصدر نفسه: ص 504.

⁸ ينظر: المصدر نفسه: ص 521-524.

وموضوعات مؤلفه الترجمانة، أورد الزياني أخبارًا عجائبية حول الجبال، والأنهار، والآبار، والأحجار، فقال عن حجر الدهنج: "ينفع خفقان القلب، ويهيج على حامله شهوة الجماع"¹، ومن عجائب الجبال، ما جاء في وصف ما يصيب المرء الذي يأخذ من ذهب جبل نانك "ومن ذهب بقطعة كبيرة إلى بيته مات هو، وأهل بيته إلا أن يرجع بها من أثناء الطريق"².

والعجائبية لا تقتصر على أخبار الأماكن، بل منها ما يتصل بالمرويات التاريخية عن الأولياء، وكراماتهم، والخوارق التي تحدث مع الناس، كخبر المغارة العجيبة التي فيها كتب من طالعها، ودون ما فيها، برع في العلم الذي قرأ فيه، فلا "يمكن أن يبطل أو يفسد عمله فيما كتب"³، أو الأشجار التي أوراقها، وقشورها مكتوب عليها "لا إله إلا الله، محمد رسول الله"⁴، وغيرها من الأذكار. أو قدرة بعض الأولياء على التأثير على الآخرين، مثل ما حدث مع الشيخ أحمد زروق الذي شاهد الشيخ الزيتوني وهو يقبل امرأتين، فرجع على أعقابهما، وهو يقول في نفسه: "هذا رجل زنديق"⁵، فناداه الشيخ الزيتوني وقال: "أما التي رأيت عن يميني فهي الآخرة، وأما التي عن يساري فهي الدنيا"⁶، فنزل الشيخ أحمد زروق بمصر عند شيخ من الصوفية، فحدث معه أن ذلك البيت عليه، فلما علم الشيخ الذي هو نازل عنده بما جرى للبيت وهو الشيخ أبو العباس أحمد بن عقبة الحضرمي قال: "الحمد لله الذي عصمك يا أحمد، وهذه آخر عقوبة الزيتوني، ولقد ضربك ضربة من أقصى المغرب، فرفعتها عنك بيدي، وها هي مكسورة من ضربته، وأخرجها من تحته مكسورة"⁷.

الزياني أيضًا له نصيب من تلك الأخبار، ولعل ما تنبه له محقق الترجمانة، يشرح الكثير عن ثقافة الزياني، يقول عبد الكريم الفيلاي: "تستدل من القصيدة أن أبا القاسم كان منجمًا، وبما لديه من أسرار الأسماء، استطاع أن يتعرف على مصير رجب بن عياد"⁸، إذ أصيب بالطاعون ومات، وذلك أن الزياني قال في قصيدته التي نظمها في رجب بن عياد:

أبشر فقد جاءك المكروه عن عجل وصادفتك سهام الليل فاحتسب

¹ الترجمانة الكبرى: ص 348.

² المصدر السابق: ص 335.

³ المصدر نفسه: ص 170.

⁴ المصدر نفسه: ص 170.

⁵ المصدر نفسه: ص 368.

⁶ المصدر نفسه: ص 368.

⁷ المصدر نفسه: ص 369.

⁸ المصدر نفسه: ص 365.

رأيتُ نحسك في الأشكال متضحاً مهرولاً مقبلاً يسرع في الخبب
وحل نجمك في بيت النكيس وإن بلغ برجك بيت الذبح فانتصب
هذا جزء أمري لمبتدع جائر فما يفر بين الرأس والذنب
وإن تكن جاهلاً علم النجوم فلا تتعب فتاريخ ما قد قلته يشرب¹

إذن الوظيفة الأيديولوجية للوصف، تسلط الضوء على الجوانب الفكرية للمؤلف، تلك الأفكار الأكثر اتصالاً بالبناء المعرفي العميق لشخصيته، فالاعتقاد تصور يُحمل على اليقين، مما يعني أنه يُشكل جزءاً هاماً من هوية الشخص، فيحاول المؤلف عبر الكتابة أن يضفي على تلك الأيديولوجيا نوعاً من الشرعية، وذلك بتصديره لها بطرق غير مباشرة أحياناً عبر المرويات التاريخية، والاعتراضات المصحوبة بالأدلة والحجج، ليكسبها مصداقية في سعيه لتبرير نفسه، ومعتقداته وأفكاره. وتلك الحالة يعيشها الإنسان لأنها ضرورة نفسية، وفكرية، بغض النظر عن الصواب والخطأ. إذ الاعتقاد الخاطئ لا يمنع المرء من التعبير عن معتقداته، وبالمثل الاعتقاد الصائب.

ح. الوظيفة الجمالية:

الوصف يؤدي دوراً جمالياً في أبسط صوره، كالنعت، والخبر على المستوى النحوي للغة الواصفة، وهو كثيرٌ في الترجمة لأن الوصف جزء قار في نسيجها اللغوي، ومن ذلك قوله: "الحرم الشريف"²، و "كان فقيهاً أستاذاً عشرياً نساباً إخبارياً"³، "النكب السبع"⁴، "كان رجلاً صلباً في الحق، زعيماً مقدماً، لا يخشى من أحد ملاماً"⁵، "كان صلباً جريئاً"⁶. أما ما عمد إليه الزياتي من أسلوب في الكتابة، هو ما نهج عليه من سبقه في الكتابة، ومن عاصره، إذ اهتموا بالأساليب البلاغية، فإن كان التشبيه، والاستعارة، من الأساليب التي تبرز جمالية الوصف عند العرب، فأقدم الأساليب البلاغية هو السجع، والقارئ للترجمة سيلحظ استعمال الزياتي له في التعبير عن انفعالاته إيجاباً أو

¹ الترجمة الكبرى: ص365.

² المصدر السابق: ص57.

³ المصدر نفسه: ص57.

⁴ المصدر نفسه: ص59.

⁵ المصدر نفسه: ص62.

⁶ المصدر نفسه: ص63.

سلبًا، ومن ذلك وصفه فيه ما وقع له بقلعة تيكلي في طريق عودته للمغرب من رحلته الثالثة، " فظهر لنا أن نكتب لصاحب المرسى [رجب بن عياد]، واخترناه على غيره من العباد، لما نعلم بينه وبين محبنا الحاج [علي بن الألفة]، في الحضور والغيبة، فكتبت أتشفع له بمقام المحب المذكور، وعرفته أن الخير تجارة لن تبور، فلما رأى المکتوب رجع القهقري، وتنحى عن محله إلى ورا، ولما قرئ عليه أعرض ونأى، كأنه لا يسمع، ولا رأى، وأهمل القضية، ولم يرحم من شاكية، فأقمنا في حيز الإهمال، عشرين يومًا على الكمال، ثم أمر بتسريح النصارى عباد الصليب، وأبقى المسلمين بعد إثباتهم في الدفتر على الترتيب، ومن المقدر المحتوم، والسابق المرسوم، كانت لنا جارية انتخبناها على المراد والوفى، عزمت على الوضع، فجاءها الطلق، فألجأتنا الضرورة إلى إعادة الكتب لهذا الرجل المشؤم، الظلوم، وعرفناه بالقضية، لعله يخلي سبيلنا بالكلية، أو يبعث لنا قابلة تقوم بأمر القضية، فزاد في الإعراض والإهمال، ولم يجب بنقض، ولا كمال، ثم كتب الأتراك إلى أمير البلاد، يطلبونه في خلاص أنفسهم دون غيرهم من العباد"¹. ومن توظيفاته للسجع أيضًا ما جاء في وصف سبب عودته للمغرب في رحلته الأولى "لما رأى والدي ما نواة من المجاورة، بذلك المزار، يحتاج إلى ذات اليد واليسار، تعين الرجوع للمغرب، إذ لا معجم لحالنا ولا معرب، فاشترينا الرواحل والمزاد، وتهيأنا للرجوع للبلاد، وسافرنا مع الركب المصري في الحجاز، وقدمنا الحقيقة على المجاز"².

أثرى الزيناني الترجمانة بالأشعار، ونخص بالذكر ما نظمه إما لتصوير موقف، أو حالة، فالشعر كان ولا يزال حلية جمالية سعى المؤرخون، والمؤلفون إلى الاستشهاد به، أو نظمه في سبيل الارتقاء باللغة من جمالية النثر إلى جمالية الشعر، وإن كان شعر الزيناني لا يرتقي لشعر الشعراء، وهو يُقر بذلك " إني لست من أهل هذا الفن"³. ولعل ما نظمه عن الشاب المتكبر، أو حمار القاضي، ربما يخلو من الصور البلاغية، والتعبيرات القوية، إلا أن جماليته تكمن في الحس الساخر الذي يتمتع به أسلوب الزيناني في تناوله للمواقف، ومعالجته لها، فلمّا أراد الزيناني أن ينتقد تخلف القاضي عن الحج، وقد عرض عليه الوالي الاختيار بين فرسه، وحمار القاضي ليرتحل عليه إلى مكة، فقال في ذلك: "ألم تسمع ما أنشده الحمار؟"⁴

¹ الترجمانة الكبرى: ص 363.

² المصدر السابق: ص 59.

³ المصدر نفسه: ص 364.

⁴ المصدر نفسه: ص 256.

أراد القاضي حَجًا وعمرةً ويقضي أركانًا على القاضي واجبه
فقال: استرح واعلف ودعني فما أنا بمستطيع ولو سار الناس قاطبة¹
فالقصيد منظومة على استعارة مكنية، مفادها تشبيه الحمار بالإنسان، في محاولة ساخرة
لانتقاد تصرف القاضي. ومن الاستعارات التصريحية، ما جاء في وصف ملوك الدولة العلوية من
قصيدة نظمها الزياني، ومطلعها:

الشمس من مشرق تسعى لمغربنا والبدر يتبعها بالغرب يكتمل
وأهل بيت رسول الله منشؤهم بطيبة فأتوا للغرب في حل²

ويمكننا الآن الوقوف على تصور واضح لدور الوصف في النهوض بالترجمانة الكبرى على
اعتبارها نصًا رجليًا، يتعاضد في بنائه كل من السرد والوصف بشكل متساوٍ، السرد بضروريته
الحكاية، والوصف الذي ينهض بجميع الوظائف سالفه الذكر، التي بها تتألف المعاني والألفاظ،
والمقاصد، والغايات في سبيل إنتاج النص المقصود بالتأليف والتدوين.

¹ الترجمانة الكبرى: ص256.

² المصدر السابق: ص419.

المبحث الثالث: العلاقة بين تداخل الأجناس وجماليات الوصف في الترجمانة الكبرى

لطالما كان هناك تفاعل أزلي بين الإنسان ومحيطه، وتساؤلاته، المنتجة للمعارف، والمعتقدات، والأفكار، والنص الموسوعي إحدى نتائج هذا التفاعل الذي يصرّ فيه المؤلف على قول كل شيء، من هنا انطلقت الحاجة الماسة لتداخل الأجناس، لأنّ الإنسان ذو الفكر الموسوعي، يرغب في الإحاطة بكل شيء، فهو لا يكتفي بموضوع واحد، وهذه الرغبة الملحة، تنسجم مع الواقع، والمتخيل في آن واحد، إذ الموضوعات التي يبحثها الإنسان هي جزء من وجود الإنسان، فالكتابة حاجة وجودية، أنا أكتب إذن أنا موجود.

الزّياني في الترجمانة، لا بدّ أنّه شعر بذلك الإلحاح الذي تعبر عنه مقدمته خير تعبير، إذ لا يتردد الزّياني في أن يهب لنفسه في هذا الكتاب حرية أن يكون هو الرّحال، والسفير، وكاتب السلطان، والمؤرخ، والمحب للشعر، وناظمه، والمتعلق بالأولياء، المعتقد بجواز التبرك بالموتى والأحياء، الشغوف بالعلوم العجيبة، العالم بالعلوم الشرعية.

ولنتضح العلاقة بين تداخل الأجناس وجماليات الوصف في الترجمانة الكبرى لأبي القاسم الزّياني، نحن بصدد عرض مجموعة من الأفكار التي تتصل اتصالاً وجوهياً ببناء نص الترجمانة على مستوى الحكى والدلالة، والتي ساهمت في بناء جمالية الوصف، وإبرازها.

أ. تعدد الأصوات (الرواة):

ليس صوت المؤلف الصوت الوحيد الذي يصدق بأفكاره، ومعتقداته، بل إنّ الترجمانة نصّ يزدهم بالأصوات التي قدمت أفكارها في أشكال متنوعة من الأجناس التي تم إدراجها بطرق متباينة، أراد من خلالها المؤلف إيصال فائدة ما، أو تحقيق غرض وغاية معينة.

1. الاقتباس:

بين الزّياني في مقدمته التي يتناول فيها منهجه ومصادره في تأليف الترجمانة، أنّه استفاد، واقتبس ممن سبقه "حليتها بحوادث، ونوادر، وحكايات جلبها المؤرخون الكبار، كالإمام ابن قتيبة، والمسعودي، والطبري، وابن عساكر، والذهبي، البكري، والبلاذري، وابن كثير، وابن خلدون، وابن أبي زرع، وابن زيدون، وابن حزم، وابن مزيروك، وابن الخطيب، قيدت من غرر كلامهم أوفر النصيب"¹، لم يقف الزّياني عند كتب المؤرخين فقط، بل اقتبس من كتب الرّحلات

¹ الترجمانة الكبرى: ص53-54-55.

أيضًا "وضعتها ما في (رحلة البكري) من النكت والأشعار، وما في (رحلة البلوي) من نفائس الأخبار، وما في (رحلة السرخسي) للأندلس، والمغرب، من كل ما يعجب ويغرب، وما في رحلة العياشي"¹، هل يقف عند هذا الحد؟ لا، الزياني يجد ما يستحق اقتباسه أيضًا من "محاضرة اليوسي، وأدبيات الولالي، وابن سعيد السوسي، وما يناسب ذلك من البراهين القاطعة، من التفسير، والفقه، والحديث، ومن شواهد العرب قديمهم، والحديث"².

واقتباس الزياني للأخبار عادة ما كان يجيء بدقة متناهية بحيث يحدد بداية الاقتباس ونهايته، كما في اقتباسه من ابن خلدون، "قال ابن أبي زيد: إن البربر ارتدوا اثنتي عشرة مرة بأفريقية والمغرب، ولم يكمل إسلامهم إلا في أيام موسى بن نصير في خلافة الوليد بن عبد الملك... الخ"³، وينهي الاقتباس بقوله: "اه كلام ابن خلدون"⁴، و (اه) تعني انتهى. والاقتباسات مثل هذه كثيرة في الترجمانة، فالكتابة عن البلدان، وتاريخها، وحكايات ملوكها، تقتضي العودة إلى مصادر تاريخية، أرخت لتلك الأمم، والممالك، والحقب الزمنية، فالزياني عندما نزل ببلاد الواسطة في الجزائر، جاء على ذكر أن من مزاراتها العظام ما يقولون إنه قبر نبي الله خالد بن سنان العبسي، غير أنه لم يقف على ذكره في أي من الكتب إلا ما قرأه في (رحلة العياشي)، فبدأ بالاقتباس بقوله: "فإنه قال: لما وقف على قبره، وزاره، وسمع ما يذكره به الناس من كراماته، وأنه بذلك المحل مدفون، ولقد أشكل علي أمره، إلا أن الذي شهر قبره من جهة الكشف، قال: إنه رأى نورًا صاعدًا من تلك البقعة إلى السماء ثلاث ليال...، انتهى كلام العياشي"⁵، والموضوعات التي يستعين عليها بالاقتباس كثيرة، فعند نزوله بقسنطينة، التقى بالباي القائم عليها، وكان ممن يعاقرون الخمر، فاستطرد الزياني بعد خبره، بإيراد أخبار ونوادر متعلقة بالخمريات، وقد اقتبس من شمس الدين النواجي "وقفت في (حلبة الكميت) على جماعة من الأمراء المولعين بشرب الراح والمُصْرَيْن عليها منهم أبو محجن الثقفي الأسري، وهو القائل: إذا مُتْ فادفني إلى جنب كرمة تروي عظامي في الممات عروقها"⁶

¹ الترجمانة الكبرى: ص55.

² المصدر السابق: ص55.

³ ينظر: المصدر نفسه: ص70.

⁴ المصدر نفسه: ص70.

⁵ المصدر نفسه: ص150.

⁶ المصدر نفسه: ص159.

وحكي من رأى قبر أبي محجن بأرمينية بين شجيرات كرم...، وفتيان أرمينية يخرجون بطعامهم، وشرابهم فيتنزهون عنده، وكلما شربوا كأساً صبوا على قبره كأساً¹، وبعض الاقتباسات تثير نزعة الزَيَّاني النقدية، منها ما أورد عن ابن خلدون في وصف البربر بعد الإسلام "قال ابن خلدون: وأما تخلقهم بالفضائل الإنسانية، وتنافسهم في الخلال الحميدة، وما جبلوا عليه من الخلق الكريم، ومراقبة الشرف، والرفعة بين الأمم، ومراعاة المدح، والثناء من الخلق، من عز الجوار، وحماية النزول، والأدمة، والوسائل، والوفاء بالقول والعهد...، فلهم في ذلك آثار ينقلها الخلف عن السلف"²، يعنون الزَيَّاني تعليقه على كلام ابن خلدون "اعتراض المؤلف على ابن خلدون"³، "قال كاتبه أبو القاسم بن أحمد الزَيَّاني: ما وصف به ابن خلدون هذا الجيل البربري من الأوصاف الحميدة، والمناقب السنية العديدة، معلومة للعرب الكرام، في الجاهلية، والإسلام، ولما ساءت أحوالهم، وخالف فعلهم مقالهم، حلّى بها الله هذا الجنس البربري قبل أن يخون ويفتري، ويزيغ عن الحق، ويمتري، ولما خالفَت الأفعال منهم الأقوال، وعاثوا في النفوس، والأموال، وسلبهم الله الملك، والعزَّ والسلطان...، ولم يبق منهم متخلق بتلك الأخلاق الحميدة، والأوصاف الفريدة إلا برابر الصحراء المنقطعون في القفر، لا يعرفون الغدر، والحفر"⁴، وهذا يؤكد أنّ الاقتباس باعتباره صوت الآخر، ينهض بدورٍ جمالي للوصف، فالأشياء، والأشخاص، والموضوعات، لا ينفرد المؤلف في تصويرها، بل يقدم مساحة لأصوات الآخرين، وخبراتهم، ومعارفهم، ولا يتوانى عن التعليق، وإيضاح وجه اعتراضه بانسجام تام، لا يخلّ بالسياق، إنّما يثريه، ويعزز قيمته المعرفية. ويبرز وظيفة الوصف الإخبارية، والأيدولوجية، والتعبيرية.

2. التوثيق:

يسعى المؤرخ دائماً إلى المحافظة على الوثائق ذات القيمة، عبر تدوينها في مؤلفاته، وذلك مما امتازت به الترجمة، فقد ضمنها الزَيَّاني عدداً من الأجناس والأنواع الأدبية التي وجد فيها قيمة للتاريخ، ولعلّ أبرز تلك الوثائق، رسالة محمد بن عبد الوهاب إلى علماء تونس، وقد وقعت بيد الزَيَّاني بعدما "وجه أهل تونس نسخة من رسالته لفاس، ونصّها"⁵، وفي

¹ الترجمة الكبرى: ص 159.

² ينظر: المصدر السابق: ص 72.

³ المصدر نفسه: ص 74.

⁴ المصدر نفسه: ص 75.

⁵ المصدر نفسه: ص 394.

المقابل ضمن جواب قاضي تونس على دعوة محمد بن عبد الوهاب "نص جواب قاضي تونس بعد الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله... الخ"¹، ويذيل نص رسالة قاضي تونس "هذا ما كتب من الجواب، والباقي أخرجه من نسخ غير هذا الصواب، فلذلك تركت كتابه لما فيه من الارتباب"²، ولا يبرح الزياني عاداته في التعليق على المواضيع الجدلية، "وقلت: وقد بقي على هذا المجيب فصل آخر وهو قول الوهبي: (فنصرنا الله عليهم، وظفرنا بهم). نقول في جوابه: إنّما الأعمال بالخواتم، قال تعالى: (إنّما نمي لهم ليزدادوا إثماً)، وإنّ الله يمهّل على الظالم حتّى يأخذه... الخ"³. ويوثق أبو القاسم أيضاً خطبة السلطان سليمان بن محمد⁴ التي يحذر فيها من انشغال الناس بالرقص، والإنشاد، واستعمال الآلات الموسيقية في المواسم، ويندد بالعقوبة لمن مارس مثل تلك الأفعال "فكتب خطبة من إنشائه، وبلاغته، لخطباء المساجد يخطبون بها في الجمع"⁵، ويلحقها الزياني بخطبة للقاضي عياض في الالتزام بالأوامر واجتناب النواهي، وطلب الهداية، والسعي فيها⁶، للمقارنة بينها وبين خطبة السلطان سليمان، "هذه الخطبة أحسن ما رأيت من الخطب المقتبسة من كتاب الله العزيز التي أنشأها أئمة التبليغ، فإنّ قابلتها مع خطبة مولانا أمير المؤمنين ألفيتها كالعقيم مع ذات البنات والبنين"⁷، وما يشير إليه هنا الزياني أنّ جمالية هذه الخطبة ترتبط بكونها تقوم على الآيات القرآنية، إذ لا يعتمد الخطيب فيها على الإنشاء، بقدر ما يعتمد إلى جعل الآيات القرآنية هي الأساس الذي تقوم عليه الخطبة، ويكتفي بالربط بينها بالجمال التي تضمن إيصال المعنى، مع الحفاظ على جمالية الإيقاع والمبنى، وهي ذاتها الطريقة التي أنشأت بها رسالة محمد بن عبد الوهاب. ويوثق الزياني أيضاً ردود النخب المثقفة في المجتمع على خطبة السلطان سليمان، فيقول: "ولما سمع هذه الخطبة الفقيه الأديب، اللوذعي الأريب،

¹ الترجمة الكبرى: ص 397.

² المصدر السابق: ص 402.

³ المصدر نفسه: ص 402.

⁴ ينظر: المصدر نفسه: ص 466-470.

⁵ المصدر نفسه: ص 466.

⁶ ينظر: المصدر نفسه: ص 470-471.

⁷ المصدر نفسه: ص 471.

محبا السيد أحمد الحبيب الرشدي مدحها، ومدح منشيها أمير المؤمنين بهذه القصيدة الغراء
التي أولها:

الخير كله في محبة أحمد غوث العوالم ذي المقام الأحمد
وسلوك سيرته لنيل مقامها سبب يحن إليه كل مسدد¹

ب. خصوصية الوصف في كل جنس:

تتميز أشكال الوصف، باختلاف الأجناس، فالوصف الذي يقوم في الشعر، لا يشبه الوصف الذي يعتمد فيه الواصف على الأبعاد الهندسية في وصف المكان، أو المصطلحات الجغرافية في وصف الأقاليم والبلدان في الجغرافيا الوصفية، كما لا يتشابه مع النثر المسجوع الذين يكثر في الرسائل الإخوانية، أو في تعبيرات المؤلف عن أحواله، وأفكاره في نص الرحلة. إذ برغم تداخل الأجناس في تركيبة بناء الترجمة، يحافظ كل جنس على خصوصيته الوصفية، مما يخلق تنوعاً جمالياً مدهشاً يقوم فيه الوصف بوظائفه المختلفة في كل جنس على حدة، وبشكل متوازن في بناء الترجمة الكبرى ككل.

فالوصف في الشعر غالباً ما تنهض فيه الوظيفة الجمالية التي تقوم على الأساليب البلاغية التي تسعى إلى تصوير الأشياء تصويراً خيالياً، فمن الأبيات التي أنشدها مفتي قسنطينة الفقيه أبو القاسم المحتالي للزياني قوله في حوادث الدهر:

يا ليت شعري هل الأقدار تلحقني بالسابقين وهل تشتد رغبة²
نجد في البيت السابق استعارات مكنية، يصور فيها ما تتشده نفسه من اللاحق بمن سبقه من العلماء والصالحين، وتتضح الصورة في تمام الأبيات:

وهل أنادِم سعد الدين مرتقياً مراقي السعد أو هم أجلاء
مولاي فضلك مبذول بلا سبب كن لي فذلك لي عز وإغناء
وما أبالي إذا ما كنت يا أملي لي النصير ومن في الكون أعداء³

¹ الترجمة الكبرى: ص 471.

² المصدر السابق: ص 154.

³ المصدر نفسه: ص 154.

وبرغم أن الجغرافيا الوصفية تقوم على الوصف الواقعي المبني على المعلومات المستقاة من المعاينة والمشاهدة، "سرنا إلى النواظم، ورأس وادي المنصرف، هو وادي بكثرة الرمال، والكتبان قد عرف، ليس به ماء ولا مرعى"¹، أو المصطلحات الرياضية "دخلنا باب السلام، وطول هذا المسجد أربعة وأربعون قوساً، وعرضه ثمانية وعشرون قوساً، وكل قوس عرضه ثمانية عشر قدماً"². يُقدم الزياني دمجاً بين الجغرافيا الوصفية والشعر الوصفي في وصفه مسالك درب الحجاز في رحلته الثالثة، "ثم سرنا إلى العقبة، وما أدراك ما العقبة، فكم بها من (حدرات، ومضيق)، وجبال في شكل الحمرة، والبياض، وهي علة في الطريق، وصعود، وانهباط، وعلو، وانحطاط:

وعقاب تسلك الناس بها بقلوب لم تزل مرتعبة
قد قطعناها بوقت معين لم نر فيها أموراً تعب
نحمد الله الذي خلّصنا وأرحنا من عقاب العقبة³

وتمتاز بعض الأجناس النثرية كالرسائل الإخوانية بكثرة استخدام السجع فيها، فمما جاء في وصف مؤلف الزياني (الترجمان المعرب) على لسان الفقيه أبي بكر بن إدريس المنجرة الحسني " الحمد لله وقفت على هذا التقييد المصنف، والتألف المقرط المشنف، وأمعنت في بعض مسائله النظر، وأنعمت وسائله كي ألنقط الخبر، فإذا هو كامل في فنه ومعناه، كاف في مقصده ومغزاه"⁴، ومن الأجناس التي تقوم على السجع لإيصال المقاصد، وبلوغ الغاية والمراد، الخطب، لأن السجع يطرب السمع، فيقدم الخطيب معانيه المرادة، في سبك بليغ وأناقة، ونجتزئ من خطبة السلطان سليمان بن محمد هذا المقطع الذي ينهض فيه السجع الواصف لأحوال العلماء الأتقياء من "قيام الليالي، ومجاهدة النفس في حفظ الأحوال، بالأفعال والأقوال، والبطن وما حوى، والرأس وما وعى، وآيات تتلى، وسلوك الطريقة المثلى، وحج، وجهاد، ورعاية السنة في المواسم والأعياد، ونصيحة تهتدى، وأمانة تؤدي"⁵.

¹ الترجمة الكبرى: ص218.

² المصدر السابق: ص188.

³ المصدر نفسه: ص220.

⁴ المصدر نفسه: ص555.

⁵ المصدر نفسه: ص468.

ت. ثنائية الواقع والمتخيل:

سجل الزباني في الترجمة الكبرى، بوصفها رحلة مكتوبة، مراحل سفره، ومنازلها، وما شاهده وعينه من أقاليم، وبلدان، ومجتمعات، مما قدم صوراً من الواقع الذي يقوم على الحقيقة الحسية التي يمكن اعتبارها وثائق علمية، تمتاز بالإشباع الوصفي، والوصف بسمته التقريرية، والزباني يقدم من خلال رحلته الحجازية إلى مكة لأداء فريضة الحج، والسفارية إلى إسطنبول للالتقاء بالسلطان عبد الحميد الأول، وإنجاز المهام التي أوكلها إليه سلطان المغرب محمد الثالث، وصفاً اجتماعياً، سياسياً، جغرافياً، يصور فيه جزءاً من واقع المنطقة الإسلامية في القرن الثامن عشر.

وأبرز تلك الالتفاتات، كان وصفه للصراع السياسي بين الدولة العثمانية، والدولة السعودية الأولى بقيادة محمد بن سعود الأول (1179هـ-1765م)¹، ومحمد بن عبد الوهاب الذي انطلق بتوقيعها ميثاق الدرعية عام (1151هـ-1744م)². ورسالة محمد بن عبد الوهاب تلخص العقيدة التي قامت عليها الدولة السعودية الأولى، التي يرفض فيها كل أشكال التبرك، والتوسل، بالموتى، وقبورهم، وأضرحتهم، ومزاراتهم فهو يدعو إلى "هدم القباب المبنية على القبور لأنها أسست على معصية الرسول صلى الله عليه وسلم"³، وهذه الدعوة من وجهة نظر محمد بن عبد الوهاب هي ما دفعت الدولة العثمانية إلى مقاتلتهم، وتكفيرهم "وهذا الذي أوجب الاختلاف بيننا، وبين الناس حتى آل الأمر إلى أن قاتلونا، وكفرونا، واستحلوا دماءنا، وأموالنا"⁴، وعليه اتخذوا قراراً بالمواجهة يقول في ذلك: "فمن لم يجب الدعوة بالحجة والبيان، دعوانه بالسيف والسنان"⁵، في المقابل الزباني يتخذ جانب الدولة العثمانية، فينقل عن الوزير يوسف باشا ما حصل بالدولة العثمانية من ضعف وهوان "ذهب من كنت تعرفه في المناصب من أهل المروءة والدين، وتصدر بها الأحداث والسفهاء من الممالك، والأعلاج، وأطراف الناس"⁶، وذلك في عهد السلطان سليم الثالث ابن أخي عبد الحميد⁷، الذي خلفه من بعده، والتي بدأت في عهده الحرب مع الدولة السعودية الأولى كما يصفها الوزير

¹ أبو علي، عبد الفتاح حسن: محاضرات في تاريخ الدولة السعودية الأولى، ط2، دار المريخ، الرياض، 1991، ص27.

² المرجع السابق: ص19.

³ الترجمة الكبرى: ص395.

⁴ المصدر السابق: ص395-396.

⁵ المصدر نفسه: ص396.

⁶ المصدر نفسه: ص189.

⁷ ينظر: المصدر نفسه: ص189 (الهامش).

العثماني يوسف باشا، على حد قوله: "حرب الشقي الوهبي"¹. كما يوثق الزياني انتصار الدولة العثمانية سنة 1233هـ ضد الدولة السعودية الأولى وسقوطها "ورد علينا الخبر مع الذين حجوا... عام 1233هـ أن عسكر الأمير أحمد بن علي صاحب مصر والحجاز هزموا القائل بأمر الوهبية، وتبدد شمل من معه من الوهبية، وقبض باليد، وأتوا به أسيراً لمصر مصفداً في الحديد، وتفرقت جُموعه، ووجه به صاحب مصر للإصطنبول، للسلطان محمود العثماني"². ويعترض الزياني على جواب الفقيه حمدون بن الحاج على رسالة محمد بن عبد الوهاب "ضمن الجواب عنها في قصيدة مدحه فيها، ولم يتعرض لبدعته، وذمه، والرد عليه"³.

وعلى صعيد الجغرافيا، اعتنى الزياني كمن سبقه بوصف مسالك درب الحجاز، فوصف منازل الطريق، وطبيعتها، وما امتازت به، والصعوبات التي واجهها، كما سجل المسافات التي استغرقها لعبور محطات الطريق، وفي ذلك يقول: "وبعدها الجد إلى سطح العقبة في المسير، وهو سطح واسع الأكناف، متسع الجوانب، والأطراف، لا يوصل إليه إلا بالاستطاعة لأن مدة المسير إليه اثنتا عشرة ساعة"⁴.

كذلك من المواضيع التي شغلت اهتمام الزياني، وصف عمران البلدان، والمدن، حيث سعى دائماً إلى وصف أهم الأماكن في البلد الذي ينزله فيه، فلما نزل بمصر، وصف مسجدها المشهور، "بطرف الرملة التي تلي مسجد السلطان حسن، وهو مسجد لا ثاني له في مصر، ولا في غيرها من البلاد، في ضخامة البناء ونباهته، وارتفاعه، وإحكامه، واتساع حناياه، وطول أعمدته الرخامية، وسعة أبوابه، كأنها جبال منحوتة، تصفق الرياح في أيام الصيف بأبوابه، كما تفعل في شواهد الجبال، وفي أحد أبوابه سارية رخامية لطيفة، يقال أنها من أيوان كسرى، وفيها نقوش عجيبة يقال على صورتها وضعت أبواب المسجد"⁵.

تعود نشأة المتخيل في الترجمانة الكبرى، إلى الجذور التي تمتد عميقاً في التراث الحكائي الشعبي، فبنية الوعي التي نشأ عليها الزياني، لا تنفك عن بنية الوعي الشعبي المغربي، المتصلة بالعجائبي من الأخبار، والحكايات الشعبية، لاسيما أن الزياني ينتمي إلى طبقة المؤرخين الذين اتبعوا

¹ الترجمانة الكبرى: ص 189.

² المصدر السابق: ص 403.

³ المصدر نفسه: ص 396.

⁴ المصدر نفسه: ص 220.

⁵ المصدر نفسه: ص 211.

منهج السلف في تضمين مؤلفاتهم بالأخبار العجائبية، خاصة ما تصل بالأماكن، "وزادت على ما جلبه ابن الجوزي من أخبار البحار، والقفار، وعلى ما في (خريدة العجائب) من الجزر، والعيون، والآبار، والأنهار"¹، ومن تلك الأخبار ما جاء في غرائب بحر الصين، إذ "يستدل على هيجانه بأن يطفو السمك على وجهه قبل هيجانه بيوم واحد، ويستدل على سكونه ببيض طائر معروف، يبيض على وجه الماء في مجتمع القذى، وهو طائر لا يأوي إلى الأرض أبدًا"²، ومن العجيب عن هذا البحر أن "في جزائره ينبت الذهب، ويكثر في بعض السنين ويقل في بعضها كالنبات"³. ومن عجائب الجزر، جزيرة النساء، يقول في وصفها: "ليس بها ذكر واحد إلا النساء، يلقحن ويحملن من الريح بنساء مثلهن"⁴.

والأخبار العجائبية كثيرة في الترجمان، منها ما أورده الزباني على شكل حكاية، مثل: حكاية ابن الفارض⁵، والرجل الذي حمله الملك إلى الجنة ببيت المقدس⁶، أو ما جاء في أخبار الأولياء وكراماتهم، مثل: خبر لقاء الزباني بالشيخ الصوفي جعفر الهندي⁷، وخبر الشيخ أحمد زروق مع أبي عبد الله محمد الزيتوني⁸، والبلاد وعجائبها مثل: خبر المرأة التي أنجبت أربعين ولدًا في بطن واحد⁹، والمدينة التي مسخ أهلها حجارة¹⁰، أو الأخبار الشعبية التي تتداولها الألسن، كما في استفسار أمين الصرة العثماني عن خبر المغارة العجيبة التي بالمغرب¹¹.

¹ الترجمانة الكبرى: ص 53.

² المصدر السابق: ص 296.

³ المصدر نفسه: ص 296.

⁴ المصدر نفسه: ص 305.

⁵ ينظر: المصدر نفسه: ص 101.

⁶ ينظر: المصدر نفسه: ص 268.

⁷ ينظر: المصدر نفسه: ص 262.

⁸ ينظر: المصدر نفسه: ص 368.

⁹ ينظر: المصدر نفسه: ص 243.

¹⁰ ينظر: المصدر نفسه: ص 253.

¹¹ ينظر: المصدر نفسه: ص 169.

ث. الفكر الموسوعي:

برز التداخل بين الأجناس والأنواع الأدبية، والعلوم والمعارف في الترجمانة الكبرى، نظراً للعقلية الموسوعية التي اتصف بها الزياني، وهو غير بعيد عن التأثر بالثقافة الإسلامية التي امتازت بالموسوعية "بوصفها رصيذاً لغوياً، وثقافياً"¹، حيث نشأ الزياني في بيئة ثقافية جمعت في اهتماماتها بين علوم الآلة كالنحو، والمنطق، والعلوم الشرعية، من فقه، وحديث، وعلم الأنساب، والتاريخ دون الابتعاد عن الشعر، والأدب، والأخبار التي كانت جزءاً لا يتجزأ من البناء الثقافي في الثقافة الإسلامية، والمجتمع المغربي ليس بمستثنى من ذلك. إذن فتأثر الزياني بالمناخ الثقافي لعصره، جعله يندفع "بصرامة منهجية، تمثلت صيغتها في تعلق المؤلف بكل علم"²، وهو ما ينعكس جلياً في مقدمة الترجمانة الكبرى، التي تظهر رغبة الزياني في جعل هذا المؤلف غير مقتصر "على ما في الرشاطي من الأمصار، ولا ما جمعه ابن عبد المنعم في (الروض المعطار)"³، لذلك سعى إلى أن يزيد "على ما جلبه ابن الجوزي من أخبار البحار والقفار، وعلى ما في (خريدة العجائب) من الجزر والعيون، والآبار، والأنهار، وعلى ما في عجائب المقدور من نفائس الحكم والأسرار"⁴، وأن يتجاوز من سبقه بإبراز "ما أغفلوه، ولم يكن به شعور، وإنذار"⁵، وجعله مؤلفاً يجمع بين جمالية سرد الحوادث والنوادر التي "جلبها المؤرخون الكبار"⁶، وتوظيف علم التاريخ، والأنساب في طرق المواضيع المتصلة بجغرافيا البلدان، وعمرانها، ومسالك الرحلات الحجازية إلى الحج، وإبراز المخزون الأدبي الذي يثري الكتابة بالاستشهادات الشعرية، دون الإغفال عن إظهار الانتماء السياسي، والعقائدي، الذي كان ضرورة لازمة لشخصية الزياني مؤرخ الدولة العلوية.

لهذا نحن في قراءتنا للترجمانة نرى الأثر الكبير الذي عكسه هذا الفكر الموسوعي على جماليات الوصف التي ازدهرت إثر التنوع الهائل الذي جمع بين ثلاث مواضيع رئيسية التاريخ،

¹ مسعود، أيوب: تداخل الأجناس في أدب الرحلة، ص216.

² تداخل الأجناس في أدب الرحلة: ص216.

³ الترجمانة الكبرى: ص53.

⁴ المصدر السابق: ص53.

⁵ المصدر نفسه: ص53.

⁶ المصدر نفسه: ص53.

والجغرافيا، والأدب، كان فيها التاريخ مضموناً عندما كانت الجغرافيا آلة¹، ويمكن الوقوف على هذا القول عبر ما نجد من صهر للتاريخ في الأطر الجغرافية التي يقدم فيها الزيّاني للمكان، فعند الحديث عن جغرافيا المغرب، أورد الزيّاني جملة من أخبار دخول المغرب بالإسلام حيث "تتابعت الفتوحات إلى أن بلغ الإسلام وادي نول أيام عقبة بن نافع، عام واحد وستين من الهجرة"². ثم استحال فيها التاريخ آلة والأدب مضموناً³، وذلك نَحَصَلْ لَمَّا كانت "الرحلة بوصفها إبداعاً"⁴ مخدمّة من التاريخ الذي نسج مع الجغرافيا بناء الترجمة الكبرى، والذي يمكن معاينته عبر مزج الزيّاني بنية الرحلة بالأخبار التي يتخذها المؤرخ مادة في عملية التأريخ التي يقوم بها. ومثال ذلك ما جاء في الترجمة والذي يمكننا الوقوف عليه عند تتبع المقاطع التالية: "الرحلة الأولى: وسياق الأولى توجهت مع والدي وسني إذ ذاك ثلاث وعشرون سنة بقصد أداء الفرض والمجاورة بحرم الرسول صلى الله عليه وسلم..."⁵، وهو المقطع الذي يُمثل جزءاً من بنية الرحلة المكتوبة، ثم المقطع الثاني الذي يمثل ذكر الأخبار التي يؤرخ لها المؤرخ، كما جاء في حديث الزيّاني عن السلطان محمد الثالث، فقد "لغ بسرد كتب السيرة والحديث، وجلب المحدثين من فاس ومكناس، وأنقلهم لمراكش..."⁶، ثم المقطع الثالث الذي يعود مرة أخرى لجعل من الجغرافيا آلة والتاريخ مضموناً "رجوعاً لخبر مغربنا وأول من عمر سواحل البحرية"⁷. وتتضح الرؤية عند قراءة المقاطع الثلاثة على التوالي، حيث إنّ الترجمة الكبرى تعكس التكامل بين التاريخ، والجغرافيا، والأدب، "فالمؤرخ وهو يؤرخ للأحداث لا بد أن يتكئ على الفعل الذي تقوم به ذات الرحالة"⁸، وذات الرحالة المؤلف هي من تؤلف النص الذي تعكس فيه تفاعلاتها مع المواضيع، والأشياء، والأشخاص، منتجةً الأدب بوصفه إبداعاً ثقافياً، يخضع لجميع العوامل التي تتصل بها ذات المؤلف، وتتألف منها.

¹ تداخل الأجناس في أدب الرحلة: ص 221.

² الترجمة الكبرى: ص 81.

³ تداخل الأجناس في أدب الرحلة: ص 230.

⁴ المرجع السابق: ص 230.

⁵ الترجمة الكبرى: ص 58.

⁶ المصدر السابق: ص 63.

⁷ المصدر نفسه: ص 77.

⁸ تداخل الأجناس في أدب الرحلة: ص 229.

الخاتمة:

توصلنا من خلال دراسة جماليات الوصف في الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور بَرًا وبحرًا لأبي القاسم الزباني مؤرخ الدولة العلوية، إلى أن ثمة علاقة بين النص الرحلي وجماليات الوصف، وقد قمنا بتحليل ما في الترجمانة من أجناس وأنواع الأدبية، وعلوم ومعارف، وأساليب وصف وحاولنا تبين وظائف ذلك في الترجمانة الكبرى، مما قادنا للوصول إلى عدد من الاستنتاجات هي:

1. أن النص الرحلي في مراحله الأولى تداخل مع عدد من الأجناس والأنواع الأدبية، والعلوم والمعارف، نظرًا لتأثره بالمناخ الثقافي الذي ارتبط بالفكر الموسوعي عند العلماء المسلمين، خاصة في سعيهم للجمع بين العلوم الشرعية، والتاريخ والجغرافيا، والآداب، ومن ثم انعكست العقلية الموسوعية للعالم والمؤرخ والرحالة أبي القاسم الزباني في بناء الترجمانة الكبرى، مما جعل النص الرحلي عنده يخضع للتداخل الذي تحرر منه أدب الرحلة إلى حد ما في وقت لاحق، وذلك ما يعكسه حضور العديد من الأجناس الأدبية كالحكاية، والرسالة، والشعر، والأنواع الأدبية كالنادر، والعلوم أيضًا كالتاريخ والجغرافيا، والعقيدة في بناء الترجمانة الكبرى.
2. تعددت تقنيات الوصف إثر تداخل الأجناس القائم على الفكر الموسوعي للمؤلف الرحال الذي سعى في الترجمانة الكبرى إلى تصوير مجموعة متنوعة من الموصوفات، فبرز الوصف المباشر، والوصف بالمقارنة في الأجزاء التي صورت البلدان وعمرانها، والوصف بالتدرج في وصف منازل السفر، وطرقه، وتجلّى تصوير الشخصيات وملامحها عبر الوصف بالحوار، وبالفعل، والوصف غير المباشر. وظهر السجع أسلوبًا بلاغيًا وظّفه المؤلف في تصوير الأحاسيس، والمشاعر، والانفعالات.
3. تمايزت جماليات الوصف في بناء الترجمانة الذي جمع بين عدد من الأجناس والأنواع الأدبية، والعلوم والمعارف، إذ ظهرت جمالية السجع في الخطبة، والرسائل الإخوانية، وفي بعض أجزاء الرحلات الثلاث، ونهضت جمالية الحكى في الأخبار العجائبية،

والحكايات، وبرزت جمالية العلوم والمعارف في التنوع الذي جمع بين الأخبار التاريخية، والمعلومات الجغرافية، وبحث المواضيع العقائدية عند بعض الطوائف، والأديان السماوية.

4. تنوعت جماليات الوصف أيضًا إثر تباين توظيف تقنيات الوصف في بناء الترجمة، فأبرز الوصف بالتدرج النمو الذي تخضع لها الموصوفات في علاقتها مع الزمن، كما قدم الوصف بالمقارنة صورةً عن أنظمة الدول على الصعيد العمراني، والاجتماعي، والتغيرات السياسية. وبين الوصف بالحوار، والوصف المباشر وغير المباشر الأيديولوجيات التي كانت سائدة في زمن تدوين الترجمة.

5. كما لاحظنا أن جماليات الوصف، لا تقتصر على الأساليب البلاغية التي ترتبط بالوظيفة الجمالية المباشرة للوصف، بل إن جماليات الوصف تقوم على الوصف باعتباره أداة تقبض على ما يُشاهد ويُعاش في العالم الخارجي، وأداة تُترجم الأحاسيس والانفعالات والمشاعر، كما أنه أداة تُصور الأفكار بوصفها تصورات تقوم في الأذهان فينقلها إلى حيز الكتابة.

6. كما لا نغفل عن الإشارة إلى أهمية الوصف في النص الرحلي، ذلك أن الوظيفة السردية للوصف، أو ما يُطلق عليه محمد الناصر العجيمي تسريد الوصف، تُبين الدور المهم الذي يلعبه الوصف منسجماً مع السرد في بناء النص الرحلي الذي يقوم على سرد الأحداث، والمشاهدات التي يُعاشها المؤلف الرحال في رحلته.

من خلال ما تقدم يمكن التوصل إلى أن النص الرحلي ينطوي على جماليات متنوعة للوصف، ويعود هذا التنوع والزخم إلى التداخل الذي خضع له النص الرحلي في حالة المؤلف الموسوعي الذي أراد إحصاء ما اتصل ببنيته رحلاته، دون انفكاكه عن التفاعل الإنساني، والمعرفي مع الأماكن، والشخصيات، والأحداث التي عايشها في إطار زمني أخضع بنية الرحلة أولاً، ثم عملية كتابتها لعدد من المؤثرات الثقافية، والاجتماعية، والمعرفية.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

المدونة:

1. الزباني، أبو القاسم: الترجمة الكبرى في أخبار المعمور برًا وبحرًا، تحقيق: عبد الكريم الفيلاي، ط2، دار نشر المعرفة، الرباط1991 .
2. الزباني، أبو القاسم: البستان الطريف، في دولة أولاد مولاي الشريف، القسم الأول، من النشأة إلى نهاية عهد سيدي محمد بن عبد الله، دراسة وتحقيق: رشيد الزاوية، ط1 مركز الدراسات والبحوث العلوية، الرباط1992.
3. العلوي، السلطان سليمان: "خطبة السلطان المقدس مولانا سليمان العلوي رحمه الله في الانتصار للسنّة ومحاربة بدع الطوائف الضالة، تقديم: د. محمد تقي الدين الحسيني الهلالي، الرباط، مكتبة ومطبعة الساحل، (د.ت.).

المصادر:

1. أغسطينوس: اعترافات القديس أغسطينوس: ترجمة: يوحنا الحلو، ط4، دار المشرق، بيروت 1991.
2. البغدادي، الحافظ أبو بكر أحمد بن علي : تاريخ بغداد، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت.).
3. ابن بطوطة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، حققه وقدم له: محمد عبد المنعم العريان، راجعه وأعد فهرسه: مصطفى القصاص، ج1، ط1، دار إحياء العلوم، بيروت، 1987.
4. التازي، عبد الهادي: رحلة الرحلات، مكة في مائة رحلة مغربية ورحلة، ج1، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، مكة المكرمة، 2005.
5. التجاني، أبو محمد عبد الله بن محمد: رحلة التجاني، قدم له: حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، 1981.

6. التطواني، محمد بن عبد الله الصّفار الأندلسي: رحلة الصّفار إلى فرنسا، تحقيق وتقديم: سوزان ميللر، وترجمها وشارك في التحقيق: خالد بن الصغير، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2007.
7. التلمساني، أحمد بن هطّال: رحلة محمّد الكبير، باي المغرب الجزائري، إلى الجنوب الصّحراوي الجزائري، تحقيق وتقديم: محمّد بن عبد الكريم، ط1، عالم الكتب، القاهرة، 1969.
8. الجاحظ: الترتيب والتدوير، المملكة المتحدة، مؤسسة هنداوي، 2019.
9. الجرجاني، علي بن محمد: معجم التعريفات، تحقيق ودراسة: محمّد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة، (د.ت.).
10. ابن جعفر، أبو الفرج قدامة: نقد الشعر، تحقيق وتعليق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت.).
11. الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حمّاد: تاج اللغة وصّاح العربيّة، راجعه: د. محمّد محمّد تامر، أنس محمد الشامي، زكريا جابر أحمد، دار الحديث، القاهرة، 2009.
12. ابن حجر العسقلاني، شهاب الدّين أحمد بن علي: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، 1993.
13. الحموي الرّومي، ياقوت: معجم الأدباء، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، تحقيق: د. إحسان عبّاس، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1993.
14. ابن الحنبلي، رضيّ الدّين محمّد بن إبراهيم: درّ الحبّ في تاريخ أعيان حلب، حققه: محمود حمد الفاخوري، ويحيى زكريا عبّارة، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1972.
15. الخزرجي، أبو دلف مسعر بين المهلهل: الرّسالة الثّانية، اعتنى بنشره: مينورسكي، الأستاذ بكلية لندن، مطبعة جامعة القاهرة، 1955.
16. ابن خلدون، عبد الرّحمن: التعريف بابن خلدون ورحلته غربًا وشرقًا، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1979.
17. ابن خلكان، أبو العبّاس شمس الدّين أحمد: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزّمان، تحقيق: إحسان عبّاس، دار صادر، بيروت، 1978.

18. الدرعي، أبو العباس أحمد بن محمد بن ناصر: الرحلة الناصرية، تحقيق: عبد الحفيظ ملوكي، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2011.
19. 1 ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن: كتاب جمهرة اللّغة، ج2، ط1، مطبعة مجلس دائرة المعارف، بلدة حيدر آباد الدكن، 1344هـ.
20. الرازي، محمد بن أبي بكر: مختار الصّاح، مكتبة لبنان، بيروت، 1986.
21. ابن رشيقي، أبو علي الحسن: العمدة في محاسن الشعر، وآدابه ونقده، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ج2، ط5، دار الجيل، بيروت، 1981.
22. الزبّيدي، السيد محمد مرتضى: تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: التريزي وحجازي والطحاوي والعزباوي، راجعه: عبد الستار أحمد فراج، مطبعة حكومة الكويت، 1975.
23. الزبّيدي، السيد محمد مرتضى: تاج العروس من جواهر القاموس، ج29، تحقيق: عبد الفتاح الحلو، راجعه: أحمد مختار عمر، وخالد عبد الكريم جمعة، سلسلة التراث العربي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1997.
24. الزركلي، خير الدين: الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ج7، ط15، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 2002.
25. الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود: أساس البلاغة، تحقيق: محمد باسل عيون السود، ج2، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998.
26. الزوزني: المعلقات السبع مع الحواشي المفيدة، تحقيق: محمد خير أبو الوفاء، مراجعة: مصطفى قصاص، ط1، مكتبة البشري، باكستان، 2011.
27. السّخاوي، شمس الدّين محمد: الصّوّء اللّامع لأهل القرن التّاسع، ط1، دار الجيل، بيروت، 1992.
28. السوسي، أبو عبد الله محمد: الرّحلة الحجازيّة، ضبطه وعلق عليه: د. عبد العالي لمدير، ط1، مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث، الرابطة المحمّدية للعلماء، الرباط، 2011.
29. الشرقي، محمد الطيب ابن محمد بن موسى الفاسي: رحلة ابن الطيب من فاس إلى مكة المكرمة، تحقيق: عارف أحمد عبد الغني، دار العراب، دمشق، 2014.

30. شعر علي بن جبلة الملقب بالعكوك: جمعه وحققه وقدم له: د. حسين عطوان، ط3، دار المعارف، القاهرة، (د.ت).
31. ابن طفيل: حي بن يقظان، قدم له وعلق عليه وشرحه: علي بو ملحم، ط1، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 1993.
32. العبدري، أبو عبد الله: رحلة العبدري، تحقيق: د. علي إبراهيم كردي، ط2، دار سعد الدين، دمشق، 2005.
33. عثمان، محمد بن عبد الوهاب: البدر السافر لهداية المسافر إلى افتكاك الأسارى من يد العدو والكافر، تقديم وتعليق: د عبد الهادي التازي، ط1، كتاب العربية 52، الرياض، 2012.
34. العسكري، أبو هلال: كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر، تحقيق: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، دار إحياء الكتب العربية، 1952.
35. العياشي، عبد الله بن محمد: الرحلة العياشيّة، حققها: د. سعيد الفاضلي، د. سليمان القرشي، مجلد2، ط1، دار السويدي، أبو ظبي، الإمارات، 2006.
36. الغزال، أحمد بن المهدي: نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد، تحقيق: إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984.
37. الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد: إحياء علوم الدين، ط1، دار ابن حزم، بيروت، 2005.
38. ابن فارس، أبو الحسين أحمد: معجم مقاييس اللغة، اعتنى به: محمد عوض مرعب وفاطمة محمد أصلان، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 2001.
39. ابن فارس، أبو الحسين أحمد: مقاييس اللغة، تحقيق وضبط: عبد السلام محمد هارون، ج6، دار الفكر، 1979.
40. الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد: كتاب العين، تحقيق: د. مهدي المخزومي، ود. إبراهيم السامرائي، ج7، دار ومكتبة الهلال، (د.ت).
41. ابن فضلان: رسالة ابن فضلان، تحقيق سامي الدّهان، المطبعة الهاشمية، دمشق، 1960.
42. الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب: القاموس المحيط، نسخة منقحة علق عليها: الشيخ أبو الوفا نصر الهوريني المصري الشافعي، راجعه: أنس محمد الشامي وزكريا جابر أحمد، دار الحديث، القاهرة، 2008.

43. الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب: القاموس المحيط، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف محمد نعيم العرقسوسي، ط8، مؤسسة الرسالة، بيروت، 2005.
44. ابن قنفذ، أبو العباس أحمد الخطيب: أنس الفقير وعزّ الحقير، اعتنى بنشره وتصحيحه: محمد الفاسي، وأدولف فور، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، سلسلة الرحلات2، زيارة1، الرباط، 1965.
45. المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين: التنبيه والإشراف، راجعه وصححه: عبد الله إسماعيل الصاوي، دار الصاوي، القاهرة، 1938.
46. المقري، أحمد بن محمد: المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، تحقيق: عبد العظيم الشناوي، ط2، دار المعارف، القاهرة، (د.ت.).
47. المكناسي، محمد بن عبد الوهاب: رحلة المكناسي، المسماة إحرار المعلى الرقيب في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والتبرك بقبر الحبيب، تحقيق: محمد بوكبوط، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2003.
48. ابن منظور: لسان العرب، اعتنى به: أمين محمد عبد الوهاب، محمد الصادق العبيدي، ج5، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، 1986.
49. ابن منظور: لسان العرب، مجلد6 و8، دار صادر، بيروت، (د.ت.).
50. ابن منظور: لسان العرب، قم، إيران، نشر أدب الحوزة، مجلد7 و9، محرم 1405.
51. الناصري، أبو عبد الله محمد بن عبد السلام: الرحلة الناصرية الكبرى، تحقيق د. المهدي الغالي، ج1، ط1، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، 2013.
52. ابن النديم: الفهرست، دار المعرفة، بيروت، (د.ت.).
53. ابن الوردي، سراج الدين: خريدة العجائب وفريدة الغرائب، تحرير: حماة الله ولد السالم، دار الكتب العلمية، بيروت، 2014.
54. اليوسي، أبي المواهب الحسن: القانون في أحكام العلم، وأحكام العالم، وأحكام المتعلم، تحقيق: حميد حماني، ط1، مطبعة شالة الرباط، 1998.

المراجع العربية:

1. أحمد، أحمد رمضان: الرحلة والرحالة المسلمون، دار البيان العربي، جدة، (د.ت.).
2. الأخضر، محمد: الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية (1075-1311/1664-1894)، ط1، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1977.
3. أصلان، إبراهيم: مالك الحزين، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1998.
4. بارت، رولان: نقد وحقيقة، ترجمة: د. منذر عياشي، ط1، دار الإنماء الحضاري، حلب، 1994.
5. برنس، جيرالد: قاموس السرديات، ترجمة: السيد إمام، ط1، ميريت للنشر والمعلومات، القاهرة، 2003.
6. البلغيثي، آسية الهاشمي: المجالس العلمية السلطانية على عهد الدولة العلوية الشريفة، ج1، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 1996.
7. بنعبد الله، عبد العزيز: تاريخ المغرب، العصر الحديث والفترة المعاصرة، مع المعجم التاريخي، ج2، مكتبة السلام، الدار البيضاء، (د.ت.).
8. بيار، جورج: معجم المصطلحات الجغرافية عند العرب، ترجمة: محمد الطفيلي، مراجعة: هيثم اللمع، ط2، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 2002.
9. تودوروف، تزفتان: مدخل إلى الأدب العجائبي، ترجمة: الصديق بوعلام، تقديم: محمد برادة، ط1، دار الكلام، الرباط، 1993.
10. تولستوي، ليو: الحرب والسلام، ج1، ترجمة سامي الدروبي وصياح الجهم، ط وزارة الثقافة، دمشق، 1977.
11. جرييه، آلان روب: نحو رواية جديدة، ترجمة: مصطفى إبراهيم مصطفى، تقديم: د. لويس عوض، دار المعارف، القاهرة، (د.ت.).
12. الحاتمي، محمد: المعرفي والأدبي في الرحلات المغربية، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2020.
13. حركات، إبراهيم: التيارات السياسية والفكرية بالمغرب، خلال قرنين ونصف قبل الحماية، ط2، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1994.
14. حركات، إبراهيم: المغرب عبر التاريخ، ج3، ط2، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1994.

15. حسين، حسني محمود: أدب الرحلة عند العرب، ط2، دار الأندلس، بيروت، 1983.
16. حليفي، شعيب: الرحلة في الأدب العربي، التجنيس، آليات الكتابة، خطاب المتخيل، ط1، رؤية للنشر والتوزيع، 2006.
17. حليفي، شعيب: شعرية الرواية الفانتاستيكية، ط1، دار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، 2009.
18. خصباك، شاكر: الجغرافيا عند العرب، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1986.
19. الخطيب، بشرى محمد علي: القصة والحكاية في الشعر العربي، في صدر الإسلام والعصر الأموي، ط1، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1990.
20. خليفة، علي محمد السيد: فن النادرة عند الجاحظ. (د.ن) (د.ت).
21. خمّار، عبد الله: فنّ الكتابة، تقنيّات الوصف، منهج مقترح لإثراء نشاط التعبير، نشر مشترك مع دار الكتاب العربي بالجزائر، (د.ت).
22. الداية، علياء: الوعي الجمالي، في السرد القصصي، ط1، دار الحوار، اللاذقية، 2012.
23. دوستوفسكي: الجريمة والعقاب، ترجمة: فوزي عطوي، ج1، ج2، دار الكتاب العربي، بيروت، 1968.
24. رضا، أحمد: متن اللّغة، موسوعة لغوية حديثة، مجلد5، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1960.
25. زيتوني، لطيف: معجم مصطلحات نقد الرواية، عربي، إنجليزي، فرنسي، ط1، دار النهار للنشر، بيروت، 2002.
26. الشكعة، مصطفى: مناهج التأليف عند العلماء العرب، ط6، دار العلم للملايين، بيروت، 1991.
27. شيخة، جمعة: الثقافة: لغة واصطلاحًا، حدودها وأبعادها، رابطة العالم الإسلامي، المملكة العربية السعودية، 2014.
28. الشيدي، بدر: قهقهة على الرصيف، ما تيسر من سيرة التطواف والسكون، الآن ناشرون وموزعون، 2024.
29. صالح، الطيب: عرس الزين، دار العودة، بيروت، 1988.
30. صالح، الطيب: موسم الهجرة إلى الشمال، ط14، دار العودة، بيروت، 1987.

31. صليبا، جميل: المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982.
32. أبو الضياف، أحمد: إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، تحقيق: لجنة من وزارة الشؤون الثقافية، المجلد 2، ط1، الدار العربية للكتاب، 1999.
33. عبد العزيز، إبراهيم: أنا نجيب محفوظ، سيرة حياة كاملة، ط1، دار نفرو للنشر والتوزيع، مصر، 2006.
34. عبد النور، جبور: المعجم الأدبي، ط2، دار العلم للملايين، بيروت، 1984.
35. العجيمي، محمد الناصر: الخطاب الوصفي في الأدب العربي القديم، الشعر الجاهلي أنموذجًا، ج1 و2، مركز النشر الجامعي، تونس، 2003.
36. أبو علي، عبد الفتاح حسن: محاضرات في تاريخ الدولة السعودية الأولى، ط2، دار المريخ، الرياض، 1991.
37. العمامي، محمد نجيب: الوصف في النص السردى، بين النظرية والإجراء، ط1، دار محمد علي للنشر، تونس، 2010.
38. العيد، يمنى: تقنيات السرد الروائي، في ضوء المنهج البنوي، ط3، دار الفارابي، بيروت، 2010.
39. فتحي، إبراهيم: معجم المصطلحات الأدبية، ط1، المؤسسة العربية للناشرين المتحدين، صفاقس، 1986.
40. فرعون، مولود: الدروب الوعرة، ترجمة: د. حنفي بن عيسى، ط5، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1990.
41. الفندي، جمال: الجغرافيا عند المسلمين، ترجمة: إبراهيم خورشيد، عبد الحميد يونس، حسن عثمان، ط1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982.
42. قسومة، الصادق: طرائق تحليل القصة، دار الجنوب للنشر، تونس، 2000م.
43. قنديل، فؤاد: أدب الرحلة التراث العربي، ط1، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، 2002.
44. القيسي، فايز عبد النبي فلاح: أدب الرسائل في الأندلس، في القرن الخامس الهجري، ط1، دار البشير، عمان، 1989.

45. كحالة، عمر رضا: معجم المؤلفين، تراجم مصنّفي الكتب العربية، ج3، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1993.
46. كراتشكوفسكي، أغناطيوس يوليانونوفتش: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة: صلاح الدين عثمان هشام، راجعه: إيغور بلياييف، طباعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1963.
47. لحمداني، حميد: بنية النصّ السردى من منظور النقد الأدبي، ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1991.
48. لوجان، فيليب: السيرة الذاتية، الميثاق والتاريخ الأدبي، ترجمة وتقديم: عمر حلي، بيروت، ط1، المركز الثقافي العربي، 1994.
49. مانفريد، يان: علم السرد، مدخل إلى نظرية السرد، ترجمة: أماني أبو رحمة، ط1، دار نينوى، دمشق، 2011.
50. مبروك، مراد عبد الرحمن: بناء الزمن في الرواية المعاصرة، رواية تيار الوعي نموذجًا (1967-1994)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1998.
51. مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، ط4، مكتبة الشروق الدولية، 2004.
52. مجموعة مترجمين: طرائق التحليل السردى، ط1، اتحاد كتاب المغرب، الرباط، 1992.
53. مجموعة مؤلفين: بإشراف محمد القاضي، معجم السرديات، ط1، الرابطة الدولية للناشرين المستقلين، دار محمد علي للنشر، تونس، 2010.
54. مجموعة لمؤلفين: المعجم الوسيط، ج1، المكتبة الإسلامية، إسطنبول، تركيا، (د.ت).
55. مجموعة مؤلفين: ندوة الحركة العلمية في عصر الدولة العلوية إلى أواخر القرن التاسع عشر، رقم8، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، وجدة، المملكة المغربية، 1993.
56. محفوظ، عبد اللطيف: وظيفة الوصف في الرواية، ط1، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2009.
57. محفوظ، نجيب: خان الخليلي، مؤسسة هنداوي، 2023.
58. محفوظ، نجيب: القاهرة الجديدة، ط4، دار الشروق، القاهرة.
59. مسعود، أيوب: تداخل الأجناس في أدب الرحلة، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2020.

60. مشعل، نداء أحمد: الوصف في تجربة إبراهيم نصر الله الروائية، ط1، وزارة الثقافة، عمان ، 2015.
61. الموافي، ناصر عبد الرزاق: الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، ط1، دار النشر للجامعات المصرية، المنصورة، 1995.
62. مودن، عبد الرحيم: أدبية الرحلة، ط1، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1996.
63. مونسى، حبيب: شعيرة المشهد في الإبداع الأدبي، دار الغرب للنشر والتوزيع، 2003.
64. ميكيل، أندريه: جغرافية دار الإسلام البشرية حتى منتصف القرن الحادي عشر، ترجمة: إبراهيم خوري، ج1، القسم1، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1983.
65. النجار، محمد رجب: النثر العربي القديم، من الشفاهية إلى الكتابية، فنونه، مدارس، أعلامه، ط1، دار الكتاب الجامعي، بيروت، 1996.
66. نجيب، مليكة: المرأة في الرحلة السفارية المغربية، خلال القرنين 18 و19، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2014.
67. نصر الله، إبراهيم: مجرّد 2 فقط، ط2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1999.
68. نووي، الحاج عين الحق: مدخل في علم الخطابة، مكتبة رادجا، جيمبر، إندونيسيا، فبراير 2017.
69. هلال، عبد الناصر: آليات السرد في الشعر العربي المعاصر، ط1، مركز الحضارة العربية، القاهرة، 2006.
70. همنغواي، إرنست: وداعاً أيها السلاح، ترجمة: رفعت نسيم، مراجعة: أحمد زكي عبد الحليم، دار القلم، بيروت، (د.ت.).
71. وهبه، مجدي، وكامل المهندس: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، ط2، مكتبة لبنان، بيروت، 1984.
72. يعقوب، إميل، وبسام بركة، ومي شيخاني: قاموس المصطلحات اللغوية والأدبية، عربي، إنجليزي، فرنسي، ط1، دار العلم للملايين، بيروت، 1987.
73. يقطين، سعيد: تحليل الخطاب الروائي، الزمن، السرد، التبئير، ط3، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1997.

74. يقطين، سعيد: السرد العربي، مفاهيم وتجليات، ط1، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2012.

المقالات:

1. إسماعيل، محمود: رحلة ابن بطوطة مصدر هام لدراسة الطرق الصوفية في الشرق الإسلامي، مؤلف جماعي: أدب الرحلة والتواصل الحضاري، سلسلة ندوات5، مطبعة فضالة، جامعة المولى إسماعيل، مكناس، 1993.
2. حسين تروش: جهود المستشرقين الروسي أغناطيوس يوليانونوفتش كراتشكوفسكي والفرنسي أندريه ميكيل في التعريف بالأدب الجغرافي العربي، مجلة دراسات معاصرة، المجلد 6، العدد1، جامعة تيسمسيلت، الجزائر، تاريخ النشر 2022/6/2.
3. الخليلي، عبد العزيز: زاوية تمجروت والمخزن 1642-1914، الرباطات والزوايا في تاريخ المغرب، دراسة تاريخية مهداة للأستاذ إبراهيم حركات، تنسيق: نفيسة الذهبي، ط1، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 1997.
4. زكري، لأمعة: الرحلة العلمية ودورها في إثراء المجال العلمي: المفهوم، الدوافع، الأنواع، دورية كان التاريخية، العدد 22، ديسمبر 2013.
5. لحسن، دحماني: البركة والتبرك والزوايا: مقارنة سوسيولوجية لواقع التدين بالمغرب، قسم الدراسات الدينية، بحث عام، مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، 16 أبريل 2019.
6. ولد النبيلة، كريم: مسألة التحقيق عند المؤرخ سعد الله، المجلة المغربية للدراسات التاريخية والاجتماعية، جامعة سيدي بلعباس، مجلد7، عدد2، ديسمبر 2016.

المقالات من الشبكة العنكبوتية:

1. داغستاني، عبد المجيد: كتاب رحلة ابن الطيب من فاس إلى مكة المكرمة، محمد الطيب الفاسي، موقع قبلة الدنيا، مكتبة الحج والطواف، 2019/04/11 <https://2u.pw/PChVd54g>
2. دوير، محمود: غضب وشروط، مراجعة لأعمال نجيب محفوظ تثير الجدل، القاهرة، سكاي نيوز عربية، 15 ديسمبر 2021 <https://2u.pw/tJSWsr7>

الرسائل الجامعية:

1. بصحراوي، محمد، مليكة بوسوار: الباي محمد الكبير ودوره في بايلك الغرب الجزائري، 1779-1797م، رسالة ماجستير، جامعة ابن خلدون، الجزائر، 2015-2016.
2. فاطيمة، ظافري: البنية الزمكانية في رواية "حب في خريف مائل" لسمير قسيبي، رسالة ماجستير، جامعة 8 ماي 1945 قالمة، الجزائر، 2018/2019.
3. بولحبال، رياض: أخبار بلد قسنطينة وحكامها لمؤلف مجهول (دراسة وتحقيق)، رسالة ماجستير، جامعة منتوري قسنطينة، الجزائر، 2009-2010.

مراجع أجنبية:

1. Bakhtin,M,M: The dialogic imagination, Edited by Michael Holquist, Translated by Caryl Emerson and Michael Holquist, Austin, University of Texas press.
2. A group of authors: Proceedings of the workshop entitled, Bakhtin`s theory of the literary chronotope: Reflections, Applications, Perspectives, Gent, Academia press, 2010.
3. J.A Cuddon: Dictionary of literary terms and literary theory, Penguin Group, 1999,4th edition, England.
4. Russell, Bertrand: Human Knowledge, Its Scope and Limits, 9, George Allen and Unwin LTD, London, 1948.

Summary of the Research

This study focused on the aesthetics of description in "Al-Tarjumanah Al-Kubra" in the news of Al-Ma'mur by land and sea, by Abu Al-Qasim Al-Zayani. The study is divided into six parts - an introduction, four chapters, and a conclusion. The first chapter examines the literature of travel, addressing the issue of naturalizing travel through exploring the concept of literary genre, the travel text, and then delves into Moroccan travels in the 18th and early 19th centuries.

The second chapter discusses description in narrative works, exploring the concept of description linguistically and in terms of terminology, defining the elements of description such as time, place, and characters. The third chapter aims to elucidate description techniques based on external and internal elements of description, and language as a fundamental component in shaping descriptive language. The final chapter explores the interplay of genres in "Al-Tarjumanah Al-Kubra" in terms of literary genres and sciences.

In the fourth and final chapter, the study delves into the aesthetics of description in "Al-Tarjumanah Al-Kubra" by examining description techniques and their functions, as well as the relationship between genre interplay and the aesthetics of description in the text.

In conclusion, the study reached several key findings:

- The construction of travel literature in its early stages intersected with a number of different genres, literary types, sciences, and knowledge.
- The aesthetics of description in "Al-Tarjumanah Al-Kubra" were influenced by the interplay of these differing genres, literary types, sciences, and knowledge in constructing the travel text.
- The aesthetics of description in "Al-Tarjumanah Al-Kubra" were influenced by diverse description techniques present in different genres, literary types, sciences, and interconnected knowledge in constructing the travel text.
- The aesthetics of description in "Al-Tarjumanah Al-Kubra" manifested through various descriptive functions, not solely through the aesthetic function of description.

UNIVERSITY OF BAHRAIN

Collage of Arts



**Department of Arabic
language & Islamic studies**

**The aesthetics of description in the Great Tarjumanah
in the news of the world by land and sea
By Abu al-Qasim al-Zayani (1249–1833)**

A Thesis Submitted in Partial Fulfillment of the Requirements for the
master's degree in Arabic Language and Literature

Submitted by:
Samya Khaled Abdulla

University Number:
20125607

Supervised by:
Prof. Dr. Ahmad Mohamad Wais
Professor of literary theory and stylistics
University of Bahrain

Kingdom of Bahrain
March 2024